خليل النعيمي

دمشق ٦٧



منشورات الجمل

خليل النعيمي: دمشق ٦٧، رواية



خليل النعيمي

دمشق ٦٧

رواية

منشورات الجمل

ولد **خليل النعيمي** عام ١٩٤٣ في بادية الشام. درس الطب والفلسفة في دمشق حيث حاز على الدكتوراه في الطب والليسانس في الفلسفة. تابع دراسة الفلسفة بباريس وهناك تخصص في الجراحة، حيث يقيم ويعمل اليوم متخصصاً في جراحة الهضم والكبد. صدر له: **صُوَرٌ من ردود الفعل لأحد أفراد العالم الثالث**، شعر (دمشق ١٩٦٨)؛ **الرجل الذي يأكل نفسه**، رواية (بيروت ١٩٧٣)؛ **موت الشعر**، دراسة (باريس – بيروت ١٩٧٧)؛ **الشيء**، رواية (بيروت ١٩٨٠)؛ **الخُلَعاء**، رواية (باريس ١٩٨٠)؛ **القطيعة**، رواية (القاهرة ١٩٨٧)؛ **تفريغ الكائن**، رواية (القاهرة ١٩٩٦). صدر له عن **منشورات الجمل**: **الشيء**، رواية، ١٩٩٨.

خليل النعيمي: دمشق ٦٧، رواية، الطبعة الأولى - كولونيا – آلمانيا

الغلاف: خط لمنير الشعراني

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

القسم الأول

الفصل الأول

[١]

خطرت لي فكرة هذه الرواية قبل عشرين عاما عندما كنت اعبر «بَرَدى» من جانب فندق «سمير أميس» الرائع، الى جانب «مقهى الاصدقاء» الصغير، القابع على الضفة الاخرى من النهر، لألتقي بهم.

لم يكن قد وصل احد غيره، بعد. كان يجلس وحيداً فوق كرسي من القش المَرْجوج. امامه طاولة من الصفيح المقوّى. عليها، وُضِعت كأس من الشاي الأسود الثخين. كان يحسو الشاي بأبّهة وهو يخاطب ماء النهر.

كان ينتظر (كالعادة) وصولي قبل وصول الآخرين، ينتظره بفارغ الصبر. وكنتُ أجيء، ذلك المساء، على مهلي. لم يكن ثمة ما يدعو للعجَل والإسراع. كان الجو جميلاً. الشمس بدأت تغيب بتكاسل. والحر المفرط أخذ يتراجع فاسحاً فضاءه الثقيل للنسيم. لنسيم جبال دمشق الغربية المنعش.

بعد ان اجتزتُ النهر توقفت، فجأة. توقفت وكأنني لم أكن ارى احداً. لماذا توقفت، ذلك المساء، وانا ارتجف بَدَدا؟! لماذا أجَلْتُ النظر حولي وكأنني لص يريد أن ينجو بنفسه، ولا يريد؟

بلى! كنت اريد أن استعيد الرؤية ولكن من منظور آخر. ولم أسأل نفسي أي منظور اعني. وكيف لي أن أسألها وهي لا تني تُسائل الآخرين؟

كنت اريد أن أتجنّب، وبشكل واعٍ، طرح الأسئلة البليدة. كنت لا زلتُ أعتقد أن النظر المستمر فيما يحيط بي سيكفي لإلتقاط «روح المكان»، وفهمه. لا؟ لمْ أكن أميّز، بعد، بين «النظر والإدراك». ووجدتني أضحك. اضحك وانا لا أفكر في شيء. وانا افكر في اشياء كثيرة مرت بي.

ولكن، لماذا توقفتُ، ذلك المساء، على ضفة «بَـرَدى»، وانا لا ارى احدا؟

للوصول الى «مقهى الاصدقاء» كان عليّ أن امشي دمشق، كلها، على قدمي.

أن امشيها من بقاع «المَـزَّة» المكشوفة للريح والغبار، حتى أركان «المَرْجَة» المطليّة بالقير والحديد.

كان عليّ أن امشي كثيرا. وان امشي هو أن أكلِّم نفسي وحيداً. أن أتابع النظر المتغيّر الى الأشياء. الى الأشياء التي كانت تتزاحم في فضاء «دمشق» الخائف والمَلْهوف.

كنا قد ترافقنا، صدفة، خلال المظاهرة التي مشت شوارع «الشام»، كلها. كنا نهتف معا. نتلامس، ونتهامس. احيانا نحكي. واحيانا نبكي؟ ماذا كان يحدث في فضاء المدينة المزدحم والموبوء، آنذاك؟

وكأنه لم يكن يبحث إلاّ عني، ولم اكن أبحث إلاّ عنه، غدونا، رأسا، اصدقاء.

اصدقاء من جنس لم أكن أدركه، بعد؟ ولكن، ماذا تعني الصداقة في مدينة ملتهبة سوى الحب؟

كنت اريد أن أقنعه ببراءتي. وكان يريد أن يقنعني بجدواه. واختلطت الأمور اختلاطا كبيرا بيننا. بيني وبينه. وبيننا وبينهم. وبينهم وبين بقية الناس.

ومُذْ ذاك التزمْتُ الحذر والصمت. حذر ملأني بالشغف لإدراك كل شيء. وصمت ملأني بالطاقة لإستيعابه.

كنت لا اتابع حركة غير حركة الشمس. ولا انتظر احداً سوى الليل. كانت الطبيعة تتحوّل عندي الى كائنات. وكنت أنتقي منها ما اريد. وكان هو على رأس ما انتقيتُ.

لماذا توقفت، إذن، على ضفة النهر، وانا مملوء بالقهر؟ لماذا لم أكن أرى احدا، وكان في متناول النظر والإحساس؟

ذلك المساء، وانا أتوقف على حافة الماء الضاحِل، كنت اريد أن ارى كل شيء. أن ارى «دمشق» كلها. ولكن مَنْ يجرؤ على الإدعاء بأنه يستطيع أن يرى مدينة بكاملها بمجرد النظر اليها؟

لا؟ لم اكن ارى، في الحقيقة، شيئاً. وجهه، وحده، كان يتراءى لي عبْر فتائل الدخان المتصاعد من سيجارته المعطوبة، وهو يتابع احتراقها البطيء بصمت.

كنت احسبه عديداً. وكان ذلك وهماً، ايضاً. كان، في الواقـع، وحيداً بلا مصير.

حلقات الدخان الأزرق الكثيف هي التي بَـهّمَتْ صفاء الرؤية وابتكارها. ما ذا افعل الآن، وقد بدأ الغروب الدمشقي يستولي، بلا رحمة، عَلَيّ؟

بدأتُ أحوص في مكاني. كان صداع رأسي لا يحتمل. الصداع المفرِّغ الذي أعرفه جيدا. صداع الجوع الذي يُبَيِّضُ الرأس والأنحاء! كنت أحاول، في صخب المساء المتزايد، ذاك، أن أرى «المسألة الأساسية»، تلك التي صارت الآن في حوزة الآخرين.

ماذا يبقى من الحياة، في مثل هذه الحال؟ يبقى الكثير؟ يبقى القليل؟ لا يبقى شيء؟ يبقى كل شيء؟ لا، كان كل شيء يبدو محتملا، دون ان يكون أي شيء مؤكد الحدوث. حتى التكلّم مع الذات بدا، ذلك المساء، مَرَضياً. ومع ذلك، كنت أنصُتُ بعمق اليها، وكانت خرساء. ماذا بقي لي، اذن، غير أن أمشي متعمِّداً، وأن أنظر الاضطراب؟

ذلك المساء، لماذا توقفتُ على ضفة «بَرَدى»؟ ومَنْ يتوقفْ (كما صرت اعرف الآن) يَرَ. ولم أكن أرى شيئاً. حمّى الجوع المقيتة كانت تأكل عقلي. كنت امشي منذ الصباح الباكر، راكضاً من ركن الى ركن: المَزّة. الجامعة. الحجاز. الميدان. الصالحية. المَرْجَة. القَصّاع. عَرْنوس. الشيخ محي الدين. الصالحية، من جديد. ومن ثم المرجة، ومن بعد أخواتها. وفي كل مرة كنت أتساءل: ما معنى الرجوع المستمر إلى الامكنة، ذاتها، إنْ لَمْ نضفْ شيئاً اليها؟ او إن لمْ تضف هي الينا؟ وكنت أجد لنفسي، دائما، بعض العُذَيْرات المتعلقة بالبحث عن حقيقة ما». حقيقة كنت افتقدها بعمق؟ وكان ذلك يضحك «ابن الورّاق» كثيرا وهو يردد: «ما معنى البحث عن حقيقة لم توجد، ولن توجد، ابدا»؟ وكنت ارتجف واناأحسه يقذف الكلام في وجهي الخامل، يقذفه من شفتيه اللزجتين قذفاً..

وامام سكوني المتواطيء، كان يضيف بزهو: «الحقيقة الوحيدة الجديرة

بالبحث عنها هي «حقيقة الوضع»، مع أنها، هي نفسها، لا تكف عن التبدل والتغيّر»!

ولما كنت أظل صامتاً، بادي القبول، كان يتابع حديثه متمهِّلاً، وكأنه يتأهب لسفر طويل: « لنكف عن التفكير في الأوهام، ولنبحث عن الواقعة ». وكان يضيف، وهو يقرب فمه المبلول من اذني: «الواقعات كُثُرٌ، وَحيَّة، يا عزيزي، اما الحقيقة (إن وُجِدت) فواحدة، وبليدة»؟

ذلك اليوم (بعد ان قال ما قال) َخلَّفَني، في سطوع الشمس الدمشقية، واقفاً، ومضـى. كنت ابدو مشتت الذهن، ظاهر الاضطراب. أفكر في «حقيقة» ما كان يؤكد وينفي، دون ان أتوصل الى حيلة. كنت اريد ان اصل (برغم ذلك كله) الى اقرب نقطة ممكنة مما زلتُ أُصرُّ على تسميته «بالحقيقة»، ولكن دون جدوى. كان كل شيء مختلطاً ورهيباً. كان للشيء الواحد معانٍ كثيرة ومسارات.

غارقاً في اضطرابي، كنت ألمح سحنةَ علِي وهو يشرب الشاي. يشربه بتأفف واستياء. كان ينتظرني؟ لا؟ لم نكن في الحقيقة على موعد. الإحساس اللاذع بالوحدة وبالجوع هو الذي قاد خطاي الى المقهى.

لِمَ تراني ظللتُ واقفاً كالتيس، مفعماً بـأمور كثيرة عذبتني، وتعذبني، منذ سنين، دون أن استطيع الإلمام بها كما يجب؟! لماذا لا أتقدّم إلى حيث أُريد؟

الآن، بعد ان مر ما مر، كل ما اريده هو ان ابتعد عن الكذب والابتذال. واقفاً على ضفة النهر الذي حُرِم من النور، كنت اعرف، يومذاك، أن اساس المشكلة، كلها، هو كأس الشاي الأسود الثخين، ذلك السائل اللزج الذي ينحدر بنعومة الى الأعماق، والذي لم اكن املك من ثمنه شيئا.

كان الإحساس بالشبع الكاذب الذي يتلو شربه قد تحوّل، بفعل العادة، الى طقس. مَنْ يستطيع أن يقاوم لَذْعَة الشاي المخدر وحلاوته؟ ان يقاوم ذلك التلَمّظ السائل، وتَحَسّس الكأس الناعمة قبل تقريبها من الشفاه؟

كنت، في الحقيقة، أتردد منذ اول لحظة من وقوفي بين التقدم والتراجع. وكنت أقف منذ زمن طويل. أقف يابساً على ضفة النهر الذي دُفِن تحت الارض. كان

جوعي الفاتك ينذر بالانهيار. بانهيار أكيد بعد ان زال أثر النقاش المحتدم حولي منذ شهور. نقاش قاطع للشهية. لشهية من لا يملك ما يفتحها به من بعد. نقاش حول أي شيء؟ نقاش حول كل شيء؟ كيف لا استحضر ذلك الاحتدام العفوي الذي كان يسيطر على الفضاء، آنذاك؟ احتدام يسد الرمق، ويلهي النفس عن الاختلاجات. وكنت، ببساطة، سعيداً بذلك.

كنت اريد، قبل ان اترك مكاني، أن استحضر كل شيء.

كل شيء كما وقع فعلاً. وأخذتني نوبة من الضحك والاهتزاز: ومن طلب مني أن افعل ذلك؟ كدت اسأل نفسي، ببلاهة! ولكن ما جدوى التساؤل في أمور تقررها العاطفة ويحميها الإنفعال من الزوال، كما كان يقول؟ ووجدتني أشاغب نفسي، حانقاً: ومن قال لك انه وقع حقاً؟ كان يكفي ان انظر حولي لأفهم كل شيء. كان مرور البشر المتكاثر حولي هو، وحده، الذي يقع فعلاً عليّ. وكنت بلا حماية. كنت معرضا لِلّمْس والإختلاط، وكان مساء دمشق بديعاً.

ذلك المساء، احسست، بشكل متواطيء، انني الوحيد الذي يملك خمس حواس يواجه بها غواية البشر. البشر الذي لا يكف عن المرور بي. خمس حواس لكائن واحد؟ لَكَمْ بدا ذلك مثيرا للتبجح والإعتزاز؟

ولكي أؤكد لنفسي مافكرت به قبل قليل، قلت لها وانا اعيد النظر الى عَلِيّ: هأنذا أراه. وأحسه. وأتذوّق شايه المرمي قدامه. وأتنشق رائحته. واسمع هُموساته و... وكل ذلك من بعيد؟

نسيم الغروب المنعش هو الذي كان يحمل تلك الأحاسيس إليّ؟ لا؟ انا الذي كنت أروح، مع الظلمة البادئة، إليه. كنت اريد ان اقترب منه كثيرا. ان اقترب الى حد التماس. كنت. وفجأة، سبقني لساني إلى القول: سينتظرني حتى مطلع الفجر، لماذا لا أتابع سيري وحيداً؟

كانت رغبة مفاجئة في المشي تملأ نفسي. تدفعني الى اللحاق بهم. مشي البشر الطازج حرّر الذات من التصاقاتها الخبيثة التي تحولت، بفعل العادة، الى تشبّث بليد بالمكان.

وكأنني قررت فعلا أن أترك العنان لرغباتي، وأولها رغبات قدمَـيّ، تنَشّقْتُ النسيم العذب بهمّة وانا أتهيّأ للمسير.

في اللحظة التي سبقَتْ قراري الخطير، هذا، اختفت الشمس نهائيا خلف هضاب دمشق الغربية القريبة من العين. وبفعل غروبها المتهاوي ارتدت ذوائب الشجر العالي حُمْرة مُصْفَرّة. كان حريق النور الغابر يملأ الفضاء. كنت اعرف جيدا مساءات دمشق الملتبسة، هذه، ونواياها. اعرف غواية الضوء المتواري في الغروب.

كانت أضواء المصابيح الواطئة المزروعة على الجانبين تجهد نفسها، عبثاً، لتعوّض فراغ الكون من النور. كانت الوجوه، وبخاصة وجوه النسوة الغُنُّج، تمتلىء في المساء بِنَـهم خفي (لم أكن اعرف له سببا). وكانت الصُفْرة البهيّة التي تكسو وجوهـهن، بشكل مباغت، تملأ نفسي بالرغبة. الرغبة في أكلهنّ نيّئات، وكأنهن فاكهة نضجت، للتوّ، امام عينيّ.

[٢]

بتصميم، وجدتني ألج شارع «الصالحية» الجميل. أختلط بالمشّائين مساء بعد مساء. لا أبحث عن أحد. ولا يبحث أحد عني. مشي يجرّ مشياً حتى الإعياء. لكن الرأس الفارغة لا بد لها أن تمتليء. وبأي شيء يمكن لها أن تمتليء في «الصالحية» إن لم يكن بجَرير الأقدام وبرشاقتها؟ فالأقدام تحمل جذوعا. وللجذوع دوائر وارتسامات. وانا كلي جوع. اين سآكل، هذا المساء، ومَنْ سيسقيني؟

كنت احب أن أتحرر من بؤس الوجود، هذا. أن أتحرر، نهائيا، من حاجاتي الدنيا المرتبطة بالعيش. أن أتفرغ للتفكير بأمور اخرى (والأمور كُثُر). أمورلا علاقة لها بالماء والخبز ومشتقاتهما، ولكن كيف؟ كيف والُغروب الدمشقي على الابواب؟

كان الغروب، دائماً، يثير شغفي واضطرابي. كنت لا أخاف إلاّ الغروب

ورِمّاته. كان الليل بالنسبة لي آمناً، أما الغروب، فلا؟ لستُ ادري كيف ارتبط الغروب عندي بالصيد.

صحيح انني صدتُ مع أبي، ذات مساء، في «بادية الشام»، ثعلباً شويناه على الجمر والتهمناه. لكن تلك الواقعة القديمة لا تكفي لتفسير ذلك الإلتباس الغامض المثير.

لا تكفي؟ كاد تدجيلي على ذاتي أن يضحكني من جديد. ومن جديد، وجدتني أتوقف في منتصف الطريق وانا اسأل نفسي، اسألها بتهكم واضح: حادثة صيد؟؟ قُلْ حادثة قتل بالأحرى؟ ألا تذكر كيف دفع بك في الغار الضيّق دفعا ملأ فمك وعينيك بالتراب؟ أنسيت كيف كان يهزّكَ وهو يصيح بك: لا تخرج إن لمْ تُخرجْه معك؟ ألا تذكر كيف كنت تجر الثعلب المسكين وانت تبكي؟

كان الغارضيقاً. ضيقاً جدا. ومثل الثعبان المَلْحوق تطاولْتَ لكي تتسلل الى أبعد نقطة فيه. كان الثعلب الأصهب يثوي في الجانب المعتم منه. يثوي بائساً وجَزوعاً (إذْ كان مثلك طفلاً). كان يلاحق يديك الممدودتين كالخناجر الى ذيله، وقد تقوّس من شدة الخوف. أنسيت؟

وأردتُ أن أهديء من روعه وأنا أُدَلِّلُهُ برهة (هي برهة الخوف الذي كان يأكل أحشائي): تعال ابو الحُصَيْن، تعال! لكن «ابو الحصين» الذي لَبَدَ من خوفه حتى صار جزءاً من القاع، لم يفعل شيئا أكثر من تكشيرة مملوءة بالشر والهَرير.

صرتُ أبكي، متردداً. لكن هَزّة الذراع العنيفة الممسكة بقدَمَيَّ هي التي ألقت بي في جحيم التقدم الذي لا يعرف التراجع ولا الإستسلام: هاته وتعال؟

واحسستُني أنجَرّ، بعنف، على القاع. وجررتُ الثعلب المسكين مثلي. جررته من ذيله الذي كان يَتَمالص من يديّ، واليهما يعود، باستمرار. والى الآن، لست ادري كيف خرجتُ الى النور، ولا كيف اخرجته معي. كل ما أذكر هو انني إنْلَقَحْتُ، عُنْفَةً، الى الخلف، شامِطا جسدي الصغير من عتمة الغار، مُخلّفا على جِيلانه بعض أنحاء الحيوان الذي تشبث بمخالبه الحادة فيه.

كان بعض المارة يتوقف ليستمع الى حديثي مع نفسي دون أن أعير ذلك

اهتماماً. كنت مأخوذا بروعة المساء الدمشقي وجلاله. كنت أتكلم مع نفسي بمودة لم اعهدها من قبل. ووجدتني أتساءل بسذاجة (كدت أقول ببراءة): لِمَ نتساهل مع انفسنا اكثر من اللازم؟ وبسرعة (غير متوقعة) أعادتني ثنائيـــة «البراءة – السذاجة» الى تعليق «ابن الوراق» عندما سمع مني، ذات يوم، ما اسميته انا: «زلة لسان بريئة »! اذ قال موبخا: تعلّمْ اين تضع لسانك، لا قدمك فحسب؟

وكان كل مافعلته، آنذاك، هو النظر اللئيم الى بصلة رأسه التي بدأ العفن يدبُّ فيها، وانا افكر ممتعضا: بعد كل الشقاء الذي عشته، عليَّ أن أتعلّم ايضا؟

ماذا اصنع هذا المساء بحُبوطي؟ والى اين يمكنني ان اروح؟ كنت احب أن استمع الى أحد يحكي بدلاً مني. ولكن اين هو ذلك الأحد؟ وكيف لي ان التقي وإياه؟ امشي اذن. ألْحَقُ الأثر. أتابع حركات الأطراف المتسارعة. أوليست حركة الجسد لغة، هي الأخرى؟

لغات لا حصر لها كانت تحيط بي، ذلك المساء. تأخذني من اول الشارع الى آخره، ومن آخره تعيدني الى َمبْداه. الى حيث «بردى» يظل لاصقاً بالارض.

خواطر كثيرة كانت تمر في رأسي وانا امر في شارع الصالحية الجميل. ومن شقوق الضوء المرتسمة عبر تناظر الأبنية العالية المهيبة، كنتَ أرى (واحياناً أتوقف طويلاً لأرى) سيلان النور الأصفر الغارب في البعيد. كانت الأشجارالصغيرة تتسلّق العلو لتدرك النور، ولا تصل. و خطر لي ان مسألة الحجم مسألة أساسية في الحياة (مرة اخرى، كدت اضحك من سذاجتي؟) الا انني اكتفيت بالاكتئاب. اكتئاب حنين لا علاج له.

وكأن «ابن الوراق» كان خاتِلاً في رأسي، أنّبني هازئاً، كعادته: «الحياة تذوُّق. مامعنى الحنين الى ماضٍ ذقناه من قبل، اذن»؟ وقبل ان اقول شيئاً، تابع بهدوء: «هو ليس حنين المعرفة، كما أتصور، وانما حنين العادة»! وأكَّدَ: «العادة»، ضَعْ ذلك بين قوسين، قبل ان يضيف: «لأننا تعودنا عليه صرنا نحن اليه، أضف إلى ذلك خوفنا العميق مما لم نتعود عليه، بعد»؟

وامام صمتي العنيد الذي لم يكن يعرف الانفراج، أكمل متسائلاً، باستياء: «وهل تتسع الحياة الواحدة لخوفين، ياعزيزي»؟ صرتُ اهز له رأسي ايجاباً، وانا اريد ان اقول له العكس. كنت اردد في اعماقي (مستعيداً وجه الثعلب المذعور ووجهي): بلى! يمكن للحياة أن تتسع لآلاف الأخواف.

كنت مقتنعاً بعكس ما قال، ولم أقلْهُ. كنت اعرف انني اكذب باستمرار على نفسي (واحياناً كثيرة على الآخرين). وكنت أبرر ذلك بلاعناء، متسائلاً: هل يمكن تصوّر حياة بلا أكاذيب؟ كنت أصغر (أكبر) من أن اعترف لنفسي بأنني زَيِّف وضعيف. وكثيراً ما كنت أردد في سري: الضعف احياناً لطف.

ذلك المساء، بين أرجل المارة والعابرين، كنت ابحث، «بصدق»، عن جواب شافٍ، وكانت آلاف الأجوبة تتغالب في رأسي مثل ثعالب «الجزيرة» العابثة؟ ولم يدعني أتعذب طويلاً، إذ قال بهدوء، وكأنه قد حَضّر المقال منذ عشرات السنين، منذ ان كنت طفلاً بائساً لا أزال: «حالة ركود الكائن هي التي توحي له بالأجوبة الغبية والغيبية، معاً، وهي التي تجعل احلام اليقظة تتكاثر في الروح مثل بعوض فوق ماء آسنٍ».

ولما رأى انحساري الكئيب وتهلهلي، إزاء ما قال، أضاف برقة، وكأنه أراد ان يواسيني، هذه المرة، عن خُمودي: «لكن تطوّر الكائن الذي لا بدّ منه، حتى ولو كان فاشلاً، هو الذي سيدفع به إلى أن يرى النور، ذات يوم».

«أن يرى النور، ذات يوم»؟ صرت أُردد بآلية، وأنا أراها تتمايل، فجأة، قُدّامي.

[٣]

ماذا كان بامكاني ان افعل لأتحاشاها؟ وكيف آتي بها إليَّ، وقد طِرْتُ شوقاً إليها؟

ماذا كان بامكاني ان افعل، في بحبوحة المساء الدمشقي، ذاك، غير ان أهب للريح نفسي؟؟ غير أن ابتدع ذريعة اللُقْيا، وسجالها؟ غير أن أُقاربها، كما تقارب الافعى طيراً أزغَب؟

وفجأة، تتوقف عن المشي العَجول، وهي تسألني برهبة:

– ماذا تريد؟

– من فضلكِ «القَصّاع» من اين؟

وتظل واقفة كالفرس في مكانها. لا ترد عليّ. ولا تمشي عني. ولا تتحرك في هيئتها. ولا تنظر إلي. كتلة من العصب والانهيار، كانت. لا؟ لم يحرك المساء الجميل شغفاً او نبوءة، فيها.

وأعيد عليها سؤالي البائخ، نفسه، وأنا أكاد أقارب الإعتذار،الاعتذار عمّا سببته لها من خوف، ذلك المساء. وانا الوحيد الذي يعرف رهبة الخوف الزاحف، مساء، الى الذات:

– «القصاع» من فضلكِ. اقصد الطريق اليه. او الطريق عنه. او اي شيء آخر يقربني، او... كنت، قصداً، أريد أن أطيل الكلام، لعلها تستعيد أنفاسها التي أخذت تتقطع، وهي تدور في الفراغ.

كانت تنظرني بعينين حاقدتين دون ان تقول شيئا. وجهها أصفر. قوامها نحيل يكاد أن يتكسّر. عيناها غائرتان. عظام وجنتيها بارزة بلا حساب. استحيتُ منها وانا أحملق فيها، فأدرت وجهي عنها، وانا افكر: «أتكون قد عرفت ما اريد»؟ ودون ان تستدير، أشارت الى الجهة العكس:

– القصاع، هناك؟

القصاع هناك؟ انا اعرف القصاع. اعرف طرقه السرية والعلنية. اعرف نواحيه ونواهيه. لِمَ تراها أشارت الى ما لمْ أرد؟ الى ماكنت أريد فعلا؟ أيكون الانسان مكشوفاً الى هذا الحد؟ كنت افكر في هذا وانا انظر الى الارض التي كانت تنظر، هي الآخرى، اليها، قبل ان امشي على الطريق التي دَلّتْني عليها.

كنت قد قررت (قبل قليل) أن اعيش حالة من البراءة.

البراءة التي كنت احسد الآخرين عليها، حتى ولو كانت كاذبة. كنت قد بدأت أقنع نفسي «بنظريتي» الجديدة:

«البراءة امر أساسي في الحياة؟ بالبراءة لا نجهد انفسنا، ولا نقلق العالم،

لانها ليست حالة مواجهة له، وإنما هي حال من الانسجام اللذيذ معه، مع هذا «العالم» الذي لا نريده ان يكتشف مساوئنا». لكن «لابن الوراق» رأياً آخر. ورأيه في هذا المجال لا يهون.

كدت ارتدّ على أعقابي، حانقاً، لأقول لها ما فكرت فيه، منذ قليل، وقد تذكرت، فجأة، ما قاله« ابن الوراق» ذات يوم. ما قاله عن تلك البراءة التي تبدو «بريئة» زيفاً، وهي، في الحقيقة، اخطر من ذلك بكثير: «إنها تواطؤ وامتثال! إنها خدعة الكائن لذاته، وقد تردّى إلى الحضيض، الى حضيض الجهل والسكون »؟ على حد زعمه.

لماذا لا اعلن لها عما بدأت أحس به، إذن؟ ولكن عن اي شيء كان يمكن لي ان احكي لها، آنذاك؟عن أي شي، والعُصيْر الدمشقي قد َولّي منذقليل؟ ولم يبقَ في الفضاء المحيط بي لا إنْس، ولا خليل؟

كنت أتصوّر انني قادرعلى قلب الأوضا ع بسهولة، وبخاصة أوضاعي، حالما أريد. وعندما اردت ان اغيّر من مسلكي السخيف ازاءها لم أجد ما أقوله لها سوى الصمت. سوى النظر البليد اليها وهي تولّي الأدبار. توليها متدحرجة، بلا مزية، بين اجساد الجموع الدمشقية التي ملأت أفواه الطرقات، ذلك المساء.

ملأني َحسَدٌ مباغت من مشيتها العَجول، ومن سرعة تصميمها على النأي. كنت احب ان اختلط، مثلها، بكُتَل المساءات الضالة في دمشق. اختلط بأُناسها بلا ُرؤى مسبقة تدمرهم في رأسي، أولئك الذين لم يكونوا يفعلون شيئاً سوى المشي. المشي بصمت. المشي بكلام. المشي بذهول. المشي بفضول. لكأن المشي البسيط يتحول، منذ ان يمارسوه،الي فضيلة لا تقدر. ولكن لِمَ تراني بقيت ساكنا في مكاني، وكأن الرغبة، وحدها، تكفي لتحقيق مآربي التي لم احقق اياً منها الى الآن؟

بفعلي هذا (الذي لم افعله) اثبَــتُّ أن الإنسان العادي (من امثالي) لا يتصوّر إلاّ أقرب الأشياء اليه، ولا يفكر إلا بما يعرفه من قبل. وهو ما يسبب «الوقوف طويلا في المكان، ويمنع التطوّر الحثيث للكائن» كما كان «ابن الورّاق» يقول.

ووجدتني أتشاجر مع الريح، وانا أتساءل: «لماذا لَمْ تُرِد أن تدلّني على القصاع»؟ ومن الطريق التي سلكْتُها خطأ بإرادتي، عدت أنقلب الى الجهة الأخرى بلا مبررات. كنت ألمحها في جموع «الشام» المتوارية كالبروق. ألمحها من بعيد دون أن ألمح نفسي معها. وكان ذلك يؤلمني الى حد كبير. لم أكن أفهم، بعد، ذلك التفتُّت الذي حَلّ في كيانها، مساء، امامي. وكان ذلك يُفَتِّتُ كبدي، ويضنيه؟

كان نوع من الإستياء العميق يتلبّسني. يجعلني أتشنّج وانا اسير وحيدا في المساء. كم مرة مشيت هذا الشارع الذي امشيه الآن؟كم مرة التقيت فيه بأناس لم اكن اعرفهم وعرفتهم على احسن الوجوه،من بعد؟والآن، لِمَ تراني امشي وحيداً؟ امشي بلا رغبة في التعرف على احد من جديد.

ووجدتني استعيد، بالرغم مني، بعض عباراته وهو يؤكد لي، وينفي، على ضفة «بردى»: «عندما ترى الآخر، يراك الآخر قبل أن تراه. يراك بعيونه السرية التي لا تحصى! وعندما لا ترى أحداً، فإن الناس، كلها، لا ترغب فيك»؟

ولأنني لم افهم، يومها، مما قال شيئاً، اكتفيت بابتسامة مشحونة باللَبْس والاضطراب. ابتسامة تُعلن عن غباءالكائن، لا عن غِناه. وأي غِنى ممكن في وضع يضع الكائن في حظيرة الطيور؟

[٤]

قبل ان تمشي، نظرت اليّ. نظرت إليّ بنوع من الشفقة واللامبالاة.

قبل ان.. كانت تقف بذهول في نسيم الغروب الدمشقي وقد غطّتْ الانوار الخافية حناياها. كنت استرق النظر اليها دون أن أجرؤ على مواجهة صوتها اليابس المخيف: صوت حطّاب من أقاصي «الجزيرة» في شتاء بارد ومميت. صوت لا يدلّ على صاحبه، وانما يحميه. لكأن الكائنات المحيطة بها لا تهاجم إلا بالصوت.

كدت أضحك؟ ولكن، اضحك ممّن؟ وعلى مَنْ؟ وها هي ذي قد أدارت ظهرها

الناحل لي، قبل ان اقول لها شكرا؟ ورأيتها، وهي تبتعد، تشير، من جديد، بيدها السمراء الرقيقة الى الجهة العكس، وبنبرة صوتها الطالع من القبر تقول: القَصَّاع هناك. هناك. لكأنها كانت تريد ان توقعني في الخطأ مرتين؟

«القصاع هناك »؟ أعدت الجملة مرات، ومرات. أعدتها بأكثر من صوت ومن لحن، دون أن أفقه شيئا. ومع ذلك،كان ثمة (ولا بد) دلالة ما في تلك الإشارة المتواطئة. ولكن كيف لي أن أحيط بها؟ وعلى أي شكل أتصوّرها وأتحرّاها؟

لا؟ لم يكن لها نظام منطقي، تلك الإشارة العابرة. كما أنها لم تكن حركة أساسية، ايضاً. ومُرسلتها، في النهاية، ليست مسئولة عن تحديد الإتجاهات. ولا هي مهتمة بضمان نتائج إشاراتها. لماذا أشغل نفسي، إذن، بما (وبمن) لايريد ان يدلها على الطريق؟ على الطريق التي لا تريد ان تسلكها، اصلاً؟

وكأن «ابن الوراق» لم يكن ينتظر مني إلاّ هذا، (الاّ هذاالترددالمُحبط)، قال (عندما علم بالأمر)، وبه نوع من الإعتزاز الغامر بالذات (بذات العارف كل شيء): «افضل طريقة لفهم «إشارة ما» هي اعتبارها منهجاً في التعبير، لا مجرد إشارة عابرة لا دلالة لها ولا منظور».

وبعد ان تنفس بهدوء، اضاف بنفاذ صبر: «وذلك يقتضي مقاربتها بوعي، والنظر اليها بحذر دون الوقوع في اخطار تفسيرها المتسرع. وهو ما يعني ضرورة الإحاطة بخفاياها قبل الإندماج بما تريدنا ان نتدلَّهَ به، وأن نتماهى وإياه».

ولما كانت امسيات دمشق، آنذاك، تسمح بالكثير من التعاليل والتوقعات، تابع حديثه الذي كان يرضيني الى حد كبير، قائلاً: «الإشارة، باعتبارها حامل رغبات الكائن الذي يرسلها الينا، ليست تعبيراً مخِلاً عن الذات، ولاهي موجهة لتضليل الآخر، وانما هي مشروع حِسّيّ متكامل، مهما كانت موجزة وسريعة الزوال. وأنجع طريقة لإدراكها، في هذه الحال، هي الرؤية النقدية لها»؟

كان يتكلم. وكان النسيم الدمشقي اللطيف يحمل كلماته القاطعة الى البعيد. الى حيث قمم الجبال الغربية المتسلطة على الفضاء تعلن للملأ رسوخها الذي لا

يُمحى. ولما بقيتُ ساكتاً ومبهوتا امامه (وكأنني اقف عارياً) ابتسم باعتداد، قبل ان يتابع بحزم: « أن تكون متعدداً امام حركة وحيدة ومعزولة، ومسلحاً بالوعي إزاءها، ذلك هو بالدقة معنى الفاهِمَة التاريخي» التي نطلبها. وهو، وحده، الذي يمكن أن يقربنا من «حقيقة الوضع» التي ننشدها منذ الأزل».

ووجدتني أركض. اركض، وكأنني مضطر الى الركض فعلاً. أريد أن ألحَقَ بها قبل أن تغادر النور. نور المساء الذي أخذ يَصْفَرُّ، والذي بفعل اصفراره المقيت صارت الأشياء أبعد مما هي عليه، وأكثر إرهاباً للنفس.

اركض. وتركض، هي الاخرى. تركض مسرعة نحو الحديقة التي بدأ الظلام يلفُّها بالتدريج: حديقة «السبْكي» الشهيرة التي أصبحت، فيما بعد، حديقة «ابن بركة» حيث عُلِّقَتْ عليها لوحة بهذا الإسم. علقها دكاترة سوريا الثوريون الثلاثة. الآب. والابن. والروح القدس. آمين.

ولكن، لماذا ركضتُ لاحقاً بها، ذلك المساء؟؟ لماذا؟ لأنني أردت، ببساطة، أن أصفّي حسابي معها، نهائيا. ومتى كان لي معها حساب؟ متى؟ بلى؟ اللقاءالصادم. والسؤال المغرض. والجواب المتواطيء عليه. ألا يكفي، ذلك كله، لخلق «قضية» تستحق الحساب؟

لا؟ ذلك، كله، لم يكن يعني لي شيئاً. كان خوفي المَرَضي من «خطأ محتمل» هو الذي يدفعني، في الحقيقة، الى الركض. يومها، لم أكن أدرك، بعد، لِمَ كان الخطأ يشكل لي نوعاً من الإرهاب. من الارهاب الذي لا يُعقَل. نوعاً من الغرق في بحر بلا شطوط؟

وهو، بالتأكيد، مادفع «ابن الوراق» الى أن يتشدّق امامي، ذات يوم، محللاً الخطأ الى عوامله الأولية، قائلاً باحتقار: «الخطأ السخيف الذي لازلتَ تخشاه ثلاثيّ المصدر: خطأ الكيان، وخطأ المكان، وخطأ الزمان. وهو ما يعني انه سيصيبكَ حتى ولو كنت في حِمى منه»!

ومن تحت جفنيه الأملسين نظر الى قارعتي وهو يضيف: «ما يهمنا، نحن، ليس الخطأ كمفهوم أخلاقي بائس (مثل هذا الخطأ)، بل الخطأ كفعل».

وبعد ان استقر في الضوء الدمشقي الآسر، تابع بهدوء، وكأنه يقرأ كلامه في لوح: «أو ما نسميه نحن: «الخطأ الجليل». وهو، أكمل موضحاً، الخطأ الذي يمتلك حقيقته الخاصة به»؟

وبعد ان ضاعت نظراته في الحجم الهائل للناس الذين لم يُكفّوا، ذلك اليوم، عن الهرولة والمرور، اضاف بوثوق: «فالحقيقة ليست أحادية الشكل، ولا هي وحيدة المصدر. وهي بهذا المعنى ليست ملكاً لأحد، وبخاصة لأولئك الذين يزعمونها»؟

وكأنه يريد أن يدُقَّ رأسي بكلماته، لا أن يُسمعني إياها، أكمل بعنف: «الخطأ الجليل، اذن، ليس هو خطأ الإجابة، وإنما خطأ الإدراك».

«القَصّاع، هناك» اذن خدعة؟ خدعة لها حجم الخِدَع التاريخية الاخرى! كيف يمكننا أن نقبل خدعة مثل هذه، إنْ لَمْ نكن بُلَداء؟ صرتُ أُتمتِمُ، وانا اركض خلفها كالملسوع. اركض مُؤكِّداً بتصميم: بلى؟ يجب أن انهي تلك العلاقة التي بدأت تتسلط، فعلاً، عليَّ؟ علاقة نشأت عن وضع طارىء، وصار لها حضور آسر في نفسي. اللعنة.

[٥]

بين جموع «الشام» المتكاثرة، ذلك المساء، لم استطع ان أميّز من لغطها سوى بَحّة النَفَس الذي بدأ يتردّى. الى اين كانت تسحبني تلك البحة المجبولة بالعَرق والاختلاجات؟

كنت اراها تستدير خلسة. تنظر برهبة وراءها. لكأنها مطاردة حقا. تخاف مني؟ ام تبحث عني؟ كدتُ اسمعها تصيح. تصيح خوفاً؟ لكنها لم تكن تصيح. كانت تشهق الهواء المتناثرحولها بغلظة لم اعهدها فيها من قبل. لكأن بها آفة ترهق النَفَس والهواء. لا! لم أعد أريدها ان تتحمل فوق ما تحملت، ولاان تنتظر اكثر. ما جدوى ان يعذب الكائن كائنا آخر لا يعرف حتى اسمه، ولمْ يَرَ، من قبل، لون عينيه؟

من خلَل الركض المتسارع، أعدتُ النظر فيها: اطرافها قوية مثل اطراف فرس عَطوف. أوراكها محشوّة بالعضل والغيظ. لها جذع سامق يعلو حوضاً بلا تعاريج. كانت تركض َخبباً. لكنها، كانت تركض نحو الظلمة، بدلاً من ان تركض نحو النور. بلبلني الامر قليلاً؟ لم اكن افهم لِمَ كانت تفعل ذلك، و كل ماكنتُ اريده هو ان اقول لها انني قررت انهاء العلاقة التي نشأت بيننا، للتَوّ. ولكن كيف نشرح الامر لمن لا يعنيه؟

فجأة، بدأت تستبدُّ بي رغبة عنيفة للعودة الى شاطيء «بردى». كانت ساعة اللقاء بعلي واصحابه، كما كل مساء، قد حانت. لكنني لم اكن أحب أن أتركها في حال من التساؤل الذي سبَّبه لقاؤنا صدفة. تساؤل لن استطيع أن أُجيب عليه، صدفة، مرة أُخرى.

لا، لن استسلم للخيبة منذ الوهلة الاولى. إن أبشع الخيبات هي خيبة الصدفة التي لا تتكرر، فهي الوحيدة التي لا أمل بالنجاح بعدها، ابدا، وبخاصة عندما يتعلق الامر بامرأة عابرة.

كان لا بد لي من ان ألحَقَ بها، اذن؟ ومَنْ انا حتى أتراجع بمثل هذه السهولة؟ حتى اقف بمجرد ان تركض امرأة مضطربة قدّامي؟كيف اشرح لها الامر ان لمْ اقابلها؟ إنْ لمْ أرَ ارتجاف الشفتين، وتقلصات الأثلام الجذلى؟

واصير اركض، اكثر. اركض لاحقاً بها كالصقر الذي كادت فريسته ان تفلت منه. لاحقاً بها حتى الظلام؟ ظلام اشجار دمشق العتيقة، ذات الجذوع الراسخة في الارض، والاوراق المتمايلة في الريح.

ظلام؟ لا؟ ظلمة الغروب البهيجة هي التي غمرتنا، ذلك المساء. كنت، ارى من بعيد، وَهْج عينيها مثل برق آسر. برق يلمع عند خط الافق القصيّ قبل ان يُدفَن في التراب.

احتمالات اخرى كثيرة كانت ممكنة الحدوث. أيها احكي؟ كيف لي ان اروي لهم ما حدث وما لم يحدث؟ كنت وانا استعيد ماوقع، ذلك المساء، ارتعد لمجرد التفكير بما اصابنا.

كانت الاغصان الحنونة تتدلّى فوقنا مثل اعراش اسطورية تحمي وليداً َفقَدَ مَنْ يرعاه. للاشجار حالات غريبة احيانا؟ صرت اقول لنفسي. وأغصانها ارأف من اعين الناس (كنت اؤكد)، الناس الذين لا يفعلون سوى النظر بمقت واستنكار إليكَ؟ لكأنك عندما تصيب احدا في قلبه، أصبت الكائنات كلها. حَسَد وابتذال.

ماذا افعل، إذن؟ ماذا فعلت، بالاحرى؟؟ وقفتُ في الفيء. في النور المنصَلِق من عَلٍ على الحيطان. وقفت أُدَوِّرُ. أدوّر على مَنْ؟ بامكاني ان اروي الحادثة كلها من هذا المنظور البائخ. لكن الامر لم يحدث بهذا الشكل، ولا بشكل آخر؟

كنت اقف لاهثاً. كانت عيوني الصليقة تستكشف المكان، بلا رأفة، المكان المظلم، المختفي خلف اشجار الزقاق الضيق والعميق. جَوّ المكان وريحه أعاداني الى اصقاع مجهولة كنت قد نسيتها، منذ أمد طويل. وما معنى ان ينسى الكائن إنْ لَمْ يَتوَهَّمْ انه َنسِيَ ما َلمْ َينْسَهُ، ابدا؟

كنت ابحث عن الباب. الباب الذي تصورته أسوَد، هائلاً، كبير الضفتين. باب يوحي (كما تخيلته) بالعزة والإلفة، معاً. كنت أتوقع أن أراه وهو في طريقه الى الانغلاق في وجهي، مخفياً خلف اصدافه السود الثمينة وجه المرأة التي َولَّت الادبار.

أُلْحَقُها، اذن (كنت أشجِّعُ نفسي)! أُلحقُها قبل ان تغيب خلف سماكة الخشب والورد. امسكُ يدها التي امتلأت عَرَقاً ونَزيزاً. يدها التي تحاول ان تسد الباب بوجهي، ولا تقدر. اسحبها منها. اسحب الجسد الصغير الخائف. اسحبها كما يسحب الصياد الجائع ثعلباً خَتَل في غار من الأنثار. اسحبها وانا أُتمتِم: اريد. اريد، فقط، ان اقول لكِ انني قررت انهاء هذه العلاقة. قررت ألاّ نلتقي بعد اليوم، ابداً. هذا هو كل ما اريد. كل ما اريدكِ ان تعرفيه.

وارى في عتمة الليلة البَديئة، تلك، نور العينين المشع يحمل اليَّ علامات الدهشة والاضطراب. نور يكاد يسألني عن نوري الذي خَبا. لكأنه كان يحثني على ألاّ استسلم لمقولات نفسي التي ارهقتِ جدا، ذلك المساء. وكيف لا ترهق الشام ابناءها؟

وأكاد استدير مبتعداً عنها، اعطي لها ظهري الذي بَلَّله عرق غزير. عرق حموضته توخز النفس وتملؤها بالانتشاء. لكن مَنْ ركض تلك المسافة، كلها، يمكنه أن يتريَّث قليلا قبل ان يبتعد من جديد، صرت أُهدِّيء نفسي. وفجأة اسمع الهمس: لا. لا تفعل هذا. ارجوك، لا تفعله. لا.

تتكلم؟؟ لها منطق حلو ولسان لبيب؟ لها شفتان رائعتان من عنب ودخان. العنب الدمشقي ذو الحمرة الممتزجة بالصُفرة الرَبيدة. عنب الحَوْش الصباحي عندما تهطل الزنابيب من الاقطار: قطر «داريّا» و«الغوطة». قطر «اللجاة» و«حاصْبَيّا». قطر «كفرْسوسَة» المنحوسة. قطر «السُويْدَا» و«الريان»! و.. وأصير أُتمتم: يا حبَّذا عنب الريّان من عنب؟ أُتمتم وانا أعيد النظر فيها، من جديد: بها اهتزازات شتى. ولها هيكل مريب؟ أهو صوتها الذي كان يلامسني قبل قليل؟ أم هي ضجة ارتطام جسدها الناحل بالباب؟؟

امام الباب أقف. أقف شافطاً تلك الرائحة التي بدأت تهبُّ. رائحة العرق المختلط بالافرازات. افرازات الجسد الذي بلغ غاية الاستثارة. اقف باحثاً في كل شق. لكن الباب الأسود الصَليف كان مغلقا، تماما، ولم يكن في فَيْئه علامة. باب من خشب الزان القاسي، موصود بمنعة لا تدع للنفس الأمارة بالسوء منفذاً. على صفحاته العظمى دُقَّت المسامير الخشنة وفق رُسوم الأبَّهة الدمشقية العريقة. مسامير كُبرى تعلن للزائر عن عدم الرغبة فيه. مسامير تُخيفه قبل ان تستضيفه؟

من أي ثغر يمكن فتحه؟ والى اين يؤدي عندما يُفتَح؟

[٦]

أوضاع كثيرة تتحدى الكائن، وهي أقوى منه بكثير. واذا ما اراد أن يلتزم بحدود طاقته الواهية فما عليه إلا أن يستكين نهائيا. «القويّ» لا يتطوّر لإنه قويّ بطبيعته. التطوّر، في الحياة الحقيقية (كما كان ابن الوراق يردد) من حصة «الضعيف»؟ التطور بوقائعه واحتمالاته التي لا تحصى، وبمتعته، كذلك: متعة ان

يحشد الطفل قواه، كلها، من اجل ان يقف على قدميه بعد ان كان يزحف. أية متعة أعظم من هذه؟

لا، لن أترك المكان، اذن، قبل ان أقول لها كل ما عندي. قبل أن أهزأ من خوفها الساحق اللامعقول. وهل يمكن أن يكون الخوف معقولاً؟ صرت اسخر من نفسي في بداية تلك الظلمة الدمشقية الخاسرة.

كانت دمشق، كلها، قد دخلت في الليل، ولم يكن يمر في ذلك الزقاق الجميل احد. الزقاق المزين بالشجر والمناقير. أتكون قد رتبت الامر على هذا النحو من اجل اغوائي؟ ام من اجل اقصائي؟ ولكن اي «فرق» يمكن ان يجنبني المحظور؟ لا؟ لن ابرح المكان قبل ان اكشف نفسي على هواها.

قبل ان أُدَمِّر تلك «العلاقة المريعة» التي انبجست، فجأة، في اعماقي مثل انبجاس نبع في صحراء لم تَرَ الماءمنذ دهور. ولكن كيف؟؟

كدت أعود على اعقابي خاسئاً حين رأيت، فجأة، عينيها اللامعتين ترسلان إليَّ بُروقاً مملوءة بالرغبة. رغبة امتلاك ما لن نمتلكه، ابداً. ووجدتني في ضوء العتمة المتزايدة، تلك، ابحث بلهفة عن العينين اللتين برَقتا، للتَوِّ، في عينيّ. برقتا بدعوة صريحة للالتحام. التحام ملجوم الا انه مؤكد الحدوث. وهل تكذب العيون على العيون؟ كيف؟ وانا ارى، بو ضوح، ساقها المليئة تداعب شجرة الياسمين، بدلال. تداعبها بلهفة مصحوبة بصَرَخ ولُهاث.

وكالقط الجائع اقترب محتسباً من الجذ ع. ومن الخلف أشدُّه شدّاً. وأحسُّها تملأ احضاني التي اتسعت لتستوعب العالم بما فيه. وتحت الشجرة التي غطت الشام، كلها، اقع. وتقع معي. تقع؟ لا؟ تحُطُّ، بهدوء، عَلَيَّ مثل طائر يحطُّ على غصن ألِفه منذ نعومة منقاره. تحُطُّ فَرِحة وهي تتفتَّح مثل ورد الصباح المبلل بالقطر.

وأهِبُ لها نفسي اكثر: تعالي؟ وقبل ان تسمع الصوت تحرن في المكان. تحرن وهي تتهيّأ لكي تترك الصَلْد الذي كانت تشغله منذ اول المساء. حركاتها حركات تردد، لا حركات تودد وانتشاء؟

كانت تتلمس الفضاء بعنف وكأنها تريد ان تولجه فيها. تمد يديها بعيدا عنها، ومن بعيد تعيدهما فارغتين اليها، لكأنها تريد ان تمسك بالريح ولا تقدر. لا، لم تكن تصيب غير جذع الشجرة الواقفة لصقها بلا اكتراث.

ومن قريب أناديها: «انا هنا»؟ وكأنها لم تسمع من النداء حرفا تظل تتابع تخبّطها الاعمى في ذلك الغسق البَهيم. واصير أتعجّبُ: أيّ شيء يقلقها الى هذا الحد؟ أتعجّب وانا التصق بها كما يلتصق الطفل بامه.

ولفترة وجيزة قطعْتُ انفاسي، قصدا. قطعتها لأوحي لها بخلاء لم تكن إلاّ تنتظره، لعلّها تعاوِد الأمان. لكن الحركة الهوجاء التي كانت تنبعث من اطرافها شغلَتْني. شغلتني بمالم اكن افكر فيه: تريد ان تستغيث ولا تجرؤ؟ لا؟ قلت لنفسي. انها تبحث عن شيء «مزعوم» في مكان لم تُضيّعْهُ فيه. خدعة أُخرى!

بدأ الخوف يربك حساباتي: تبحث عن شيء لم تضيعه، في مكان تعرفه جيدا؟ أي شيء أكثر إثارة للرعب من هذا؟

وبالفعل رأيتُ يدها الصغيرة تدورلامعة في الفضاء قبل ان تعود الى مقرها القريب من النهدين. أيّ شيء تريد إخفاءه في صدرها اللاهث المهيب؟ وكيف لي أن أعثر على مداخل جسدها ومخارجه في، هذه الحال؟

أجيئها من الخلف، اذن. أجيئها وهي تستسلم لِلَفْحَة السائل الداخلِ الفَجّ. وأحسُّها تتمادى في بُلولتها التي لم أكن أتوقعها، ابدا. أيّ شيء أمتع من ترويض امرأة لاتقاوِم؟

عندما حَلّ الهدوء، اخيرا، كَفَّتْ عن حركاتها العُصابية المتوتّرة، وارتدتْ وجهاً جديداً. وجه تُزينه البراءة والاستسلام. وجهُ مَن الْتقى، بعد يأس طويل، بمنْ كان يتمنّى ان يلتقي به، مع انه لم يفقده، ابدا. وجهٌ تغمره سعادة مضطربة: سعادة الكائن الذي يكتشف، بغتة، نَفْعَ عضو من اعضائه بعد ان كان قد نسيه، تماما.

صارت تَلُمُّ حالها بفرح. بفرح احسستها تتذوقه عميقاً. تعيد يديها بلطف الى بطنها التي لم تعد تعبرها الاختلاجات، وتُمَسِّد باطن فخذيها بنعومة ويُسْر.

كانت الاضطرابات العنيفة التي ملأت جسدها، للتوّ، قد تحولّت، بفعل المتعة، الى خُفاقات مُتَخامدة ولذيذة. لكأن أحدا كَفَّ «ذاتها» عن الهذيان.

وكأنها أحسَّتْ، اخيرا، بوجودي لصقها تلمَّسَتْني برهبة وحنان. تلمستني؟ كانت تتفقدني جزءاً جزءاً؟ عمّا كانت تبحث فيَّ؟ ومن جديد، وقعت يدها عليه. وارتعشت شفتاها وهما تطلقان أنيناً مكتوماً مثل أنين المخنوقين قبل ان يزفروا آخر الانفاس.

ومن جديد، صرتُ اهتَزُّ مستندا الى جذعها الذي بدأ يرتَجّ، هو الآخر. عدت مغموراً بحنينها وأنينها. كانت اللغة الوحيدة التي تتقنها هي لغة العجب والاستنكار. عجب مختلط بالخَدَر، واستنكار ممتزج بالمتعة.

لغة لم اسمع احدا يتكلمها، من قبل: لغة تمتزج الاصوات فيها بأنين الكائن الخاص. كلماتها لا تنبع من الحلق، وانما من الجوف. لكأن معانيها مرتبطة بالحركة لا بالنطق. ولكن ماذا كانت تقول تلك المرأة التي لا تكف عن الدوران؟

ووجدتني اردد في اعماقي التي لم تَرتَوِ، بعد: ثمة اسرار لا تحصى يخبئها هذا الجسد الاعمى المرتمي في حوزتي الآن. من اي باب ألجه، من جديد؟ والى اي مدى يمكن لي ان أتناءى فيه؟

اعمى؟؟ تساءلت مكذباً نفسي، ومؤكداً: عيون الجسد فوهاته. ولهذا الذي هو امامي الآن فوهات بعددعيون العالم، كلها.

ولكن، بلى؟ اقول، باصرار: ها هي ذي تمد يديها في الفضاء المنبسط دون ان تلمس شيئا. ها هي ذي تبحث عني دون ان يطرف لها جفن. انا في لقائها ولا تراني؟ ما جدوى ان اضع في عينيها نوراً وهي لا ترى النور؟ لا ترى النور؟؟ قلت هازئاً، مرة اخرى، من حماقتي: أنسيتَ نورها الداخلي العنيف الذي أصابك في الصميم، توّاً؟ أوَلَمْ تحس للحظات ان نورها الوهّاج، ذاك، كان اقوى من كل الانوار التي رأيتها من قبل؟ نور تغلّب، بلا عناء، على ظلمة العالم التي كنت تغرق فيها. لِمَ تتنصلّ من فعلك الحميم هذا؟ وكيف يحق لك ان تنساه؟

كنت اعتقد، لحماقتي، ان المكشوف، وحده، جدير بان يخبيء حرارة الشمس ومتعتها. ولم اكن اعرف ان المخبّأ بذلك اجدر. كنت وانا اكتشف انحاءها

يَتملَّقني الخبيء منها لأتحسسه اولاً. لأزوره قبل كل شيء. كنت اشعر بجلال الخفي وعظمته، دون ان استطيع الإحاطة بجوهره. إحاطة تتطلب (كما يقول ابن الوراق) قدراً من الادراك، وسعة من الحكمة، وكنتُ هائجاً ولجوجاً. ماذا اكتشفتُ منها، اذن، غير ما يكشفه احساس مندفع نابع من عاطفة متسرعة وبليدة؟

فجأة، بدأت الرغبة في كلام (ولو كان خالياً من المعنى) تغزوني؟ ولم اكن قادرا حتى على تحقيقها. هذه الرغبة المحبطة جعلتني أتساوى مع الكائنات الاخرى، وكأنني لم أكن، بالاصل، أساويها. بلى؟ فأنا لم اعرف في حياتي رغبة مثل هذه، من قبل؟ وهل عرفت غيرها؟ صرت أتساءل وانا على حافة البكاء!

رغبة غريبة اخرى بدأت تقتحم ذاتي، آنذاك. ذاتي التي انفتحت بعد انغلاق طويل: رغبة في الضحك العالي، لا الابتسام الخنوع. الضحك الذي كان كثيرا ما يعقب زوابع النقاش المحتدم بينهم بلا سبيل. تلك الزوابع التي لم تكن لتنتهي قبل مطلع الفجر. و«ضجيجها» الذي لم يكن في الحقيقة ضحكاً، بل تراجع الى الحضيض.

في ذلك المساء الدمشقي المثير طافت بي خواطر وخواطر. كنت انتقي الكلمات. واختار طريقة نطقها.

أتحرّى دقتها، لأروي لهم ما حدث لي. كنت استشفُّ الدهشة التي سترتسم على وجوههم (وهم يستمعون، لاول مرة، إلي)، وعلى وجهه «الكامد»: وجه «ابن الوراق» الذي يلتهم التعابير؟ كنت أحسُّ الرجفة تعلو شفاههم اللزجة وهم ينظرونني غير مصدقين. وما يهمني، بعد الآن، ان يصدّقوا اوأن لا..؟أولست انا الذي عانى الخوف؟ والذي تجرَّأ على المِنْعة؟ والذي تمتَّع بما لم يجرؤ احد منهم عليه؟

كنت اعرف انهم بانتظاري: علي وعثمان وعمر وبكر. لينتظروني، هذه المرة، كما يشاؤون. لا، لم اكن قادرا علي الإنفلات منها، بعدُ. كانت تحتويني كما يحتوي الجذع اوراقه المزهرة. وكنت الجأ اليها بامتنان.

الفصل الثاني

[١]

- هذا هو كل ما فعلتَهُ مع العمياء؟

قال عثمان هازئاً، وهو يقهقه في وجهي الذي غدا، في ذلك الظلام، وجهاً آخر: وجه كائن لم يَرْتَـوِ بعد، مع انه لم

يعد ظمئاً، ايضا. وجه محايد وبلا معنى؟ وجه رجل كان يمشي وحيداً في شارع خال من الناس، ولمدة طويلة، وهو يتصور انه ممتليء بهم، وهُمْ به كثير.

ماذا كان يمكن لي ان اقول لهم بعد الذي قلته لنفسي؟ وايّ شيء يمكن ان يبرر براءتي الكاذبة غير براءة حقيقية كنت افتقدها بعمق؟

وقبل ان اقول شيئاً أضاف، باستخفاف:

- منذ متى ونحن بانتظارك؟ لم نكن نتصور (والتَفَتَ بتواطؤ الى علي) انك ستهملنا من اجل عجوز شمطاء؟ عجوز اخذت منك نصف عمرك الليلة.

اكتفيتُ بابتسامة مواربة وانا احيد بنظري عنه. كانت عيونه التي تشعُّ خبثاً ترهب احساسي البليد. الاحساس المخاتل الذي لم يتعوّد على المجابهات. «وأنَّى له ان يتعودعليها وهو لم يعرف سوى الخضوع»! كما قال«ابن الوراق» بحق.

كان عثمان يلتقط بسهولة مخيفة دلائل المشاعر المضطربة التي كانت تجيش بها ذواتنا. لكأن له سلطاناً على ما تخبئه النفوس. حتى عمر وبكر كانا يخشيان، (كما كنت أتصوّر) مخالب أحاسيسه التي كانت تلتقط ما أُخفي عن العين؟

فكرت بذلك دون ان اقول شيئا. وربما فكر به، هو الآخر. وسريعاً التَـهَـمَ جوّ النقاش المحتدم ما فكر به كلانا ونحن ننتظر الطلبات. طلبات «مقهى الاصدقاء» الصغيرالمليء بالأبخرة والرضوض.

- الشاي من فضلك.

أشار َعليّ إلى النادل، وهو يشير، في الوقت نفسه، اليّ، دون ان يتوقف عن متابعة النقاش مع عثمان، ناظراً، في الآن ذاته، إلى عمر وبكر. ناظراً اليهما بخفاء. بخفاء معلن وكأنه التحدّي القادم، بلاريب؟

وكأنني لم انقطع عن مجلسهم، ابداً، صاروا يُشْهِدونني واحدا قبل الآخر: «رأيت يا اخي». «سمعت بالله عليك». «موافق يارجل». «ما رأيك يا رفيق»؟

ودفعة، استفزني عثمان وهو يقول متهكما: «ما رأيك بهذا الوضع يا استاذ؟» واضاف بهدوء، وهو يتطلع الى بكر، وكأنه يريد ان ينبهه الى امر خفي عنه: «لماذا لا تقول شيئاً، وانت تعرف كل شيء»؟

«اعرف كل شيء»؟؟ صرت أردد التهمة في قلبي الذي امتلأ رعباً. ومن أي شيء يمكن ان يرتعب كائن َعطوب مثلي، إنْ لمْ يكن من «معرفة كاذبة» يخلعها الآخرون، قصداً، عليه؟

وخطر لي (ولست ادري كيف) انه يريد النيل من «الوضع»، لا مني فحسب. فالوضع الذي كان يبدو في غاية الخطورة والجلال، كان يبدو، هو نفسه، وضعاً مزرياً وبلا مزايا؟ لكأن التناقض كامن في بنيته واخلاطه.

ولكن َمنْ كان بامكانه ان يرى بوضوح، آنذاك؟ وكيف يميّز الفروق والدرجات َمنْ كان يغرق حتى رئتيه في ذلك الاضطراب الدمشقي الخانق؟ كيف يعرف «اللاعارفون» من امثالي خفايا وضع هم بالاصل ضحاياه؟ كنت افكر في ذلك بصمت، رغم تفاسير «ابن الوراق» العتيدة وإلحاحه: «يعرفه الضالعون فيه». والذي كان يضيف عندما يراني غارقاً في سذاجتي: «إذ لا بد لمن يخالط الغبار ان يميّز، ذات يوم، بين غَبْـرَتين».

ووجدتني استرق النظر الى اللون البني الفاهي. لون ماء «بردى» المدفون تحت الارض. استرق النظر إليه، وأنا أتَلَوّع صمتاً. صرت أحس، من جديد، بظمأغريب مع انني لم اتوقف عن حَسْوِ الشاي ونَبْذِه منذ اول الليل، ظمأ لن يرتوي، ابداً، كما سأعرف فيما بعد. لن يرتوي حتى في السقيفة؟ حتى في سقيفة «ابو معروف» التي ستلتهم اسرارنا وخفايانا.

[٢]

كان الليل الدمشقي الذي بدأ الهجوم على ضفة «بردى» يثير الشجن والالتماعات. كنت احسب انني اقوى من المقت، ولم أكن ادرك نني اضعف حتى من الحنان؟

ذلك المساء، كنت أتساءل بلوعة: متى حدث ذلك؟ ما الذي حدث؟ واكاد اضحك في صمتي: ما حدث هو ما لم يحدث، بعد؟ كنت أُردُّ على نفسي قبل ان يرد احد منهم علي. ولم أكن اجهل قسوة الرد، احيانا.

ومع ذلك، أعود، ملحاً، إلى السؤال، إلى السؤال الذي لا جواب له: متى حدث ذلك، وكيف؟ متى عُلِّقَت الالواح في ساحة «المَرْجَة»؟ الواح مغطاة بسجف من الورق والريح. عليها، كُتِبت آيات وآيات. كنت امر بها واقرأ. اقرأ اللوح بعد اللوح. اقرأ وانا اتوقف عن الحياة. ماذا قرأت على تلك السجف المرمية في الضوء؟ ولِمَ تراني لا زلت أتشبّث بما عانيته من قبل، وكأن بلادة الماضي لا غنى عنها؟

ذلك المساء البديع، كنت اريد ان أتخلّص من ظمأي المخيف، أن استعيد بعض ارطابي، لكن «عثمان» اللّحوح لا يُمهِل. كانت كلماته تتغالب في الانبثاق من فمه، وكأنها لا تصدر عن عقله وانما تنبع من رأس لسانه. كان يسألني، وكأنه لا يريدني ان اجيب:

– هات ما عندك. تكلم يا استاذ. احكِ. صرت اخرس؟ قضت عليك العمياء؟

وكان يضيف متأسفا (كذباً): ماذا فعلت بك الشمطاء اللعوب؟

وكأن كلامه لم يكن موجهاً إليَّ بل إلى «عَلِيّ»، نفسه، رأيته يتململ في قعدته وقد فاضت عن الكرسي المهزوز اركانه، وهو يقول باستياء:

– كيف تريده ان يجيبك ان كنت لا تنتظر الإجابة منه؟ عجباً يا« عثمان »؟ لكأنك ترمي السؤال لئلا تسمع الجواب عليه، وليس ذلك حصيفاً ابداً.

وبعد ان استعاد انفاسه التي اضطربت بفعل كلامه المتوتر، تابع بهدوء، هذه المرة (وكأنه أحسّ بتهوّر فيما قال، للتوّ):

– للمتكلم طريقة ونهج، وللمستمع كذلك. المتكلم بلامستمع لاخير فيه لانه لن يتطوّر اذ هو بلا مُحاورِين، وهولن يُطوِّر احدا آخر اذ سيكون بلامستمعين، ايضاً.

كان علي يتكلم بزهو بيّن. لكأنه كان يريد ان يُظْهِر لي الى أي مدى يجوز التمادي في الدفاع عن الآخر، وبخاصة عندما يكون على حق. ولست انسى درسه العتيد في هذه النقطة بالذات، وهو يكرر المرة تلو المرة (واكاد اقول كلما وجد الى ذلك سبيلاً) قولته الشهيرة: «التمادي في الحق خير من الرجوع الى الباطل».

ولما ظل الآخران صامتَيْن، اضاف بحذر، وهو ينظراليهما، ناقلاً عيونه من وجه الى وجه، قاصداً وجه عثمان:

– مِكَرّ، مفـّر، مقبل، مدبر، معـا.

قال ذلك وهو يتهيأ (كما خطر لي) لتلقي ضحكاتنا. ضحكات اول الليل الدمشقي اللطيف. ضحكات الكؤوس الأخيرة قبل ان نَتَقاوَدَ في شوارع دمشق المليئة بالشجر والإنس. ولم يأتِ سوى الصمت؟

وكأننا تلقينا امراً سرياً، مددنا أيادينا، معاً، الى الكؤوس الباردة لنحسو منها شيئا ساخناً لم تكن تحتويه.

كان الجو قد بدأ يبرد فعلاً، ولم يكن في كؤوسنا سوى النَشافَة. نشافة عذبتني أنا ليلاً بعد ليل. كنت انتظر الندى من الآخرين. ندى كنت احسب قُطَيْراته الشحيحة مطراً لا انقطاع له. يا لحماقتي؟

كانت «سقيفة بردى» (وهو الاسم الذي أطلقه عثمان على مقهى الاصدقاء) هي التي تجمعنا كل مساء. وكل مساء (بما فيه هذا) كنت اتساءل (باصرار)، ونحن نشرب الشاي الاسود الثخين: لِمَ سقفوا النهر الذي خلقه الله كَشْفاً؟

ويوماً بعد يوم بدت لي سقيفة النهر المَدْموم، هذه، عَطِيَّة من السماء. وكأن علياً كان يقرأ ما في نفسي قال فجأة:

– اين كنا سنقضي أماسينا الجميلة لولا هذه السقيفة؟

- في السقيفة الاخرى. قال عثمان بلا تردد.

- في الوكر الرطب اللعين؟

علق علي قبل ان يستعيد عثمان انفاسه التي ذهبت مع الريح.

مَرَّ تعليق علي بلا حرارة، لأن نُسَيْمات الغروب الباردة التي كانت تَلْفَحُنا هابطة من «قاسيون»، أصابتنا بصمم لَذيع، حتى بدا الواحد منا وكأنه قد فَقَد حاسة السمع الى الابد. وبغتة، قال عمر:

- لِمَ يتكلم الكائن إنْ لمْ يكن لكلامه صدى؟

قال ذلك، وهو يلتَفُّ باثوابه الكثيرة التي لم تكن تستجيب لضخامة جسده الذي شَبَّ عن الذوق.

ظل بكر صامتاً وكأنه ليس من اهل الجلسة، ولا من عتّابها. كنت لصقه ولم أكن اسمع همساً. كان المساءالدمشقي قد بدأ يتحوّل الى ليل، «والليل لا يؤمَن شَرُّه» (كما كان ابن الوراق يقول)؟ ألذا صار بكر يتطلّع حوله، بريبة، كذئب يخشى على نفسه من هفوة لا بد منها؟

[٣]

من قريب، صرتُ ارى على وجه عثمان علامات التلذّذ والاتصال. كان يُمَسِّد بشبق مثير على انحائه. لكأنه كان يستحضر، فيضاً، ما فعلتُه مع امرأة الليل العاثرة، تلك. لكأنه كان يستعيد لحظة لحظة ما حدث بيننا تحت الشجرة الهرمة، ذلك المساء؟

كانت تقف لصق الجذع العالي، وكأنها تحتمي به، وكنت اقترب، متلصصاً، منها مثل كلب غريب نهشته الكلاب. وللحظة، لم اشهد فيها احداً حولي، بدا لي مانويت فعله مثيراً للمتعة والاضطراب. كنت ارى، في مرايا الظلام الدامس، وجهاً بائساً مثل وجهي. وجه رجل في حالة تلصص، ورفادة. رجل ينقاد عنوة الى الجحيم. الى جحيم شهوته التي لا ترتوي.

لم استجب لما رأيت، وإن أخافني. كنت مدفوعاً برغبتين: رغبة التلمّس في

الظلام، ورغبة تحسس جسد غريب علي. ووجدتني أضع، بتصميم آسر، كفي على منكبها الذيٍ بدأ يرتعش. واخذتني رعشة مماثلة،انا الآخر. عبثاً، صرت اريد ان أُخلِّص نفسي من أسرها الذي لا انفكاك منه، ان اتراجع الى حيث كنت، الى طمأنينتي البليدة ذات السكون المقرف.

لكأن تلك النشوة العابرة قد شَدّت الوثاق بيننا الى الأبد. وثاق لَمْسة ملأتنا بأمل لذيذ. واى معنى غير معنى

العبث يمكن ان يحمله التراجع عندما يكون النجاح (حتى ولو كان مرعباً) رهن يديك؟

هي ايضا لم تتحرك. لماذا لم تتحرك؟ كانت ترتجف صافنة في المكان؟ لكأن افعى تسللت، خلسة، الى منكبها الذي تعرّى بفعل الركض والانهاك. لكن المَسْكَة المتواطئة، تلك، والانجذاب اللذيذ لها، أخَلاّ بشروط التوقع والاستنتاج.

لا! لم يكن وقع الالم مبتذلاً، ولا لُزوجتة انتصاراً. كان نوع من الخدر المليء بالرغبة يستبد بها. ولم يكن باستطاعتي إلاّ ان استجيب.

اخيراً، احسستُ بلهفتها الصادقة تنطق. تريدني ان آخذها على الفور. لا، لم تعد قادرة على اخفاء ذلك الشغف الذي كان يشعُّ منها. كنت ألْمَسُ، باعصابي، حرارة جسدها الذي بدأ يَذُلُّ. كانت تلْتَمُّ وهي تنفرج. تعطي نفسها وهي تتمنّع. تقاوم وهي تستسلم مُغَمْغِمَة: تريد ان تفترسني، ام تريد ان..؟

عندما فتحت عيني، احسست ان عثمان يهزأ مني، صمتاً. يهزأ حتى قبل ان اقول شيئاً من هذا الذي كنت اقوله لنفسي؟ كان يتطلّع، بخبث، إليَّ، وصرت اتطلع إلى الأفق. اتطلّع اليه باستياء. استياء لا مبرر له كما بدا لي، آنذاك. كنت، في الحقيقة، اريد ان أتوارى من نظرته الوقحة، ولكن كيف؟

كنت احسني ازاءه بلا سند. اراني مكشوفاً امامه مثل وليد خرج من بطن امه للتوّ. كنت كثيرا ما أتساءل: كيف يعرف كل شيء عنا وهو لم يَتَولَّ امورنا، بعد؟ وكان َعلِي يؤكد لي، دون ان يكف عن النظر الى النهر المغَطّى باسمنت كالحِ ومقشور: «لا تعجب. انه يعرف اكثر من ذلك بكثير».

وعندما كان يراني شديد الاضطراب، مرعوباً مما يعرف عثمان ومما لا يعرف، كان يُلْقـي بعقب سيجارته نزقاً، وهو يتحسّر بصمت. يتحسّر مستقبلاً نسيم الغروب الهابط من أعالي الكون.

كان ذلك النسيم الطازج يأخذني بعيدا، انا الآخر. كنت انتعش لمجرد مروره على وجهي. هبوبه المفاجيء كان كثيراً ماينقذني من همود المساء الذي يحطّ بكلكله عليّ.

كانت مُويْجاته المنعشة تجيء، مباشرة، من قمه قاسيون القريبة، وبفعل برودتها اللاذعة كنت اراه يلتَمُّ على نفسه، مرتعشاً، وكأنه ينتظر الطعنة التي ستجيء بعد سنين.

«لماذا يخبّيء الجبل برده الى الليل»؟ كدت اسأل علياً الا انني اكتفيت بان سألتُ نفسي، دون ان انتظر جواباً شافياً منها.

كان التحدث مع النفس يمنحني نوعاً من الأمان الكاذب الذي كنت بأشد الحاجة اليه.كان ذلك التحدث مع «الداخل» الذي كنت احسه فارغاً، باستمرار، يملؤه ببعض التوتر الذي يسعد الروح، احياناً.

ولكن لِمَ تراني أردت أن أسأل احداً، من جديد، وانا لم انسَ، بعد، ردّ «ابن الوراق» الذي قال لي، ذات يوم: «ليس الذنب ذنب الجبل الأصمّ، وإنما ذنب مَنْ يحقنه بالحر حتى يتفجّر بْرداً»؟

كان نسيم الغروب الحامض، ذاك، كثيراً ما يملؤني برغبة في الكلام، مع انني كنت منذوراً للصمت. ومع مَنْ كان بامكاني ان اتكلم، ذلك اليوم، إنْ لمْ يكن مع وجهي، بعد ان تجهّم وجه علي، فجأة. تجهّمَ وكأنه يتهيأ لنزال عاقبته وخيمة.

ذلك، وحده، كان كافياً لفرض الصمت عليّ. الصمت حتى باشكاله الاكثر سرية. كان يبدو عليه التوتر والامتعاض، ولم أكن على بينة من امره، بعد. ماذا كان بامكاني ان افعل، إذن، غير ان أتطلّع في وجه الغيم، مستطلعاً خبره الأكيد. ولكن اي خبر يمكن ان يشفُّ عنه غيم دمشق البارد والبعيد؟

كانت الجلسة في غروب دمشق، وحدها، تكفي، لإثارة الهواجس والهُموم.

وكنت أتطَيَّر كثيراً من سحنة علي عندما تمتليء بالغُضون، وتركبها علائم المقبل على الموت.

ذلك المساء، لم يغيّر بكر شيئاً من هيئته المتكبرة، ولكن باعتدال، ولا من تشدده الذي أصابنا بالقَبْض. كان يتطَلّع ساهماً في الفضاء المحيط بنا وكأنه يتحاشى النظر اليه. كان يخترقه ببصره الشاخص بعيداً وكأنه فضاءمهمل مع انه ممتليء بالناس؟

اما عمر، فقد ظلّ ساكناً فوق هَشاشة كرسيه الذي لم يكن ليهتَزّ رغم حركاته السرية التي لا تهدأ.

وحده، عثمان، كان يروح ويجيء في مقعده الذي كان يعاني من ثقله الرجيج. كان يتهزهز فوقه وهو يرسل أسِنّة عيونه الخفية الى عَلِيّ، لكأنه يريده ان يفهم ما لم يعد بحاجة الى فهم؟ وكان، هذا، ماهراً في تحاشيها.

مع ذلك البرد اللاسع في الغروب، صرنا نتقارب. نريد ان نحمي بعضنا بعضا من لُفوحه المُخَرِّش للرئة والاعصاب. وكنت أبرَدَ الجالسين. كانت خفة الهِدْم، ورقّة العظم، لا تغني ولا تحمي. كان برد المساءالدمشقي نفوذاً، ذلك اليوم، أيضاً. «برد يعرف من اين ينفذ في الروح»! على حد قوله. مَنْ منا لم يأكل اسنانه،مرة بعد مرة، من حماقة ذلك البرد؟ من منا لم يتوقف، ليلاً بعد ليل، ليتبول، بتأثيره، تحت ظلال الزيزفون.

كانت الناس تهرول في بداية ذلك المساء الدمشقي البديء. بعضهم كان يغالي في العجلة والإسراع. وبعضهم يتصيّد اللون والايقاع. كانوا يتدافعون وكأنهم في سباق مع الوقت، ولم يكن الوقت عليهم حسيباً؟

أعادتني تلك المنافسة المحمومة في الرغبة عندهم، والمزاحمة المرافقة لها، سريعاً، الى ايام المعرض، كل صيف: «معرض دمشق الدولي» ملتقى الاجساد والارواح؟ للعيون فيه فضاء أثير، كما لحاسة الشم واللمس. مَنْ يلجه يتحول، عفوا، الى كائن ملتهب البؤرة والاحساس. مَساس بمساس.

كانت «فيروز» تحيي حفلاتها الغنائيه الصاخبة في قلبه. وكان الدمشقيون

يتسابقون كالخيول البرية الجافلة لسماعها . بورجوازيو الشام، وثوريوها ، على السواء، كلهم، كانوا يتسابقون للحصول على صكوك الدخول الأثيرة على قلوبهم. كلهم، بلا استثناء، كانوا يتعاركون من اجل سماع النغمة الاولى: «شـــــآم اهلوك احبابي وموعدنا».

و«سعيد عقل» الذي حاربته الحركات السياسية« التقدمية» كلها ، كان يحصل على «صك غفرانه» بمجرد ان تصدح «فيروز »: «شـــــــآم».

ومرة بعد اخرى، كان عثمان يردد، آسفاً: «جمعت حوله من يحبونه ومن لا يحبونه»؟

وفي كل مرة كان علي يرد عليه بازدراء، قائلا: «جمعتهم بصوتها الذي يتجاوز كل خلاف». كان يقول ذلك وهو ينظر بتوجس إلى زَلْعومه البارز وكأنه يلومه على بشاعة صوته.

كان يتكلم وهو ينفخ انفاسه في وجه الريح الآتية من الغرب. ريح «جبل الشيخ» الملَفَّع بالثلج، بعد ان تمر على «قاسيون» الواقف فوقنا بجلال. لكن عثمان لم يكن ليهتم بالقائل، ولا بالمقال، بقدر اهتمامه بمن كان يمر امامه من الناس، وبخاصة بنات الشام المثقلات بالارداف.

[٤]

كنت ارى ذلك، واسمعه، واظل ساكتاً كالرقيم؟ لكأنني كائن لا يعقل، مع انني كنت أتشرّب كل شيء. كانت كثافة القمع الداخلي تغرقني ببلادتها . تمنعني من بلوغ الهواء. هواء الحرية: حرية التكلم، لا حرية الاصغاء! وكان «ابن الوراق» يُعدِّل، دائماً، ما اقول، بنفاذ صبر: حرية الفعل، لا حرية الانطواء (وهو يكاد ان يضيف: ياغبي)؟

كنت اخاف، ويلمسون الخوف عندي، وهو مامنحهم قوة إضافية لإخضاعي. لم أكن أُدرِك لِمَ أخاف، وهو ماجعلهم يتمادون. كنت اعرف انني اكذب عندما ادعي عدم الإدراك، هذا، ومع ذلك، كنت ادَّعيه وملء قلبي الخوف.

كنت اشعر بنقائص وضعي، وكنت عاجزاً عن التماس المغفرة فيه، واحسُّني مسئولاً عن وضاعة الظرف الذي احياه، دون أن أتبنّاه. لا؟ لم أكن أحب أن أبدو مزيفاً. لكن «الزيف، كالحقيقة، لا مفر منه، احياناً» كما كان يقول؟ كنت اكتشف ان الزيف مرتبط بنقيضه، وان قيمته (كما الكائن) من قيمة هذا النقيض؟ كنت اكتشف ذلك بالرغم مني، فأنا قلما اكتشفت شيئاً بأرادتي؟

ومع انه قال لي ذلك من قبل، إلا انني لم استوعبه الا هذه اللحظة، فقط. فنحن غالبا ما نكون بحاجة الى «قَوْلَةٍ أخيرة» لكي ترسخ في اذهاننا فكرة تحسسنا لها منذ وقت طويل.

كنت أحاول ان اَلْتَهِمَ المدينة التي الْتَهَمَتْني. المدينة التي تخَلّيتُ، بسببها، عن نفسي دون ان ادخل في بنيتها ورؤاها. وهو ما كان يخيفني الى حد كبير.

ومع ان ذلك لم يكن شيئا خارقا للعادة الا انه اراحني كثيرا عندما فكرت فيه؟ هذا ما خطر لي، وانا استعرض صُوَرهم وأحاديثهم، ذلك المساء.

كان َعلِي يبدو لي «نقياً وحاسماً» بقدر ما كان عثمان يبدو لي، على العكس منه، شديد الخلط والادعاء. ولكن ايهما ..؟

من َعلِي، وبتأثيره، اكتشفت معنى ان يكون الا نسان متطرفا ولكن «باعتدال». فللتطرف عنده مزايا وسيئات. ولَكَمْ اعدت النظر بكلمة «اعتدال» هذه التي كان يضيفها، كلما نكلم، حتى عندما نكون غير متطرفين. لكن الحياة، وحدها، ستكون كفيلة بايضاح ذلك والكشف عن دوره ذات يوم، كما َعلّق «ابن الوراق» مستريباً.

كان َعلِي يتغيّر حتى وهو جالس لا يتحرك، او كنت أحسه هكذا. وكان عثمان لا يكف عن الحركة دون ان يتغيّر فيه شيء، او هذا ماكنت أظنه.

كنت لا أشكّ، ولوطَرافَة، بتصوري هذا عنهما. لكن الايام التي جمعتنا طويلاً هي التي جعلتني أتجاوَز ما كنت احسبه حقيقة لا جدال فيها. وهي التي ستجعلني أشكُّ بما لم أكن أشك فيه من قبل. لكأن الزمن الذي يمحو خطيئة الابتسارات، هو، نفسه، الذي يُنْشِيء في ذهن الكائن نقائضها.

كان عثمان يحس بنفسه قوة، و يسيء استخدامها. وعلي قوي بالفعل الا انه

لا يحسن استخدام قوته الحقيقية. ولأنني لم اكن ادرك العلة الخفية لكليهما، كدتُ اسأل عليا عن السر: عن سر التبهور الكاذب عند عثمان، وعن سر الخُفوت الذي لا يحتمل عنده. الا انني امسكتُ لساني، آخر الامر، عن الامتثال. عن الامتثال لذهني المليء بالبَلَد والخُروق.

وكأن عليا يقرأ ما يُكتَب في رأسي، قال مخاطباً نفسه، وهو يخاطبني، كما تصورت: «بدون حكمة لا تنفع القوة شيئا». وبعد ان سكت قليلا، اضاف، وكأنه يريد ان يؤكد لي ما ظننته، قبل قليل: «وبخاصة عند أولئك الذين يسيئون استخدامها». وتابع بسرعة لفتتني: «ولكن أنّى للاقوياء ان يدركوا ذلك»؟ كان يتكلم، ونواجذه تبرز من خلل الشفتين الثخينتين، وكأنه يريد ان ينهش احداً ولا يريد.

ومساء بعد مساء، على ضفة «بردى» المسقوفة بالحجر والطين، الضفة الممنوحة للاسفلت الاسحم وللريح، كنت اكتشف مدى العبث في ان تكون طرفاً في مجابهة. في مجابهة عشوائية لا تكف، برغم ذلك، عن الحدوث امامك، والإحاطة بك. الا انه «لمن المستحيل، كما قال علي، ألاّ تفعل ذلك». وهو ما يعطي للحياة سحرها الخاص، ومتعتها، ايضاً: «متعة الموت في سبيل قضية إنْ لمْ تكن وهمية فهي، بالتأكيد، غير قابلة للتحقيق»! كما كان يقول، ويضيف متحسراً: «كيف يمكن تجنب الوقوع في فخ محكم مثل هذا»؟

اسئلة أُخرى كثيرة، كانت تدخل رأسي ومنه تخرج بلا توقف، آنذاك. اسئلة، كنتُ الضحية الاولى لها. اسئلة ظلّتْ، الى الآن، بلا اجوبة ترضيها؟ لكأنني كنت أتنفس اسئلة، لا هواء «مقهى الاصدقاء» الخامر. هواء الادخنة الثخينة والمجامير. هواء جاف، زاد في جفافه، جفاف حلقي الذي كان يستقبله بلا شهية. كنت احسني بحاجة الى ريح مبلولة بالماء. ريح تنقلها سُحُب «الجزيرة» الكثيفة وهي تُطيّر الزرازير في الانحاء: زرازير المزابل المكوّمة في وجوه الدور.

كان صداعي العتيد قد بدأ ينأى بمجرد تذكر المطر والريح. الريح الباردة التي كانت تَلُمُّني مثل كوم من التراب على نفسي. ووجدتني أتساءل: اين يذهب

الصداع عندما يغادر رأس الكائن؟

وقبل ان أقول شيئاً، وكثيرا مااحسستُ بذلك، رأيت ابتسامة عثمان الهازئة تواجهني. ابتسامة ترشح لؤماً. تكاد تنبؤني بحقيقة وضعي. وضع الكائن المزري. الوضع الذي لا نقيض له لشدة رثاثته وسُقماه. لكن عليا هو الذي تَحَرّش بي، هذه المرة، إذْ قال بانفراج:

- تبدو بعيداً عنا وانت لصقنا؟ لكأن ما تعانيه هذا المساء لا علاج له.

قال ذلك وهو يتطلّع جُهْرَةَ الى النهر. الى النهر المغطّى بطبقات من الاسفلت والناخور. يتطلع اليه وهو يمتلىء استياء.

كان ينظر الارض حوله وكأنه يريد ان يخترقها، لا ان يراها. وكأن عمر (ولست ادري لمَ كان هو المعني هذه المرة) أدرك مغزى نظراته الزائغه الى النهر، اصطنع حركة مفاجئة باعدت بين نظرتيهما. لكن عليا ظَلّ يُلاحق نظرته الهاربة حتى غشاها.

وفجأة قال بحدة، وكأنه يصطنع اسباباً للشجار:

- لا تكن جاحداً يا عمر؟ انظر الى النهر، وقل رأيك بصراحة: لماذا يغطون الماء وكأنه سيل من الخراء؟

وقبل ان يجيب عمر (وهل كان مضطراً للاجابة؟)، قام بكر، فجأة، وقمنا معه. وتهدّج صوت علي وهو يدق الارض، حاقداً، بقدميه: «اذا ما ملكت امر هذه الامة، فان اول شيء سأفعله هو ان أُحرر الماء».

[٥]

لم يسمع احد غيري ما قاله علي. كنت اَلْتَمُّ بالقرب منه. اكاد التصق به. كان جسده الضخم يسحبني في تلافيفه، مثل رقعة في ضميره. كان الآخرون يبتعدون عنا بسرعة متزايدة. لكأنهم يريدون التخلّص منا، ولا يستطيعون. لم اكن ادرك سبباً لتلك العجالة التي حلت، فجأة، فيهم، أوائل ذلك الليل الدمشقي البغيت، ومع ذلك كنت أتحسس اسبابها ونواياها.

مشيه البطيء، ومشيي الاكثر بطئاً، فضحا حالتينا . هو لسمنته المفرطة، وانا لفرط هُزالي. منذ متى لم أذُق طعاماً يملأ معدتي بالسعادة، ونفسي بالانشراح؟ كنت أتعثر في سيري الهزيل وانا اردد ذلك دون ان يستجيب أحد لسِرّي. كنت جائعاً وشهيّاً، ولم تكن الشام، كلها، قادرة على اشباعي.

كدت اغرق، من جديد، في متعة «الاكل الوهمي»، عندما بدأ عَلِي يرسل الكلمات. كلمات تتناسل مثل الإبر المَلْضومة في خيط. كنت احسها تلج جلدي ومنه تخرج بلا دماء. كان يتكلم بحدة. يكلم احدا لا اراه. يكلمه بجدية أخافتني، ونحن نلحق بالجموع المائجة في الريح: «احذر نفسك، وبخاصة عندما تكون على يقين منها»! كان يقول ذلك وهو يمشي حثيثاً، ناظراً في اركان الخلق بلا خُذول.

كنت استرق السمع، بحياء، اليه، لئلا اوقظ الريبة عنده. كنت احب كثيرا ان استمع اليه وهو يشاجر ذلك الاحد الذي كنت احسب انني اعرفه بلا ريبَ. وهل كان بامكاني ان اعرفه حقا؟ كان عَلَيّ، برغم جوعي، ان اواصل المسير الذي بدا لي، ذلك اليوم، بلا قُفول.

كان بكر يقودنا وهو يتبختر. الى جانبه يمشي عمر صامتاً. يمشي مملوء بالوَجْس والاكتظاظ. اما عثمان فقد كان يبدو بعيداً عنهما، وقريباً منهما، دون ان يرتبط بهما .

أي شيء كان يملأ رأس عثمان، آنذاك؟ كنت أتساءل وانا أتجرجر وراءهم، وبكر يقودنا بلا تواني. ثواني ونصل. ثواني. قال وهو يكاد ان يحملني بيديه! ولكن، مَـنْ كان يتكلم، ومَنْ يسمع، في سدرة الجوع الملتبس، ذلك المساء؟ مساء الحشد المنطلق كالسيل الى المعرض؟

وكأن عليا كان يفكر بما لم اكن افكر فيه، قال محتداً، (وهو يحدث، من جديد، ذلك الاحد الذي لا اراه): «اريد ان اغفر ولااقدر»؟ ودون ان يبالي بوجودي لصقه، اضاف موضحا: «كيف يُغفَر مالا يُنْسى»! كان يتكلم بخفوت، وهو ينظر في الناس من فوق الثياب التي رفعها جسده الضخم الى اعلى.

وكأنه نسي وجودي نهائيا، وتذكره، فجأة، التَفَتَ إليّ، وقال بتوتر ظاهر (وكأنني المسئول عما كان يعتبره خطيئة لا مرجع لها): «لماذا تراهم يجرجرون اجسادهم الهَلْكى، كل عام، الى المعرض»؟ ولما لم اكن املك رداً على سؤاله، اضاف بحقد ظاهر: «انظر! انظر كيف صاروا يسدون آذانهم، ويملؤون عيونهم بالغَمَض، وكأن الناس حولهم هُباب»

كانت الاصوات تتشابك في فضاء المعرض الكبير. تتشابَكُ بعنف. اصوات الباعة والمُدلّين. ولاضمي الخَرَز والعقود. وباعة الزعتر والزيتون. ولَفّافي الخبز والقَلاّئين. واصوات العابرين خلسة. والباحثين عن الاسرار. واصوات اللامسين واللامسات، ذوات النحور، رهيفات الخصور. وصوت «فهد بَلاّن» الهابط من أعالي الليل: «لأرْكَبْ حَدّكْ يالْموطوْر»؟ والصوت الساحق هذا لمن؟

ومن جديد جاء صوت علي يُرْبِكُ سكوني الجائع: «اعرف انهم يفتعلون المشية هذه، كل ليلة، بحثاً عن متعة محتملة. ولكن، اية متعة ممكنة في عالم لايحمل الا الكرب والخُسار!»؟ وبعد ان تَلَفّتَ يمنة ويسرة وكأنه يشهد العالم على ماقال، وعلى ما كان يريد ان يقول، أضاف بهدوء: «متعة تتطلب هذا القدر، كله، من العناء لا خير فيها؟ ولكن لمَنْ اشرح؟».

كان يحكي. وكنت أفكر باموركثيرة داهمتْني. امور كانت، في الحقيقة، تداهمني باستمرار. كنت اذهب بعيدا عنه قبل ان اعود إليه دون ان ابرح المكان. كان موج من الامور المخيفة يغرقني بلاانقطاع. وكنت أجاهد لاسحب رأسي خارجا علّني أتنفس قبل ان اموت. قبل ان اموت سَكْتاً وجوعاً.

كنت احسب ان حياتي ستتغير بعد اعوام (اقصد بعد...) ولم اكن ادرك لِمَ ستتغيّر حياة لا تحمل اي معنى، ولا تملك اية امكانية لتنال مثل هذه الحظوة: حظوة التغير النجيب وبهجته. ومع ذلك لم اكن اكف عن التفكير فيما سيحصل لي بعد ذلك الوقت الذي كنت اتصوّره قصيراً، قصيراً حتى ولو طال عمري كله؟ ألا يستحق «وَهْم» مثل هذا ان يُعاش؟ كما كان «ابن الوراق» يقول. الآن فهمت.

كان ذلك التبدد النفسي يلهيني عن الجوع الفاتِك الذي يُفَتّت احشائي. كنت

اعرف انني لن آكل قبل ان تنتهي الدورة الليلية في انحاء المعرض الصاخب، آخرالليل. كان عَلَـيَّ ان استمر، إذن، في تمثيل دور الانسان «الطيّب والبريء» (الكائن المثير للشفقة والهزءعند ابن الوراق)، الانسان (الساذج على حد قوله) الذي يضحي بسعادته من اجل ألاّ يؤذي سعادة الآخرين، والذي لاتعيقه حتى ضرورات حياته اليومية عن مشاركتهم تفاهاتهم.

كانوا يتبخترون في مشيتهم، متمتعين بكل ما يحيط بهم من انْس وضوء. وكان «ابن الوراق» لا يكف عن التكلّم، وكأنه صمَّم على تعذيبي: «احسب انك لا زلتَ تنظر الى حياتكَ بشروط نظرتكَ الاولى لها، النظرة التي معيارها الوحيد النجاح. حتى النجاح الذي لم تخطط له انت. وبخاصة هذا»؟ ويضيف وشبح ابتسامته اللزجة يرتسم على شفتيه اللاصقتين باسنانه: «ومعيار النجاح الوحيد عندك هو رضى الآخرين عنك، لا رضى والديك فحسب. وهو ما يضعك في خانة المَمْحِيّين من الوجود».

وبعد فترة من الصمت الذي احسسته ُمرهِقا، لانشغالي العميق بما كان يقول، تابع بنبرة لئيمة: «وهو ماصار يُحيّرني بعد سنوات رفقتك الطويلة لي».

كان يحكي. وكنت انظر الانوار المحيطة بي. انوار «كازينو دمشق» المواجه للمعرض. الانوار المرهفة التي تتخلل الاشجار العظمى المبثوثة على الضفتين. كانت أشعتها المبلولة تخترق، كأسهم سحرية، سيول الماء المنبثقة من النوافير. وكنت، هرباً من الصوت المُلِحّ، ألاحِق البَلَل والنور.

وكأنه عرف، أخيراً، اين كنت اختبيء ببصري عنه، لَفَّ حولي حتى صار حاجزا بيني وبين انواري الَجميلَة، وقال بحدة ارعبتني، وهو يلمس زندي: « عادة، يستعمل الانسان الأفانين التي تعلمها، كلها، ليصل الى ما يريد. وعندما يصل، يدرك ان معنى وجوده الوحيد هو في ان يكون ما هو فعلاً، لا ما يريد له الاخرون ان يكون. يدرك ان اسوأ ممارسة للحياة هي ان يكون تابعاً ومبذولاً».

وبعد ان تنفَّس بعمق، أكمل وهو يهزُّني، وكأنه يريد ان يوقظني من النوم: «وانت، عليك ان تختصر الامر منذ البداية، عليك ألاّ تكرر ما لا يكفُّ الآخرون عن

تكراره، كل يوم».

ماذا كان يقول؟ لا؟ لم اكن اسمع شيئاً. لم أكن اسمع غير خَرير مُوَيْهات النوافير المصطدمة بالانوار. الانوار الخُضْر المنثورة على الطريق. كنت لااسمع إلّاهتزازات الاغصان الندية في ذلك المساء الخارج من كمين الشمس.

كان يحكي. وكنت انظر. كنت ارى. ولم أكن اسمع شيئاً.

[٦]

كنت قد قدمت المدينة منذ اعوام. وكنت لازلت امشيها كالغريب. كالغريب الذي يلجها اول مرة. غريب محروم من المعرفة لا من الاكل، فحسب. ومنذ العام الاول قُدّر لي ان التقي «بالرَبْع». بالربع الذين سألاحقهم مثل ظلهم من بعد.

كان بعضهم غنيّاً. وبعضهم قليل الغنى دون ان يكون فقيراً. كانت تبدو عليهم سيماء الثراء الذي يعلن عن حاله بسهولة. ثراء النفس الظاهر عند بكر. وثراء الخلق البادي على عمر. والثراءات الاخرى المنتشرة هنا وهناك عند الآخرَيْن. وحدي، كنت احسب بين المعدمين. ولم يكن ذلك يشكل ازمة لا لي، ولا لهم، لأنني لم اكن محسوبا منهم، بل عليهم.

ذلك، كله، انشأ بيننا علاقة مضطربة وصادقة، معاً. لَمْ يكن لدي ما أدافع عنه، ولا ما اريد له ان يسود. لم اكن بحاجة الى ان اعلن عن موقف فكري، او اخلاقي، قد يسبب حرَجاً لي، أو لهم. كنت كالسكر اذوب في مائهم «العَكِر» حتى ولولم يحركوني. ماذا يريدون مني اكثر من ذلك؟

لكن علاقة الذوبان التي كانت تبدو بسيطة الى هذا الحد، لم تكن، في الواقع، علاقة محايدة، ولا خالية من الاهداف، كما ساعرف فيما بعد.

ذلك المساء، غافَلْتُ عليّاً واختفيت. كنت اريد ان آكل شيئا. أي شيء. لا، لم يكن ثمة مفر من الأكل. الموت جوعاً ليس حلاً. لكن الرغبة وحدها لا تكفي، ايضا. ماذا افعل اذن؟ ماذا افعل قبل فوات الأوان. ماذا سأفعل غير الذي سأفعله الآن؟ غير ان أُغافِل بائع الفلافل، ومن بَسْطته المعروضة على المنحدر العَتيم، أقْرُص

قُرْصاً. قُرْص اَلْتَهِمُهُ، على الفور، َعلّهُ يعيد الحياة الى وجهي. وجهي الذي افتقدها، او كاد.

لم يلتفت احد منهم إليَّ، إلاّعثمان الذي كان يسبقنا، كثيرا؟ هو، وحده، الذي التفت في اللحظة التي لقَطْتُ-القرص فيها. لكأنه على موعد مع نفسي؟

عندما لحقتُ بهم، كان علي يتكلم مستاء، وكأنه انتهى للتوّ من خصام مع احد منهم (ومع مَنْ يمكن ان يتخاصم علي إنْ لَمْ يكن مع نفسه، على حد قوله)؟ كان يتساءل بحدّة: «مَن المسئول عن اوضاع الناس السيئة، هذه، غيرأولي الأمر»؟ لكن «ابن الوراق» صحح مقولته هذه فورا عندما سمع بها مني، قائلاً: «غير الناس انفسهم، وعلى رأسهم أولو الامر منهم».

كان علي يتكلم وهو يَحوص في مكانه مثل حصان مَعْنون بقوة. يتكلم وهو يتحرك باضطراب متسائلاً من جديد: «ما قيمة الحياة إن لم تسعد الاحياء. وما يبرر تحمّل الشدّة غير البلادة والخنوع»؟

وبلا تعجّل، قال عمر، (وكأنه اراد ان يهدى الغليان من حولنا) قال بحياد وهو يلاحق فوجاً من الناس الذين َمرّوا بنا كالنار، لكأن ما يعذب عليا لم يكن يعنيه في شيء، أو لم يكن يحدث في عالمه، اصلاً:

– كيف لي أن أهبكَ الراحة وانت لا تكف عن الشكوى؟

– وهل يشتكي احد بلا سبب يا عمر؟

قال علي وهو لا يتوقف عن الحركة في سكونه الكظيم.

وكأن عثمان لم يكن ينتظرالا هذه اللحظة، قال متعجّلاً:

– ليس اخطر من الشكوى إلاّ أهلها؟

كان التهكم واضحا في كلامه. لكأنه وجد الفرصة، اخيرا، للنيل، صراحة، من علي.

ورأيته وهو يقول ذلك، يغمز بعينه اليسرى. يغمز احداًلا اراه؟ لمن كان يغمز عثمان، آنذاك؟ حاولت ان أُطارد المغموز الا انني تجنبت ذلك، خوفا من اكتشاف ما اجهل. كنت اخاف من الغمز كثيراً. كانت رَفّة العين المتواطئة، تلك، تثير في

نفسي أحاسيس شتّى، وتنقلني الى احتمالات مثيرة لا تحصى، منها: «تعال»، ومنها «أجيء»، ومنها «هيت لك»، ومنها «انتظرني»، ومنها ... لكن «ابن الوراق» هو الذي أصاب عندما قال لي ليفُكَّ حيرتي:

«الغمزة هي حركة الجسد الصُغرى التي تحمل معانيه الُكبْرى. وهي، بالتأكيد، الاكثر قدرة على التعبير عن انعطافات الجسد، وعن اشتعالات الروح النابعة من اللايقين».

ذلك المساء، كان بكر يمشي الهُوَيْنى وهو ينظر يمينا وشمالا. لكأنه يتفقد رعية هي بأمسّ الحاجة اليه. كان يرى الى وجوه البشر المتكاثرين حوله،متهَرِّباً، في الوقت نفسه، من عيونهم التي تبحث عن عينيه. لا، لم يكن ينظر الانوار المبلولة بالماء، مثلي (كدت اضحك؟) كان يزن خطاه وهو يَهُشّ على الريح بعصا صغيرة بين يديه. كانت الناس تصطلق، من حوله، وتفترق دون ان يغيّر في هيئته شيئا. كانوا قريبين منه، وبعيدين عنه، دون ان يحفل هو بذلك.

وحده، عثمان كان يتابع سيره الموسّع، بالقرب منه، وهو يكاد يصطدم بالبشر المتكاثرين. لكأنه كان بحاجة الى ارض إضافية ليمشي عليها. ليمشي عليها باقدامه السرية التي لا تحصى. وسمعت عليا يتمتم، حاقداً: «من اين له باحساس الكَثْرَة، هذا، وهو واحد»؟ وبصوت ملتبس وضَغين، يضيف: «وهو واحد منا».

ومن جديد، صار يُكلّم «الرجل الذي لم اكن اراه»، قائلا بتوبيخ: «ألأن العالم يبدو مطيعاً لكَ صرتَ تحسب أنه صار مُلْككَ؟ ألا تريد أن تفهم أن الحب يُمَلِّكُ اكثر ممّا يُملّكُ الضرب»؟

وكأن عمر سمع بعضاً من حديثه المناويء، صار يبسط فخذه بقسوة. يبسطها دون ان يغيّر لا من مشيته، ولا من تجهمه المهيب. لكأنه كان يريد ان ينهيهما عن منكر لا ينتهيان عنه. كان عدم التجانس الرهيب بينهما يوحي بما يكتنزه الوضع من تناقضات. «لكن انعدام التجانس، هذا، كان ضرورياً لكي يقوم ذلك الوضع ويدوم على حد تعبير «ابن الوراق» المتمكّن من الاستنتاجات.

فجأة، بدأ بكر يحث الخطى، وكأنه يستعجل الوصول. يستعجله للخلاص من ذلك الحوار المربك الذي يلوِّث الفضاء. فضاء دمشق الغارق في السكينة. في سكينة وخيمة، كما تصورت. وتصوري، ابداً، لا يصيب.

[٧]

ذلك المساء، كنت ارى علائم يأس خفي ترتسم على الوجوه. على الوجوه التي كانت تمر بي. يأس لم أكن ادرك من سره شيئا. لكأن العقل انعكاس للمادة فعلا؟ لكأن امعائي الفارغة فَرَّغَتْ رأسي من مادته. كنت ابصر ولا ادرك. واسمع ولا اعقل. لكن ذلك لم يكن الا عينة من حياة بائسة، سأعيشها طويلاً، كما ساعرف فيما بعد.

كانت الجموع المتكاثرة حولنا لا تكف عن الحركة والهَرير، وكنا نشقُّها بلا اكتراث. عالمان متناقضان كانا يتزاحمان، ذلك اليوم. يتزاحمان بارتياب في الفضاء الدمشقي الفسيح. بارتياب صامت كنسيم الفجوج العميقة قبل ان يحمل العاصفة اليك. عالمان منفصلان، تماماً، كانا يتواصلان ثَمَّة ولا يتصلان. أي شيء يدعو للقلق اكثر من هذا؟ ولكن لِمَ لا يريد احد أن يفهم؟

في ذلك المساء الدمشقي الغارب، احسست، بغتة، انني «ضحية تاريخية»، دون ان املك البرهان على ما احسسته. وما يهمني البرهان طالما ان نفسي كانت مفعمة بأحاسيسي إلى ذلك الحد: حد اليقين الفائض عن البرهان.

لكن ذلك الشعور «القاطع» بدا لي مثيراً للضحك، لا للنقد، فحسب؟ من اين لي، في معمعة الجوع الذي كان ينهكني بلا رحمة، بافكار مثل هذه؟ افكار تقارب الغيب، او تكاد. وهل كان عَلَيَّ، في ذلك المساء الجميل، ان اشغل نفسي بترّهات لا تساعدني حتى على جَرّ قَدَميّ الفاترتين؟ قدماي اللتان كادتا أن تفرّا من تحت ثقلي الهزيل. ولكن الى اين؟

لست ادري كيف داهمتني مقولة «ابن الوراق» الكَريرة، من جديد، آنذاك. لكأنه لَقَّنَني اياها، للتوّ، حرفا، حرفا: «الحياة هي التي تصنع مساراتها. تصنعها

دون تخطيط مسبق. لكن غياب التخطيط هذا مخطط له باتقان. وهو مايعطي الكائنات الشقية من امثالنا القوة: قوة الاستمرار في حياة متضاءلة القيمة باستمرار».

نسيت جوعي المهلك، منذ ان تذكرتها، وعدت التصق بعلي. التصق به وهو يمشي صامتاً ومريباً. من قريب صرت ارى ارتباك عمر وهو يبدو مشغول البال، واضطراب عثمان الذي تصورته يخطط لأمر لا يريد الافصاح عنه ويخشى، في الوقت نفسه، أن ينكشف على غير توقع منه. اما بكر فقد ظل يتابع سيره الرصين بانتظام. بانتظام لم يعكره الحضور العديد للناس المتوددين.

فجأة، شعَرْتُ بذراع علي تسندني لئلا اسقط على القاع؟ كنت أحسُّني اريد ان أذوب في الأفق القصي الذي لم تعد عيوني تطاله. الأفق الذي كان يسحبني برخاوة اليه. ومن بين الغمام المتراكم فوق قلبي، كنت اسمع، بخفوت، صوت علِي يردد: «وصلنا»؟ وكنت أُعيد بآلية مضحكة: وصلنا؟ أُعيد متسائلاً بلا رغبة في السؤال، مشجعاً نفسي لئلاّ تتفتت بين اقدام العابرين.

عندما صحَوْتُ، كان علي يحكي، وبه حدة غير معهودة:

– تداخلت الاحداث، وتعقَّدت الاوضاع، واخذ مسار العمل الذي كنا نود القيام به يتأثر بذلك.

وبعد ان سكت قليلا وكأنه يستطلع رأي بكر بالخصوص، تابع:

– نحن الآن في سباق مع التاريخ. في سباق معه، حتى لا اقول في تناقض وإياه. هو لا يريدنا ان نحقق غايتنا، ونحن لا نرضى بأقل من ذلك.

وهذه المرة توقف. توقف ليتنفس عميقاً، لا، ليستطلع رأي أحد منهم، لانه اضاف بسرعة وتصميم:

– وهذا يعني اما ان نخضع له فنغيّر مسارَنا الذي تعهدناه امام الناس، او أن نتمرّد عليه وننجز مشروعنا الذي بدأناه.

ولمّا ظل بكر صامتاً، ولم يبدُ عليه انه في حال من التوتر التي تعني ضرورة الكَفّ، فورا، عن الكلام، قال عمر بهدوء، وكأن الامر مفروغ منه:

– بقي وجه ثالث، يا علي، وهو الاكثر احتمالاً: فالعمل، نفسه، كفيل بان

ينشيء الوضع المناسب له. وهو سيكون جديراً لا بتأسيس تاريخه الخاص، فحسب، وإنما بدفع التاريخ الذي ولد في فضائه لكي يتحوّل، ويتلاءم مع سياقه. إنه جدير بذلك دون اللجوء الى ذرائع اضافية.

وكأنه ارد ان يؤكد على جدلية العمل – التاريخ، وعلى خطل النظرة السكونية، المبنية على الثنائية، عند علي، اضاف، مركِّزاً على كلماته:

– للتاريخ هفواته واخطاؤه، ايضاً. ولنا مثلها كذلك. وتبصُّرنا به يجب ألاّ يعمي أبصارنا عن طاقاتنا العظمى.

وعلى الفور، انتهز عثمان الفرصة ليشرح لهم بعض افكاره، التي شرحها مرات كثيرة، من قبل، ولينال، في الآن ذاته، من اطروحة علي. فقال مُسْتَسْهِلا مايقوله وكأنه يقرؤه في كتاب:

– لكن العمل بلا «تقنية» صارمة، وبلا «مبدأ» قائد، لا جدوى منه. والاحتماء برصيد التاريخ لا يغني عن رصد الواقع شيئا.

وبعد ان تنفس بسرعة، اضاف مستعجلاً، وكأنه يخشى ان تفر الكلمات منه، ناظراً من طرف خفي الى علي:

– في اية ورقة صفراء مثل هذه (واخرج كالساحر ورقة صفراء اللون من جنبه، فعلاً) يمكننا ان نعثر على عشرات المقولات والافكار. وعلى الفور أضاف:

لكن الامر الحاسم بالنسبة لنا (وتطلّع الى علي، من جديد) هو كيف نستطيع ان نعرف عُشْرَ ذلك عن الواقع، عن شخص يُعايشنا، يُقاسمنا الهواء والماء واشياء اخرى.

وكأن الحديث كان سبّة لعلي، هَبَّ قائلاً:

– المعلومات عن الواقع، او عما يعنيه لك هذا الواقع، من ملابسات، هي الاخرى متوفرة ومبذولة. وهي ايضاً، مهما كانت كمّاً وكيفا، لن تجدي نفعا دون استيعاب التاريخ الذي تريد ان تنساه باسرع ما يمكن.

وبعد ان شهق الهواء البارد عميقا، وكأنه زَكيم ناقِه، قال:

– وما هو الواقع إن لم يكن هو الناس انفسهم؟

ورأيتُ عثمان يَتَشاهَل وكأنه يسحب نفسه من بئر سَقَطَ، غَفْلَة، فيها، وهو

يقول:

– أوَليس من حقنا أن ننشيء واقعنا الخاص حتى ولو..

– بلى. قاطعه علي، واضاف موضحاً: شرط ألاّ يكون استفزازياً، ولا مجحفاً بحق احد من الناس.

لكن عثمان لم يمهل الرد عليه، إذ قال بتصنّع يكشف عن اهوائه ونواياه:

– حتى ولو كنتَ على حق ياعلي، وهو بعيد الاحتمال، لا تنسَ اننا لن نتقدم خطوة واحدة الى الامام إنْ لَمْ نتحَكَّم بالاوضاع وبصانعيها.

ولما رأى عليّا يكاد ينطُّ في مقعده وهو صامت، اضاف بسرعة لم اكن أتوقعها منه، ناظراً، هذه المرة، جهرة الى عمر:

– للحياة ضروراتها، وللاحياء نزواتهم. وإنْ لمْ نحدد كل شيء منذ البداية فان كل شيء سيفلت في النهاية منا.

– عجبا، ياعثمان؟ تتكلم عن الحياة ببراءة وانت أضَرّ الناس بها؟

قال علي بحدة ارعبتني، قبل ان يضيف بتصميم:

– نحن لا نريد تقييد الحياة، بل نريد اطلاقها. نريد اطلاقها (كرر) حتى ولو كان ذلك لا يرضيك. وبعد فَصْلَة من الثواني، تمادى بصوت اقل جهراً: حتى ولو كان ذلك لا يرضيكم؟

ظل بكر هادئاً في لجة ذلك المساءالدمشقي المختلط الاصوات والالوان. لكأنه لم يسمع مما قيل شيئاً. أو لكأن ما قيل لم يكن يعنيه. ولَكَمْ أثار دهشتي ذلك الهدوء الذي لا يضطرب عنده حتى في اكثر الحالات توتراً؟ بجانبه، كان عمر يقف وبه نوع من الشماتة واللوم. ولست ادري لمن أراد أن يوجه كلامه المباغت عندما قال، بتهيّب شديد:

– احذروا احلامكم لانها قد تتحقق ذات يوم؟

لكن عليا هو الذي ردَّ قائلا، وكأنه المعنيُّ بها، اصلاً:

– تلك ليست احلام ياعمر وانما ضرورات. ولست تجهل، اضاف بوقار، ان كل ما يمس اركان الحياة الأساسية ليس حلماً، ولا يجوز ان يُعامل كذلك.

الفصل الثالث

[١]

كنت أحث الخطى و انا استعيد نُتَفاً مما دار بينهم بالامس.

بدا لي رَدُّ عِليّ حاسماً، وأساسياً، حتى انني كدت أهنِّئه عليه. «لكن الرغبة في الكلام غالبا ما تُخفي كلاما حقيقيا آخر لاعلاقة له بها» كما قال «ابن الوراق»، ذات يوم. ولذا فضلتُ الصمت على كلام يفتقر إلى التماسك والوضوح؟ «وما الوضوح إن لم يكن هو المعرفة وقد صيغَتْ في كلمات»؟ معرفة كنت افتقدها بعمق، وعلى جميع المستويات.

هكذا، كبَحْتُ رغبتي الطازجة، من جديد، كما فعلتُ مع غيرها، من قبل. «كبحتها لئلا أصير ضحيتها» كما علموني، وكنت، في الحقيقة، «ضحية بلا ضفاف». بصمتي البليد، ذاك، كنت، مرة اخرى، أُؤكِّد المنطق السكوني المُثبِّط للعقل، منطق: «مَنْ كابد القمع لا يخشى من الملَل»؟

كنت افكر واحكي وامشي، معاً، متلذِّذاً (وكأنني الوحيد الذي يفعل ذلك في تلك المدينة الملأى بالمجاذيب؟)

كنت افعله، ببساطة، منذ شهور، وسنين. إلاّ إنني لم اكن لأُسرع، بمثل تلك العجالة، لو لم اكن جائعا وغَثِياً، ذلك الصباح.

في اول شارع «الصالحية» توقفت. لماذا توقفت، وقد بدا المساء بعيداً؟ لماذا توقفتُ؟؟ وهل يسأل احد مثلي نفسه سؤالاً كهذا؟

كان بائع الفلافل قد بدأ حملة التسخين الصباحية. «فلافل الجمهورية» كان اسمه. اسم ذلك المحل القابع على الرصيف. دكن مكشوف من جهاته الاربع، تقريبا. فضاؤه مملوء بالزيوت المُحَمّاة آلاف المرات. فيه كنت أصيب بعض الُنتَف والقشور: فلافل باردة يُعاد تسخينها عَشْراً، عَشْراً. وخبز بائت يُحمّى على أبخرة الزيوت المتطايرة كالعصافير.

واقفاً، كنت ارى التماع الحرارة، وكثافتها المرهِقة، وانا انتظر اللَفَّة التي سألتهمها بسرعة، كما يلتهم الجحش الجائع قبضة من تِبْن.

- واحد مشَكَّل؟

سألني الرجل المزَيّت، وهو لا ينظر إلي. كان مشغولاً بتهيئة لَفَّة الرجل الذي سبقني الى الوقوف. كنت ارى شرائح الباذنجان التي كانت، في الاصل، سوداً، وغدت شُهْباً من كثرة القلي. وفي اطراف الصحون الدَهينة، كنت ألمحُ بعض قُطَيْعات الكوسا المدورة مرمية باهمال.

بالقرب منها شيء كان اسمه البيض: نثار من الابيض القديم، والاصفر الرَميم، يغمره سائل لزج وثخين، كان اسمه الزيت.

كدتُ أُجيب: «لا. واحد سادة»؟ الا انني امسكت لساني في الهمسة الأخيرة عن الكلام. كنت اعرف انني لا املك ثمن اللفة الكبرى. وكان ذلك يؤلمني فَلَساً وجوعاً. كان يؤلمني ألاّ استطيع ان أقول له بتبهور: واحد مشكل من فضلك؟ كنت اعرف ايضا ان لفة اصغر منها لن تزيد جوعي الا جوعا أقبح منه: جوع مَنْ ذاق طعاما لا يُشْبِع. ولكن مالعمل؟

كنت لا املك حتى ثمن الهواء الذي أتنفسه. وكان علي اذا ما اردت العيش حسب امكانيتي الفعلية أن اكتفي بالنظر، وحده. فحتى لَمْس الاشياء كان له، هو الآخر، ثمن يتجاوز طاقتي النقدية، كثيراً.

لكن «التصرف المستبد» بطاقات الناس، و«التبذير المسرف» لما كان يسميه عَليّ «المال العام»، هو الذي دفعني الى ان أقول له، ذلك الصباح، بوثوق كبير (وكأنه المسئول عن ذلك، كله): «مشَكَّلْ كُوَيِّسْ، من فضلك، يا استاذ»؟ وُثوق اعتبرته ضَرباً من المطالبة بحق مهدور من حقوق الكائن الاساسية: «حق المأكل والملبس والمسكن»! الحقوق الميميّة» الثلاث كما كان «ابن الوراق» يسمّيها. وأضفت الاستاذ انتقاماً. ولكن ممّن؟

وكالبرق انهى اللفة العظمى وحَطّها بين يدي. حطها بحذر وكأنه يحط بينهما وليداً خرج من بطن امه، للتوّ.

لم انتظر رجوعه، وقد اسرع الى احد الواقفين الجدد، لألتهم نصفها الاول، فورا. كنت اعرف انني لا املك من ثمنها شيئاً. وكنت اخشى ان يستردّها مني، إنْ لَمْ أمسها بسوء.

– سأدفع لك المرة القادمة.

قلت له بأدب رفيع، وانا اتابع نهش بقايا ماكان اسمه: لَفّة. وكأن الامر لم يكن يدهشه، لشدة ما تعوّد عليه، استدار عني الى الذي وقف بالقرب مني، وهو يردد بلطف:

– لا تنسَ.. وإلاّ؟

ابتعد ت وانا أهزّ رأسي بالايجاب. وكيف لي ان اخلف وعداً حيوياً مثل هذا الا اذا اردت ان.

ان اموت جوعاً.

ما إنْ التهمت ذلك الخليط من الطعام، او مما يمكن ان يسمى هكذا اعتباطاً، حتى صرت امشي بخيلاء وكأني امتلك الارض ومن عليها. امشي وانا ادمدم اغنية قديمة تطاردني منذ سنوات. اغنية الانتقال من حال الى حال: من حال التردد، الى حال التمدد. كنت امشي جذِلاً، و«صوت» الأغنية الشيطانية يلاحقني. ماذا يقول الصوت: «لا تستعجل؟ خذ العالمَ مَهلاً. قُدْهُ اليك، ولا تَنْقَدْ انت اليه. ابحث فيه عن الأمور الأساسية، لا عن بدائلها. وابتعد، ابتعد اكثر ما يمكن، عن البلادة والزيف».

ذلك النهار، كنت امشي صامتاً في هيئتي، وصاخباً في اعماقي. لكأنني ارى الشيء الواحد شيئين. امشي وانا أتساءل في صمت: من اين جاءني داء التثنية هذا الذي يكاد ان يصيبني بالخبل والزَيْغ؟ أتساءل، بكَرَبٍ، وانا اتذكر «حادثة القشور»!

يومها، كنت اقف في العراء الممتلىء بالزيت والأرطان. اقف مهتزاً. اكاد اسقط على الصحون. ورآني الرجل الملفوف بالبَخَر والدهون. رجل اللفة الكبرى، نفسه. وكأنه خشي ان تلتهم عيوني محتويات أباريقه النحاسية،

وصحونه المصنوعة من التوتياء، او كأنما اصابته عدوى الشهوة التي كانت تتناثر مني، توقف فجأة عن الشغل وصار يلتهم. يلتهم كل ما يقع بين يديه، ناسياً وجهي الجائع الذي ظل بلا أباليل.

اثناء سيري الحثيث، ذاك (او الذي غدا كذلك بعد ان التَهَمْتُ ما التهمت) مررت على النهر المغطى بالحَثَل والريح. مررتُ عليه مسرعاً وَودوداً. كنتُ امشي وانا أمنّي النفس بلقاء المساء الموعود معهم. كان صوت بكر العَطوف لا زال يرن في مسمعي، عندما قال البارحة: «بعد مقهى الاصدقاء، سنذهب الى سقيفة ابي معروف». كنت احث الخطى بحماسة، وانا اتمتم: دعوة من بكر، اي شيء أَبهج للنفس من ذلك؟

كادت كلماته أن تتساقط، ذلك اليوم، بين اقدام الجَمْع الذي َمرَّ مسرعاً كالنار. جَمْعٌ جَـمَـعَ في ثناياه صبية وصبايا. خصورهم تتمايل مثل الاقحوان. لهم عيون سادرة وبهية. من افواههم تنطلق الالحان التي هزتنا، عميقاً: (سنرجع يوماً إلى حيِّنا..)؟ حتى ان بكراً قال، فجأة، وله هيئة لا تُفَسّر:

– انظر. انظر الناس يا عمر؟

وكالمسحور لحق بالحانهم المتباعدة عثمان، وهو ُيتمتٍمُ، مبدلاً كلماتهم:

سنرجع يوما الى غَيِّنا   ونغرق في تافهات المُنى

استغل الفرصة علي، وقد سمع كل شيء، فقال محتجاً، وكأن ذنب عثمان لا يُغتفر:

– الغناء ليس تصويتاً، ولا شغباً، انه رؤية ومنظور. وهو من هذا المنطلق، اضاف، تصوّر للعالم، لا تهكم عليه.

استدار عثمان الى الجهة الاخرى مستاء. استدار ليكبح جماح نفسه التي اخذت تلتهب، وهو يردد بحقد: النقد. دائماً، النقد؟ وفعلا كنت اراه يجاهد ليستعيد سيطرته على نفسه التي كانت تتسرب كالماء من شقوق جسده الذي هاج.

التمعت عينا عمر، فجأة؟ أتراه استحسن اختطاف عثمان لكلمات الاغنية؟ أم

تراه كان يتعجب من تهوّر َعلِيّ وندائه؟ أنّى لي ان ادرك ما كان يدور في خواطره المبحرة بعيدا، آنذاك؟

ولكن لِمَ بدا على بكر نوع من الشموخ المفاجيء، وكأنه عثر على لُقْية كان يبحث عنها منذ سنين؟ ما الذي حرك سكونه العميق؟ ولِمَ صار يتنفس، هكذا، وكأنه يريد أن يَشْفُط هواء دمشق، كله، ذلك النهار؟

كنت افكر في هذا، وفي غيره، دون ان املك جواباً علي الاسئلة الغبية التي كانت تعذبني، عندما خطر لي، فجأة: ان اجمل الاسئلة هي التي لا نملك اجوبة عليها؟ لماذ أتعذب محتاراً، إذن؟

وقبل ان أتعمَّق بما فكرت فيه، إنتحى َعلِيّ جانباً، وكأنه يريد ان يحدثني وحدي. وبصوت لا اكاد اسمعه، قال: «اعرف ان ما يجمعهم هو حب السلطة والمال. إلا انني سأكون الشوكة التي ستدمي حلوقهم. ولن أدع أحدا، لا عامة ولا خاصة، يقع ضحية تخطيطاتهم الخبيثة». وأكّد لي ما حسبته ظنّاً عندما أشهدني: «اِشهَدْ على ما اقول».

وشهدت على ما لم اسمع.

[٢]

تأخرتُ عنهم، قصداً، ونحن سيارى. ذلك اليوم، خطر لي، فجأة، خاطر لم يخطر لي من قبل: اريد أن أراهم خَلْفاً، علني أرى من دُبُر ما لم استطع رؤيته من قُبُل. كان نوع من البهاء المترافق مع هيبة مستترة، يحيط بهم اينما َحلّوا. لكأنهم يحمون انفسهم بهالات عصية على الفهم والادراك. ذلك النهار، قررت ان «احشر» كل ما يتعلق بهم في نفسي؟ ان احشره حتى ينبيء عن قصده وَمْلغاه، حتى «يتكلم»، إن لم يكن من الوجه، فليكن من القفا، اذن.

كنت في الحقيقة امام واحد من خيارين: إما أن اخسرهم نهائياً، أو أن اربحهم من جديد. وكنت ادرك انني بدون« رؤية نقدية «لهم، على حد قول «ابن الوراق» العَليم، لن «اربح» شيئا. أيكون الإنْس الكبير الذي صرتُ أحسُّهُ بالقرب

منهم هو الذي أوحى لي بنزوة «الربح» السخيفة، هذه؟ النزوة التي استقرت في اعماقي حتى لم يعد الاستغناء عنها ممكناً.

كانت «الضرورة» تقتضي أن أتقدم في بحثي عنهم وفيهم، أو أن اترك هذا المسلك الجاحد معهم نهائيا.

والضرورة، كما قال «ابن الوراق»، ذات يوم، «كلمة صُغرى الاّ انها تحمل معاني كبرى». معانٍ لم يفصح عنها، آنذاك، برغم انه اضاف: «فمن لا يعرف كيف يرتب ضرورات حياته، لا يعرف، بالتأكيد، كيف يعيش».

من الَخلْف، وقع نظري اول ما وقع على َعليٍّ: ظهره ضخم. جسده محشوّ حشواً. اطرافه ممتلئة بالقوة التي لا تهادن. يتحرك وهو ساكن. ولايسكن وهو يتحرك. وركه مدوّر وعريض وكأنه جُـهِّز ليحمل اثقالا لا تراها العيون. عضلات ظهره تتراقص رَجَـفاً، رغم مشيته الهادئة المتكوِّرة على نفسها.

ووجدتني أتساءل بمرارة: لِمَ تُـلَـوِّحُه الاهتزازات الغريبة، وبسبب مَنْ؟ ولِمَ يمشي بذهول يكاد ان يصيبني بالريبة، والعنفوان؟ ولكن ما جدوى التماعاتي البليدة، هذه، التي تتكرر في رأسي منذ سنين، دون ان ادرك لها كنهاً؟

وكأنه اراد ان تفصل بينه وبينهم مسافة حقيقية، تصنّـع بِطْئاً حتى حاذاني. كنت انتظر منه مَسَرّة ما، الا انه ظل صامتاً ورتيباً. وهو ما بلبلني اكثر. وهممت ان اسأله عن موعد العشاء، مرتجلاً سؤالاً قد يجره الى الحديث. الا انني امسكت لساني عن الزَلّـة. عن زلّة بطن خاوية كادت أن تتغَلَّبَ على حكمة الصمت؟

كان بكر اكثرهم هيبة وسلاسة. كان يتمتع، بسبب ذلك، ربما، بنوع من السلطة الخفية التي كانت تتجلّى في حركته، كما كما في سكونه. سلطة تُحَسُّ ولا تُـمَسُّ. سلطة يمارسها عليهم دون ان يتذمر منها أحد منهم. وهو ما شغل فكري زمناً طويلاً، دون ان أتبيّن منه شيئاً.

كان يمشي امامهم سائداً. يقودهم قَـوْد الكبير للصغير. من الخلف، بدا جبلاً بلا وهاد، حتى انني تساءلت بحِيرة: أكنت اراه حقاً؟ ام ان الهالة المحيطة به تمنع الرؤية كما يمنعها الضباب؟ ولكن، لِـمَ لَمْ أكنْ أرى منه سوى ابتعاده المتمادي مع

انني كنت اقترب منه باستمرار؟

كنت احب ان اراه من الخلف، ايضاً، مثلما رأيت عليا قبله. الا ان ما يدركه المرء في علي وهو ينظره لَمْحاً، لا يدركه في بكر حتى وهو يتملاه بامعان.

كانت الشام تغلي في ذلك الصيف القائظ. ولم يكن اي شيء فيها قابلاً للفهم، وبخاصة، «اولئك الذين يحيطون انفسهم بسُجُف تحجب رؤيتهم، وتحمي ارواحهم المتزمتة من الاعلان. من الاعلان المبتسر عن اهوائها»، كما قال «ابن الوراق» بحق؟ ولكن، مَنْ يسمع قولاً معزولاً قيل في ضجة بلا قرار؟ مَنْ، غير من قاله؟ وهل يسمعه، هو، فعلاً، بعد ان رمى به تحت احذية العابرين؟

اترك بكراً واعود الى عثمان. لكن عمر هو الذي سيلفت انظاري في تلك اللحظة الخلفية. لِمَ خطف النظر عمر؟

ألأنه ابتسم لي قبل ان افرّ ببصري منه؟ ولكن لِمَ تراه ابتسم لي، وكنتُ جديراً بان أثير اي شيء لدى الناظر إلاّ الابتسام؟ من يستطيع ان يدرك ما يدورفي خلد عمر وقد ملأه الحضور توتراً؟

من الخلف، بدا عمر شديداً، متمرساً على السير الطويل الهادئ. كنا نعرف انه يقاوم نزعات شتى تعذبه، لكنه، كما قال علي: «يقاومها حتى لا يموت بدائها»؟ عمر لا يقول شيئا وهو يقصد العكس. وهو لا يُزيِّف اهواءه وإن كان يداريها. الناظر اليه يحبه قبل ان يكرهه. وهو امر في صالحه، بلا ريب، كما قال «ابن الوراق»، ذات يوم. ألهذا تراه ابتسم لي حتى قبل ان اراه يبتسم؟

قبل ان اعود الى عثمان، صار علي يَتَمَرْمَرُ، وكأنه رأى عقرباً تقترب منه. كان يبدو عليه، وكأنه يخترق حجباً لم أكن أغشاها. لكأنه في حضور كثيف بلا كيان؟ حضور من الناس الذين لا يرون إلا منه. وكثيراً ما كانت تلك الرؤية المبهجة تدفع به إلى اعلانات غريبة، بلا مصير. كان يتهامس، مخاطباً «آفاقه» التي لا تُرى، كاشفا لها عن همومه العظمى:

– علينا أن نتخلّص من رُهاب السلطة، ومن طَوْق المال.

كان يقول ذلك بصوت نصف واضح، وبلا سبب محدد، كما بدا لي في تلك

اللحظة الغارقة في المجهول.

كنت اريد ان اخترقهما (عمر وعلي) لاصل الى ظهر عثمان الذي كان يمشي مُغالباً ولكن بحذر شديد. يمشي هَميماً لاحقا ببكر الذي كان يبتعد بهدوء، عندما اضاف علي، من جديد:

– سيكون كل شيء افضل اذا ما تخلصنا من الضغط الذي نعانيه نحن من جرّائهما. فتصوروا ما يقاسيه بسببهما الناس؟

ولما لم يرد احد منهم عليه، تلفّتَ حوله باستياء وكأنه يبحث عن «جمهوره الضائع». جمهور يريده ان يتجاوب معه ويرعاه، لا أن يظل محايداً، وبليداً. محايد حتى في غيابه!

وكأن ذلك آلمه كثيراً، قال بصوت واضح، هذه المرة، وهو ينظر الأفق النائي بعينيه (دون ان ارى سبباً مباشراً يدفعه الى قوله، آنذاك):

– احسب أن صاحب السلطة طاغية، ومالك المال ايضا؟

واضاف، وهو يخاطب ذلك «الجمهور» الذي صار يثير حنقه، لانه جمهور بلا حضور:

– ان كنتم لا تستطيعون ان تقاوموا وضعاً محدوداً كهذا، كيف تراكم ستقاومون السلطة الجامعة المانعة؟ سلطة الحكم الغاشم والمال؟ كيف تراكم تطمحون الى المساواة، الى المساواة مع العالم؟

وكأن عمراً مَلّ سماع ذلك منه، قال بحزم:

– اسمع يا علي، لا تتحقق المساواة بمجرد الرغبة فيها، وبخاصة عندما تكون رغبة فكرية بحتة.

وأكّد وهو يضيف:

– المساواة فعل يومي، فرداً وجماعة. فعل يتكامل ويتراكم حتى يصبح قوة مادية لا تغلب.

وكأنه اراد ان يردع عليا عن القيام بفعل ناب (هو على علم به او يكاد) تابع بهدوء وبودّ حرص على اظهاره:

- المساواة لا تعني التخلّص من الآخر، ولا الخلاص منه، لمجرد اعتقادنا انه لا يصلح لها. لا يصلح لها مثلنا (أكّد) وأكمل بشجاعة: انت لا زلت في طور الناقم. الناقم الذي لا يتورع عن اعلان حماسته العدائية لكل شيء لا يرضى عنه، حتى ولو أضرَّ ذلك به وباهله.

ولم يتردد علي، اذ قال، محتدّاً:

- اذا كانت المساواة لن تتحقق بدون هذه النقمة، فليكن. واضاف بيأس: إن كان من الممكن لها أن تتحقق، ذات يوم.

[٣]

فجأة، تركنا عمر وطار. لكأنه برَدِّه المختصر علىَ علِي أزاح عن نفسه حمْلاً ثقيلاً، فصار أخفّ وزناً، وأرحب. كان يسرع الخطو والبصر. لكأنه غدا كتلة من نار. كتلة من لهب ابيض لا تحرق وانما تغشي الابصار. عمر؟ لم أره، ابداً، في حالة مثل هذه من قبل. ومع ذلك، كدت افهم السر، رأسا؟ «وهل تخفى الاشواق المكظومة الوجد من امد»؟ قال عثمان متمتماً. واضاف: «نحن نعرف انه يخطط لهذا اللقاء منذ شهور، كيف يفوِّته الآن وقد كاد ان يحصل»؟

كان عثمان يتكلم وهو ينظر الى «الكتلة» البشرية الواقفة باللصق منا. امرأة في مقتبل العمر وهي عَنود. لكأنه كان يشرح رغبته الخفية، هو، لا رغبة عمر الذي لم نعد نراه. كنت المح شرراً حارقاً يغادر انظاره الى «هناك»، الى حيث ينتصب هيكلها الَجسيم، الطافح بالمتعة.

واذْ كنتُ لم اعجب لإحساسات عثمان التي لم يكن ليتورع عن بثّها من حوله، فانني عجبت، كثيراً، لطيران عمر المفاجيء. عمر الصامت والـَركود.

ولست ادري لِمَ اعادني ذلك الى ايام خَلَتْ في «المعرض»، «معرض دمشق الدولي» الذي كنا ننتظره عاما بعد عام. ننتظره بفارغ الصبر. فمن ليس له احد يتحسسه، يستطيع ان يتحسس اجساد الآخرين. يتحسسها باللمس، او بالنظر، وهو اضعف التحسسات؟ كما يقول «ابن الوراق»، هازئاً من اهل التزمّت والكبت.

فقد كان التوق الى جسد الآخر، بالنسبة له، امراً أساسياً لا يجوز التغاضي عنه، ولا التهاون في اشباعه، «والا أدّى ذلك الى كوارث إنسانية بحجم الارض التي تكبحه» كما كان يؤكد باستمرار.

كان اقرب اعوام المعرض الينا العام الفائت فيه، حيث كنا نقف الوقفة نفسها، تقريباً. وعثمان يحض، كعادته، علياً، حاضاً نفسه في الحقيقة:

- الناس محظوظون هذا اليوم، ياعلي؟ لماذا؟ سأل عثمان نفسه، واجاب، وهو ينظر التي كانت تقف بالقرب منا: لأن أي أحد في هذه الجمهرة يستطيع ان يلمس من يريد وفي اي مكان شاء؟ واضاف وهو يتفرّس، خلسة، فيها: أوليس ذلك مدعاة للسرور؟

نظر علي اليه مستاء، دون ان يقول شيئا. ومنه صار يتطلّع الى بكر الذي كان يتسامر مع الذين أحاطوا به، على مبعَدة منا. بدا عثمان وكأنه يريد ان يستغل تلك الخلوة المفاجئة، لغياب بكر وعمر، الى اقصى حد ممكن، فتوجه بحديثه المغرض الى علي، من جديد:

- انظر؟ انظر هذه الواقفة قربك كفرس عَطوف تنتظر حصاناً يُشَبّيها، مَنْ يتقرب منها لن يُنهَر.

صرتُ ارى احتراقات علي تنتشر حوله كالرذاذ. تكاد ان تصيبني، وأنا أتساءل، كالعادة: أتراه يتهدد ام يتبدد؟ كان يَتَلوّى وكأنه يصفّي نفسه من رغبات خفية لم اتعرف عليها، من قبل. وكنت أتحرّق شبقاً. ولكن، ما جدى ان اتعذب انا الآخر لمجرد التصور الحسي البائس. تصوّر جسدي اليابس ملتصقا بجسد آخر. جسد عذب وطري. كاد ان يغشى علي وانا اتابع المشهد متخيّلاً كل شيء. كل شيء مما لن يحدث.

بدأ علي يتميّز غيظا. يكاد ان ينفجر في وجه عثمان الذي تجاوز الحد، ولا بد. وكنت احسب ان عثمان يُلاعب عليا لانه يعرف تهيّبه المَرَضي من الجسد. او هكذا كنت أتصور الامر الذي لم اكن اعرف ان له ابعاداً ومستويات.

كان الجسد بالنسبة لعلي (كما سأفهم فيما بعد): «قلعة حصينة» يجب البحث

عن بابها اولا، قبل الاصطدام باسوارها المنيعة. اما العلاقة المحتملة مع كائن آخر فهي بالنسبة له عملية خصب وانتشاء. عملية متفرِّدة وعميقة تتطلب من الكائن ان يودع فيها ماهيته الانسانية كلها، لا مجرد شحن وتفريغ، كما هي الحال عند بعضهم (يقصد عثمان؟).

كان الاختلاف بينهما جوهرياً، اذن. ولم يكن الشكل الذي يتذرع به كل منهما للتعبير عن حسيته الا المظهر السطحي لخلاف شديد العمق، متعدد الابعاد، كما سأدرك من بعد.

ولكن، َمنْ يجرؤ على الاقتراب من امرأة تقف بين اصحابها، في جو دمشق المحموم، آنذاك؟ مَنْ يجرؤ؟ وقبل ان اعيد الجملة في رأسي مرتين، كان «وفاز باللذة الجسور» يتقدم نحوها مثل قط يتقدم نحو فأر آمن قبل ان يراه. مَنْ هو هذا الكائن الذي انشقت الارض عنه، فجأة! ولِمَ اختارها من بين نساءالارض، كلها، وفي تلك اللحظة، بالذات؟

كان يتقدم نحوها بحذر، ولكن باضطراد. لكأنه معها على موعد في ذلك المكان، وبحضور اهلها، ايضا؟ لا، ما كان ليفعل هذا لو لم يُحِطْ بعلاماتها. أولو لم تصله منها اشارة الفَتْح.

صحيح أن ثمة شيء في المرأة ينادي الرجل، ويستدعيه. يفتح له ابواب قلعتها الحصينة قبل ان تفتح هي له نفسها، كما يقول «ابن الوراق». ولكن كيف رأى هو ذلك دون ان نلمح نحن منه شيئا، ونحن بها لَصِقون؟

كان ينظر في عينيها وهو يتقرب منها باستمرار. يَلْتَفُّ حولها مثل افعى تلتف حول صيد ارادته أكيداً.

كنا نتحادث بهدوء، فصرنا نرفع اصواتنا لئلا نلفت الانظار، او لنلفتها بالاحرى، لم اعد ادري. لكن الرجل الذي بدا محتقناً بشهوة عظمى تكاد ان تنسلَّ خارجةً منه اليها، لم يكن ليهتم بمن حوله، ولا بما يحيطه به من حركة واصوات.

كان غروب الشمس، ذلك اليوم، آمناً وشهياً. ولم يكن الرجل ليعبأ بالحُذورات. كانت الرغبة في متعة جديدة تشل الاحساس بالخوف عنده، وتلهمه

حركات مبهجة ومثيرة.

ولا بد ان تقرب الرجل من المرأة التي ظلت تقف في مكانها، مستحسنة ما كان يصيبها منه (كما بدا لي) زاد طين عثمان بلّة، اذ صار يوجه الحديث الى علي بحدة اذهلتني، وهو يحتَجٌ صراحة عليه، وكأنه المسئول الاول عن الخلل في الكون:

– عجباً يا علي؟ تريد ان يتحقق كل شيء كما تريد، ان تتحقق العدالة والمساواة بين الناس (وكاد ان يضيف حتى في المتعة) دون ان ان تفعل شيئاً من اجل ذلك، اللهم الا النقد والكلام؟

وبعد ان لاحق وجه المرأة بانظاره الفاحصة وقد رأى اللذة ترتسم جليا على محياها، اضاف:

– ولَكْم يتهيّأ لي انك تجانب الحقيقة في مسعاك الغريب، هذا.

ولما كان علي، هو الآخر، مأخوذاً بما يرى (اكثر مما يسمع) لم يجب على الفور. استغل عثمان فرصة الاضطراب العابر، هذه، عنده، ليتابع كلامه متفاصحاً، وكأنه هو الذي يتلَذّذ بما كان يحدث بالقرب منه، فقال:

– المرء يحيا ليتمتع. ويتمتع ليسعد. ويسعد ليرضى. ولكن..

ولَمْ يدعه علي يكمل حديثه المغرض، هذا، اذ قال بحدة:

– المرء يتكلم ليقول ما في عقله، لا ما ينزلق على لسانه من الانفعالات. وهو إنْ تكلم فلكي يفهم هو، نفسه، ما يعذبه حقاً، قبل ان يحاول إتهام الآخرين بتنكيد حياته.

وبعد ان ملأ رئتيه من ريح المساء الدمشقي المضمّخ بالعطر تابع حديثه بكثير من الكآبة والاضطراب. تابعه بتوتر هزّني كثيراً، وهو يقول:

– والكائن العاقل يتحَكَّمُ بلسانه قبل ان يكمم افواه الناس ويتمتع بحياته، دون ان يحرِّم المتعة على الآخرين.

وكأن اِمعان ذلك الرجل التي استمر في هجومه المتسلط على المرأة التي اعطت له الآن حالها، كله، قد استحوذ على انتباه علي، سكت وهو في مركز

الكلام. سكت وهو يلتفت نحو الغروب. نحو غروب دمشق الذائب الذي اخذ يتباعَدُ، الآن، في ليلها.

وكأن السكوت العميق ولو لفترة شديدة القِصَر، كان كافياً لرَدّ فكره الشارد اليه، استعاد الحديث، من جديد، متابعاً كلامه، وكأنه لم ينقطع عنه:

– وقوة المرء تكمن في اكتشاف الدلائل. دلائل هذا العالَم الشاسع، الذي اسمه الانسان. اكتشافه، لا، التسلط عليه. وبعد فترة اخرى من الصمت، تابع، وكأنه يسترد افكاره من الريح:

– اكتشافها، وصَوْغها في انساق. انساق يحوّلها بقوة ارادته ونفاذ عقله الى نظام. الى نظام لا...

ورأيت َبهَض الرجفان يصيب هيئته وكيانه وهو يغالب الالتفات الى حيث امتدت يد الرجل من جديد. وخطر لي ان غرابة مقولاته في تلك اللحظة نابعة، ولا بد، من غرابة الوضع الذي أحاط به، على غير توقع، منه. وبصوت لا يكاد يسمع (الا مني) صار يردد: الفاسق؟ وهو يسكت، دون ان يتم حديثه.

احسسته يجاهد ليستعيد سيطرته على نفسه، وقد غدا بالفعل، غدا أصفر ومكدوداً. لكأن الجهد الذي كانت المرأة الجسيمة تعانيه من اجل السيطرة على آهاتها كان منصَبّاً عليه. وبعد ان استعاد النَفَس، أكمل حديثه، وكأنه يعتقد، حقاً، بوجود مَنْ يُصْغي اليه في تلك اللحظات الملتبسة مع الجحيم:

–... قلت الى نظام، وأؤكد الى نظام لا يضر بأحد وان انتفع به الجميع. نظام مثل هذا جدير بان يموت المرء في سبيله.

وكأنه لم يعد ينظر مَنْ حوله، ولا مَنْ يستمع اليه، أكمل، بشكل آلي تماماً (اكمل حديثه الذي بدأ يبرد، حتى غدا مثل خبز الشعير البائت):

– انت تعرف مثلي انه لا معنى لجهد الكائن إن لمْ يساعده على التطوّر والارتقاء، وإن لم يدفع بالآخرين الى مثل ذلك.

وما ان تنفس عميقاً حتى تابع تذمره من عثمان، ونقده له، وهو لم يكن، في الحقيقة، سوى: «نقده الذاتي لذاته» كما قال «ابن الوراق» عندما علم بالامر مني.

ومع انني أوضحت له، مراراً، انه كان يعاتب عثمان، لكنه أصرَّ على اعتباره للأمر، غير حافل بما كنت أنفي وأؤكد. لا، لم يكن «ابن الوراق» ليهتم بما اقول. كان يراني مثل سائح يعبر العالم الذي يعيش فيه دون ان يتفاعل وإيّاه؟ سائح لا يدرك من الاحداث الا غلالتها المثيرة للوهم. فالادراك عنده «فعل نقدي» بالخصوص. والفعل النقدي لا تملكه (كما يزعم) الا «قريحة ثورية» مثل التي يتمتع هو، نفسه، بها؟ أي جهنم.

كان كثيراً مايشرح لي (بالرغم مني) ما لم اكن لأهتم، لا بحقيقته، ولا بجدواه. لكنه، ذلك اليوم، وجد الطريق الى قلبي سالكاً فصار يؤكد لي بأن «اعتراض عثمان على عَلِيّ، مثل اعتراض علي على عثمان» بلاأدنى قيمة تاريخية. لأن كلا الاعتراضين، أضاف موضِّحاً، وحيد البُعْد والاتجاه.

ولانهما، ايضاً، بلا رؤية نقدية مفارقة للوضع. انهما يتطابقان مع الواقع دون ان يقوما بنقده، او برفضه، وهو اضعف المسالك.

وعندما عبرت له عن ارتباكي العميق، حيال ما قال، دون أن ادرك منه شيئاً، أجاب بوقاحة: وأي فرق؟

«أي فرق؟» صرتُ أتمتم مستاء، نائياً بقلبي عنه، دون ان يتوقف عن شرح مقولاته البائسة، وصَبِّها في اسماعي التي أنهكها الإنصات؟

ذلك اليوم، لم يكن بامكان عثمان ان يسمع شيئا مما قال علي (وهل كان بامكان علي ان يقوله؟). كان التحام يد الرجل بأوراك المرأة التي انفرجت كثيرا، في اول ذلك الليل الدمشقي الجميل، هو الذي يستولي على روحه الهائمة. كان يتابع اصابع الرجل وهي تتخلل الشق الذي غدا الآن أشهب ومبتَلاً. كان الارتجاف القاهر يركبه. من اطرافه تصعدالتموّجات الشريرة الى بطنه. ومنها تتفرق نحو انحائه الاخرى. حتى انني خفت عليه من السقطة والاغماء.

من كان يحكي، ومن يسمع، في صخب المعرض المتزايد، ذلك المساء؟ ومن انا لاعرف ما يدور في الصُدور، وقد تحولتُ، أنا الآخر، الى عيون. الى عيون لا تَرى وان كانت مفعمة بالنور. عيون أُلاحق بها الوجه. وجه المرأة الممتلىء بالخدر

والغيب. ابحث فيه عن العلامات. عن علامات الجسد الدمشقي وقد امتلأ بالشغف والتوق.

مأخوذاً، مثلهما، كنتُ أُتابع ارتسامات الشهوة الآسرة على وجه المرأة التي صارت تمنح، الآن، حالها بحُرَيْكات شديدة المتعة والإغراء. وصار الرجل، هو الآخر، ملتهباً، وبَهيجاً. لكأنه يُلامس نسوة عدداً؟ ووجدتني أُردد صامتاً قول «ابن الوراق» الحصيف: «لا شيء يجعل الكائن متعدداً وممتعاً، مثل الرغبة فيه»؟

[٤]

نوع من الهُزاز الغريب ركبني، ذلك المساء. هُزاز لا يُقهَر. كنت أحسني راكباً فرساً من ريش. ريش تبعده الريح وتدنيه. كانت اسناني تصطكُّ بقوة مثل اسنان جبان يواجه الموت لاول مرة. ورأيت عثمان يبتسم هازئاً وكأنه على علم باهتزازاتي العنيفة. وكان علي هو الذي اخبرني فيما بعد بان عثمان يعرفُ كل شيء عني (وعنهم). يعرف، حتى قبل ان اعرف انا، موعد اهتزازاتي التي لا تحتمل.

كانت النوبة، ذلك اليوم، اعنف ما عرفتُ من نوبات الهَزَز والرَعيش. حتى ان المرأة المقابلة لي، صديقة «المرأة المليئة الفخذين» أحست باضطرابي فغمزتني. غمزتني خشية ان يعكر اهتزازي الهيستيري كل شيء. وبالفعل توقف اهتزازي، فورا، وكأنه تلقى منها امرا حاسما بالتوقف.

ولا بد أنها أحستْ «بنهاية» صاحبتها تقترب، فارتجلت نكتة سخيفة، وصارت تقهقه. تقهقه وهي تهزُّ اكتاف الرجل الملاصق لها. َهزَّتْه. وَهزَّها. واهتزّ الرجل الآخر، صاحب المرأة الملموسة. والرجل اللابِد في الظل. وعثمان ايضا. وَعلَتْ، فجأة، جلجلة صوت المرأة الملموسة بعد ان كان الصمت يلفها طيلة الوقت.

كان صوتها يرتجف وهي تشهق مقهقهة. كانت تبكي، مع انها كانت تتصنع الضحك.

وكأن تلك الضحكة المكسورة الممتلئة بلذة لا تُخْفى، أطلقت لسان عثمان

بعد ان اصيب بخرس مؤقت، سمعته يقول:

– هكذا ترى ان مشروع المتعة ومشروع الحياة لايتطابقان، وان كانا قد يتطابقان، احياناً.

وكأن كلامه كان دعوة لعلي ليتكلم، بعد ان صمت، هو الآخر، منذ وقت طويل.

قال بنوع من التحدي الذي بدا لي، آنذاك، في غير محله:

– ومَن يُفرِّق بينهما غير الذين يتحكمون بأحوال الناس ويديرون شئونهم؟ أوَليسوا هم الذين يُسمِّمون الحياة بتحريم التمتّع بها؟؟

ورأيته يستدير بعيداً عنه، وكأنه يستجمع شتات افكاره، قبل ان يضيف بيأس:

– ولكن متى يفهم الخلق ذلك؟

ونَطَّ عثمان وكأنه قُرِص، بغتة، وهو يتساءل:

– ماذا تريد ان تقول ياعلي؟ واي شيء تتمنى ان يفهمه الخلق؟ ألم يفهموا كل شيء، بعد؟

الا ان عليا قال بهدوء اكثر:

– أتمنى ان يفهموا ان مُتَع الحياة الأساسية حق لهم. وان عليهم ان يتقاسموها، ولو عنوة، مع مَنْ يحتكرونها.

وكأنه صار يتحدث مع «الرجل الذي لم أكن اراه»، اضاف مبتئسا:

– مَللْتُ رؤية مَنْ يتمتعون بالحياة، ومنْ بها يشقون. وأكمل متأسِّفاً: لكأن الحياة لا تحتمل العدل، عجباً؟

ومن جديد، نَطَّ عثمان، قائلاً، وكأن احداً هدده في حياته:

– هذه امنية بعيدة التحقق ياعلي. انت تعرف مثلي ان تلك هي سنة الحياة. وَلَنْ تستطيع لسنة الحياة تبديلاً؟

وكأنه اراد ان يقطع الطريق نهائيا امام ذلك الجدل «العقيم»، حسب رأيه، اضاف وهو يتطلع في عيني علي اللتين غامتا، فجأة:

– أم تريدني ان اذكرك بالعهد القريب منك ومنا؟ بعهدنا المشترك العتيد، يوم

كنا...؟

لكن عليا لم يؤخذ بمقاله ولا بحدته، فقال، وكأنه يتَمَلَّصُ من ذلك العهد المشترك بينهم:

- كنا.

- ولا زلنا.

رد عثمان فوراً. رد بحدة وحزم. لكأن وصول عمر المباغت قد شَدّ في عضده. لكن عليا لم يستسلم ولم يهادن، اذ قال بحدة مماثلة، متجاهلاً وصول عمر:

- انت تعرف اننا لا يمكن ان نبرر الحاضر بالماضي. ولا ان نحمي الماضي من نقد الحاضر. وبعد ان ملأ رئتيه هواء، أضاف: الكائن يخطيء ليصوِّب اخطاءه، لا ليجعل منها مُسوِّغا لاخطاء اخرى قد تسوّل له نفسه الخبيثة ارتكابها من جديد.

قال ذلك، وهو يَحوص في مكانه مثل أسد أسير.

كان يريد ان يقعد ولا يقدر. كنت احس ان الفضاء الرحب، حولنا، لم يعد قادرا على استيعاب خطواته السرية المتلاحقة، ولا على حقنه بالسكينة. كيف له ان يركب الريح ويطير؟ صرت أتساءل وانا اكاد اجثم على القاع.

يومها، رأيت بعيني ما معنى ان يغضب الكائن. ما معنى ان يستنفر حواسه، كلها، لمواجهة عاصفة مجهولة تريد ان تلقي به في الحضيض: في حضيض ذاته اللامتناهية الابعاد.

لكن عثمان «الحاقد»، او الذي بدا لي كذلك، آنذاك، لم يستسلم، هو الآخر. وكيف له ان يفعل وها هو ذا يرى عليا يكاد ان يتفجر من الغيظ؟ فقال بلا مبالاة:

- احسب ان لغضبك العاصف، هذا، سببا آخر، ياعلي.

وكأن عليا أُصيب بصمم مباغت، رأيته يستدير عنه بعيداً، وهو يَزُمُّ شفتيه، ساحبا هواء الغروب المنحدر من قمم الجبال الغربية المحيطة بدمشق. وكان اقربها الينا قمة قاسيون. قمة جعلها دَماس الغروب الدمشقي الصافي، ذلك المساء، تُلامِس السماء.

[٥]

أحس وعف ان عليه أن يفصل بين النقيضين، كما كان يسميهما، فقال بهدوء:

– وحدها، الحياة قادرة على تخليص الأنفس من الأهواء.

– كنت احسب ان ما آمنا به، وما نعمل من اجله، يكفي، وحده، لتغييرنا ولتغيير العالم من حولنا. قال علي وبه دهشة.

– لا، يا علي؟ قال عمر بهدوء. وأضاف: إن لمْ يكن العكس هو الصحيح.

– ماذا تقصد يا عمر؟ رد علي بحدة.

– اقصد ان علينا نحن، نحن الاحياء، ان نغيّر لا مابأنفسنا، فحسب، وانما ما آمنا به، وما نعمل من اجله، ايضا. ان نغيره باستمرار، وكلما دعت الحاجة الى ذلك.

وكأن كلماتهم فتحت شهيتي للكلام، احسست، فجأة، انني اريد ان اقول شيئاً، شيئاً عَلَيَّ أن أقوله. وبي رغبة عظمى لقوله. وصرتُ أُحَمِّسُ نفسي: «على الكائن الذي هو انت أن يقول هذا. أن يقوله الآن. وفي هذا المكان. أو أن يصمت الى الأبد». ومع ذلك، صَمَتُّ؟ صمَتُّ والكلمات تتطارد في نفسي مثل جرابيع «الجزيرة» في أوائل الربيع؟

«أي شقاء أعظم من صمت غير مرغوب فيه؟ وما الحرية إنْ لمْ تكن هي متعة الكلام عندما يحين أوانه»؟ كما كان «ابن الوراق» يردد تحت اشجار دمشق الخَتوس.

الآن،اعرف انني كنت «ضحية» مقولة تعلمتها «ممّن؟»، منذ وقت طويل. مقولة: «اصمُتْ.. ثم اصمتْ.. ثم..» الا انني، كما ادرك الآن، تعلمت لفظانيتها، لاعقلانيتها. ولذا لمْ أقل شيئا، ذلك اليوم، ايضا. وأنّى لي ان أقوله وانا لم أكن أُفرِّق بين القول وبين البول؟

صرت ادرك انه كان على صواب عندما يكرر على مسامعي: «اذا أردت أن تعرف ما تقول، عليك أن تعرف ما يقوله الآخرون، اولاً». قبل ان يضيف: «لا تنسَ أن قوة الادراك هي طريق الكائن السالك الى قلوب الناس». لكن ذلك لم يحُلْ دون

صمتي الغبي الذي لا غاية له. كان ارتباطي بالعجز ارتباط صميمي، يكاد ان يكون عضوياً. ولم اكن لافهم من اين ورثت ذلك الخنوع، وانا كلي جوع؟ لكأن الحياة لم تعلمني إلا النقائص والأعاجيب.

وكثيرا ما كان يختصر تعاليمه الملحّة، هذه، بجملة يلقيها، آخر الليل، عَلَيَّ، قبل ان تفترق الاكوان: «اذا اردت ان يُفهَم ما تقول، فقل ما تعرف». وكانت تلك بالضبط «المشكلة» التي دمرتني. مشكلة انني لم اكن اعرف شيئاً.

وانعدام المعرفة القاتل، هذا، لم يكن «فكريا»، فحسب، وانما كان حسياً، وعاطفياً، ايضا. وهو ما حال، بالتأكيد، دون تعلقي الحميم بكائن آخر (باستثناء مَنْ؟).

كنا نجوب الشوارع ساعات وساعات، دون غاية محددة. او هكذا كان يبدو لي الامر. فلم اعد، الآن، واثقا من شيء. لقد تحول ذلك الوُثوق الأعجم الى اضطراب عميق في الذات جردها من معايير كثيرة كانت تلجأ اليها، محتمية بها.

كنت استمع اليه صامتاً في امسيات دمشق التي كانت تبدو لي شديدة القِصَر، آنذاك. امسيات التفتّح والانتظار. انتظار حياة حافلة بالمتعة والحرية، كنت احسب انها ستنهمر، ذات يوم، علَيَّ.

كان يحكي، وكنت أتابع بشغف أضواء دمشق الباهرة وهي تنعكس على وجوه النسوة واجسادهن، كاشفة رغباتهن العميقة التي انحبست طويلا في اعماقهن. أضواء تُعرّي، بلا قصد، ما خُفيَ عن العين، وتُجَمِّل القبيح منه. كنت آكل اجسادهن طيلة النهار ولا اشبع. وكان هو يظل مُرْخِيا رأسه الهَشّة نحو الارض وكأنه يبحث فيها عن بعض حطامه.

كنت كثيرا ما أتساءل، وانا اتأمله: كيف يمكن لكائن مثل هذا، ان يرى العالم بلا عينين؟ فهو، نادرا، ما يرفع رأسه لينظر حوله. ولا أكاد اذكر، رغم رفقتي الطويلة له، انني رأيت بريق عينيه، عينيه اللتين ارتبطتا بقدميه، لا برأسه مثل بقية الناس.

ذلك اليوم، لم اكن ادرك لِمَ كنت أغالِب تلك الرغبة العنيفة بالكلام، مع انني لم

أكن في موقع مَنْ يحق له أن يتكلم. فاصحاب الكلام معروفون. واهل الفصاحة كذلك. كيف راوَدتني تلك الرغبة العبثية التي عذبتني طيلة ذلك النهار، اذن؟

أتكون تأكيداته المتكررة حول نزوع الكائن الى الحرية، وأهمية هذا النزوع، هي السبب في انبجاس تلك الرغبة المحبطَة لديّ؟ أم هي تأكيداته «المغرضة» حول علَي، حيث كان يؤكد، دائما، أن عليا لا يبحث إلا عن «الاعتراف» به. وكان يضيف بايمان مذهل: «والاعتراف بالكائن، كالحب تماما، يفتح شهيته للحياة»، هي التي ملأتني بشغف الكلام الذي لا يُفَسَّر؟ أأكون اعتقدتُ، ولو للحظة، ان الكلام يمكن ان يكون وسيلتي الى اعتراف كنت افتقده، انا الآخر، بعمق؟

وعندما سألته عن سبب خذلان الكائن واحباطه، عن سبب تردّيه وانقهاره، اكتفى بان قال بلا حماس: «طبيعة الشيء»؟ لم افهم ماذا كان يريد «بطبيعة الشيء»، هذه. وهممت ان اسأله التوضيح، كما من قبل، إلا إنني فضلتُ، هذه المرة، أ ن أُحاجج ولو على غير علم، فقلت بزهو كاذب: لم أكن اعرف أن للاشياء طبائع؟ ودون ان يرفع رأسه الهاطلة عن الارض التي كان يحدق فيها، قال نصف ضاحك: «يالكَ مِن حُمَقَة»!

الفصل الرابع

[١]

عندما وصلتُ كان علي صامتاً، وعلى وجهه لُبَدٌ وهموم. وبلا مبالاة لَمَّ فخذيه المليئتين ليفسح لي مكاناً بالقرب منه، وهو يشير الى النادل النحيل، طالباً لي كأس شاي، فوراً. واحتجّ عثمان:

– شاي، ونحن على أهبة المسير، ياعلي؟

وبهدوء شديد يُقارب الانقباض رد علي:

– دعه يشرب هانئاً. لا تبخس متعته، يا عثمان.

– أتعلمني مُتَع الدنيا وانت أزهد الناس فيها؟

قال عثمان حاقداً، واضاف رأساً، وكأنه يخشى ان تضيع الفكرة منه:

– أم تلك خدعة جديدة؟

كان يتكلم وهو يتشوّف الطريق، وكأنه ينتظر احداً لا يريدنا ان نراه.

ظلّ علي محافظا على هدوئه، وكأنه قرر ألاّ يعكر احد صفو نفسه، ذلك اليوم. وبعد فترة من الصمت قال بلا مغالاة:

– ومَنْ يعرف مُتَع الدنيا اكثر من الزاهدين فيها؟

قال ذلك وهو يبتعد بعينيه عنه، شاهقا نسيم الغروب المنعش. النسيم الذي كان ينحدر من أعالي الليل. ليل الجبال التي كانت تسوقه نحونا.

كانت الشام، كلها، تبتهج بلطائف ذلك النسيم الرطب المنحدر من السماء. من السماء الغربية الخاتلة خلف الجبال. نسيم نقي تُصَفِّيه الصخور العظمى واعشابها البرية الكثيفة. ومن بَعْدُ، يمر على «الفيجَة» و«بَرَدى»، قبل ان يجيءحاملاً ذراري الماء بَعْدُ وروائح الصعتر والخَرْنوب.

نسيم أدمنه أهالي دمشق، كلهم: النسوة والاطفال والرجال. كلهم، كانوا يتمازجون وهم يسيرون بهدوء آسر، متعرجين مع الطريق الضيقة المتجهة الى

الغرب، الى حيث «بيروت» الشهيّة البعيدة المنال.

يسيرون تحت صفائح الجبل العالي صَمْتَى، ناظرين برهبة الى الصخرة العظمى، وقد كتب عليها احد العشاق: «اذكريني دائما»! قبل ان يقذف بنفسه في الحضيض.

عثمان، هو الآخر، أدار رأسه باستياء. أداره وهو يتمتم بكلمات لم افهم منها شيئا، وان كنت فهمت الاساسي. إذ سمعته يؤكد: «شرب كثيرا، وأكل كثيراً، ولم يكبر»؟ مَن المقصود غيري؟

ومع ان رصاصات نقده اللاذع لم تكن تصيبني لاول مرة، الا انني احسستها، الآن، اكثر اصرارا على اختراق حصانتي المنيعة: حصانة الجوع الذي لا يعرف الارتداد: جوع المعرفة وجوع الزاد.

ووجدتني، كالعادة، أُواسي نفسي متواطئاً معها: وما يهمني منه، ومنهم، وانا القادم من اعماق الارض المليئة بالشوك والآفات؟ كانت الدافعة التي تحركني مجهولة حتى مني، وكنت، لذلك ربما، اطيعها بلا استياء؟ كيف لي، في هذه الحال، أن أتمتّع برأي، أو أن يكون لي موقف وسلوك، وانا الجاهل بمن هو انا؟ صرت اتساءل. وما هو الخضوع إنْ لمْ يكن هو هذا الفراغ الهائل الذي يشل الكائن ويلقي به في حضيض اللافعل، كما سأعرف فيما بعد؟

منذ متى وانا ألاحقهم مثل الكلب الأليف؟ صرت ألوم نفسي. ومن اجل اي شيء افعل ذلك؟ من اجل طمأنينة وهمية؟ ام من اجل مصالح صغيرة أُخرى؟ مَنْ يدري! إن كنتُ أنا نفسي لست متأكدا من شيء يخصني. يخص حياتي الداخلية بالذات.

وفجأة، قال علي، وكأنه لم يَنْسَ ما قاله عثمان قبل قليل، اولكأن بنفسه امراً اراد له ان يكون واضحاً، وبلا لَبْس:

– لِمَ يتكلم المرء إنْ لمْ يمس كلامه القلب؟

وبعد فترة من الصمت الذي سيطر، بشكل قسري، على الفضاء، تابع حديثه «الصغير» وكأنه لم يبلغ مأربه «الكبير» في التعبير عمّا كان يشغله، بعمق، فقال:

– أُعطِي الكائن نعمة الكلام ليعبِّر عمّا يملأ قلبه من امنيات، و عمّا يعتمل في نفسه من رُؤى لا خلاص له منها إلا بالتعبير عنها؟ لا لينثر كلماته في وجوه الخلق، وكأنه ينثر عليهم الازهار، وهي، في الواقع، أشواك لَواسِع؟

ظل عثمان ساكتاً دون ان يسكت، فعلا. كان يتكلم صمتاً. كانت طاقة الكلام الممتليء بالارتجاجات تسيطر عليه بشكل لا يقاوَم. لا، لم يكن، مثل غيره من الناس، بحاجة الى النطق ليتكلم. كان مَجْبولاً من الكلام.

كانت طاقة الكلام المركبة، هذه، عنده، تثير دهشتي وخوفي. لم اكن افهم كيف يحتاج المرء الى الكلام بقدر حاجتي، انا، الى الطعام. وعندما حكيت «لابن الوراق» عن هذا، ضحك بلزوجة وهو يقول: «لا ينطق الكائن إلا عن الهوى». ولما رآني مأخوذا بكلامه اكثر مما كان يتوقع، ابتسم باللزوجة، نفسها، وهو يقول: «الكلام هو الآخر طاقة. انه تصريف لطاقة مكبوتة بالاحرى. ان القمع المخيف الذي يمارسه الآخرون علينا هو الذي ينتج لَغْوَنا السخيف».

وبعد ان سكت قليلا، وكأنه ارادني ان استوعب ما قال، اضاف: «لَغْو؟ لا. كل ما يصدر عن الكائن ذو معنى. لكننا، مع الاسف، لم نتعوّد، بعد، على التقاط المعاني الكثيرة التي تُرْمى امامنا باستمرار. لماذا؟ لأن حاسة الادراك عندنا مشغولة، اريد ان اقول شُغِلَتْ، بأمور تافهة اخرى».

اردت ان اسأله عن ماهية تلك «الامور التافهة» التي تسيطر على ادراكنا، وتعطّله الى حد البلادة، الا انني خشيت عاقبة الكلام، فسكَتُّ. سكَتُّ، وانا اغالب النظر الى بكر مستطلعاً، بخفية، ما يعانيه.

لم يكن بكر في وضع يسمح له بالتعليق على ما كان يجري امامه، آنذاك. كان يبدو للناظر اليه مثل الخِرْقَة المَدْعوكَة. وكنت احسب، وربما حسبوا هم ايضا، ان السبب امرأة. ولقد اوحت لي بذلك تمتمات عثمان المستنفر، وهو يردد في خناقه: «ماذا فعلت به المرأة الفَتوك»؟

ولكن، من باستطاعته ان يتأكد؟ وكيف يمكن اختراق الهالة التي تحيط به؟ هالة تُضَخِّم التَفاوُتَ الموجود بيننا اصلاً.

ذلك اليوم، نسيتُ ظمأي العنيف، وانا أتطلّع الى بكر. كنت مأخوذا بالتبدل الذي طرأ عليه. كان يبدو، وقد انفرجت أساريره، مثل طير في نهاية طيرانه. ولاول مرة، كنت استوعب معنى المتعة، لاافهمها فقط. «فالفهم مرحلة اولية في طريق المعرفة» كما قال «ابن الوراق»، قبل ان يؤكد: «تلك هي حال الكائن الذي اشبع رغبة من رغباته، فتصوره وقد اشبع رغبات عدة». والذي اضاف، وهويضيق ذرعاً بصمتي: «لذا علينا ان نعمل كل ما نستطيع لنتخلص من الكبت والاوهام. ولن يخلصنا منهما الا ثورة حقيقية».

ولما رآني افتح عينيّ على اتساعهما، تَعَجُّبا (وهما ضَيِّقَتان)، صار يتعجّب، هو الآخر بصمت. ولما طال سكوتي، ولم أقل شيئا مما كان ينتظر قوله، ضحك ضحكته اللزجة، نفسها، فتطاير رذاذ بصاقه الثوري حولي، وهو يقول: «ما كنت أظنك قليل الفطنة الى هذا الحد»؟

وكأنه احس بأنفةٍ في نفسه، اضاف، مقرِّعاً: «احسك تتراجع بدلا من ان تتقدم رغم لُحوقكَ الطويل لهم. لكأنك بلا فاهمة. أو لكأنهم، هم، بلا منظور نقدي للحياة. منظور جدير بأن يقود كائناً تائهاً مثلك للوصول الى حيث يريد».

وكأنه اراد ان يدفع بي، ذلك النهار، الى حافة اليأس، قال بيقين مطلق: «قد تجد مَن يشرح لك الامور مهما كانت شديدة التعقيد، ذات يوم، لكنك لن تجد، ابدا، مَنْ سيفعل ما يجب عليكَ ان تفعله انت».

احسسته يواسيني، رغم التوتر البادي في صوته وعينيه. يواسيني على بلادتي وجهلي. الا انه لم يكن مواسياً، ابدا، كما ساعرف فيما بعد. كان يريدني ان اكسر القشرة وأبْزُغ. ولم يكن يدرك انني لم اكن مهيئا لذلك، آنذاك. هل سأكون؟

بذلك الاحساس الطاغي من التوتر والخفاء، عندي، اختلط احساس هائل بظمأ مفاجيء، فقلت وانا اقارب الغيبوبة: اريد ان اشرب.

وعلى الفور ملأني الندم لقول ذلك. فنادرا ما كنت اتجرّأ على اعلان رغبة من رغباتي، او التصريح بحاجة تخصني.

ماذا دهاني، إذن، في تلك اللحظة الملوّثة بالغيم؟

– كُلْ ما تريد. واشرب ما شئت.

قال بكر متعطفا، وكأنه يستجيب لطلب طفل عزيز عليه:

طَلَب مبتذل لكنه يسعد الطالب ويرضيه.

أدار علي رأسه الى الجهة الأخرى وكأنه لم يسمع مما قلت شيئا. كنت اعرف ان ذلك قد يسوؤه كثيرا. ولم اكن اقصد إساءةً اليه. لكن عثمان هو الذي احتج:

– لماذا انتظرت وصول بكر ان كنت ظمئاً الى هذا الحد؟ أكان يريد الايحاء بمقتضيات اخرى، وبخاصة لعلي؟ام تراه تألّم فعلاً لما كنت اعانيه؟ وقبل ان ادرك مما قال مُدْرَكا، اضاف بلَوْم بيّن:

– أَولسنا معك؟ ونظر خلسة الى علي، وكأنه يلومه بدلاً مني.

ولأن بكراً اراد ان يجنبني مشقة اجابة لست قادراً عليها، اصلا، قال نصف ساخر (متوجهاً بالحديث الى عثمان)، وهو مع ذلك شديد الجدية:

– إن كنت ستهتمُّ بالآخرين مثل اهتمامكَ به، فويل لرعية تصير راعيها.

اغتبط علي خفية وهو يرمش بجفونه. لكأنه لم يكن على علم برأي بكر في عثمان، الا انه كان مقتنعا بأنه سيكون كذلك. وهو، الآن، سعيد لأنه سمعه منه. صار يتهزهز في مكانه. يريد ان يمشي ولا يمشي. وللحظة احسسته يتجاوز اقانيم نفسه السرية اللاجِمَة للانفعال. حتى انه اشرف على البسمة الخبيئة، وهو يداريها.

ودون ان يتوجه بالحديث الى احد بعينه، قال بكر برقة ولكن بتعال، لكأنه اراد ان يدغدغ النظر والأحاديث، ان يذيب العكر الذي كان يلوّث الأهواء:

– الجائع يعرف طاعِمه.

وبعد ان تمعّن في المساء الدمشقي المليء بالمِلْحَة والغنج، اكمل وكأنه يخاطب الريح:

– ولذا فهو لا يطلب من الشَبِع شيَئاً، وانما ممّن يعتقد انه سيقاسمه بعض ما يملك حتى ولو كان قليلاً.

- سمعت يا عمر؟

قال عثمانُ محاججاً بالتباس، قبل ان يتوقع اي منا سؤاله المباغت، هذا. ولقد بدا بقوله ذلك وكأنه غير متأكد من الامر مع انه موافق عليه. وهو ما كاد ان يسيء بكراً في ذلك المساء الممتليء بالأحابيل.

لكن بكراً لم يهتم بماقال، ولا بما كان يريد ان يُفهَم من قوله. كان يبدو عليه وكأنه يتأهب لكي يقول شيئاً آخر أهمّ بكثير. وكان عمر هو الذي قال بتَرَوّ وحكمة (دون ان افهم منْ هو المعني بذلك):

- المرء هو فعله. ومَنْ يتهاون في فعله يحكم على حياته بالعدم.

ولست ادري لِمَ ذكّرني قوله، هذا، «بابن الوراق»، الذي كان يكرر على مسامعي اقوالا مشابهة ونحن نتسكع في الصالحية، وحواشيها، مساء بعد مساء. كنت استمع إليه َمبْهوتاً وانا اتنفس روائح الياسمين. ياسمين الشرفات الدمشقية الغاطسة في الورد.

كان يجرني بهدوء اليها، الى تلك الامكنة المتفرعة من «شارعنا» الجميل. كان يكفي ان نبتعد امتارا عنه لندخل احياء لم ندخلها من قبل.

كان يحكي. وكنت اخطف الزهور البيض. اقوم بدَعْكِها وتكسيرها. أحس هشاشة الورد ونعومته. امسح وجهي بمائه الذي أُريق على اصابعي. كنت اراه يتابع، بلا مبالاة، حركاتي الهوسية، هذه، دون ان يقول شيئا.

وكثيراً ماكنتُ اتساءل، في سري: لِمَ لا يعلّق بشيء؟ وكأنه لمْ يكن يجهل ما يدور في اعماقي، قال، ذات يوم، ونحنَ نَلِج «الرَوْضَـة»، وكنتُ غارقاً في «هوسي التدميري للورود»: «اي جدوى يمكن انتظارها من فعلٍ بائس بلا جدوى، مثل تفتيت ازهار تذوب من مجرد لمسها»؟

[٢]

فاجأنا بكر، عندما قال:

- هذا المساء، انا من يدعوكم. واضاف: ولذا جئت قبل الأوان، قبل الأوان

إليكم. وبعد ان تلَمّس وجهه وعينيه، اكمل: لا، لم استطع تَحمّل «صدمتها» وحدي. صدمة السعادة، قال بمودة، مثل اي صدمة اخرى. وتابع بتواضع كبير: انا اعرف انني لا اقول لكم شيئا جديدا، ومع ذلك، احب ان اقوله. ان اقوله لنفسي. ان اقوله لها امامكم، هذا اليوم.

واستدار حتى صار وجهه في وجه علي وهو يقول:

– السعادة تجعل الكائن طيبا ونفسه كريمة. ويل لمن لم يذقها.

واكمل وهو يتطلع صراحة في عيني عثمان:

– انت تعرف انني لا اريد اِلاّ صلاحك، وصلاح اخوتك الحاضرين. وكأنه اراد ان يعتذر عما بدر عنه، قبل قليل، قال بتودد واضح:

– لِنَنْسَ ما قلته. تعالوا نتعشَّ. انا مَنْ يدعوكم، هذه الليلة. هيّا بنا الى «السقيفة». قال ذلك، وهو يقوم على الفور، دون ان ينتظر رداً من احد منهم. لكأن انصياعهم امر مفروغ منه؟

صرتُ اهتَزُّ في كرسيي العتيق الملقى في الطرف. اهتَزّ توترا ام سروراً؟ لم اكن ادري. وللحظات، حسبتها دهورا، اغمضت عينيّ وانا اتنفس باضطراب.

صرتُ ارى، قبل ان ارى فعلاً، مَمْدودات الاكل الدمشقي تتراصف مثل بيض القطا في الحماد. تتراصف على ظهر الطاولة التي اعرفها جيداً. كنتُ المح، بوضوح، رغم الغَمَض والسواد، بياض الاشياءالتي ستمتد بأبهة قدامي.

وألاحق الايدي (وبينها يداي) تتسابق الى الصُحَيْنات البَريقَة الممتلئة بالنَيْل والاختلاط. واسمع، مغمض العينين، صوته المهيب ينادي، آمراً: صَلّحوا الصحون، يا ُعفون؟

في «السقيفة» سيطلبون (كما كنت احلم) زيتوناً وجبناً. سيشربون وسأشرب. سنأكل لحماً مشوياً، وخبزاً مُحمَّصاً ومَرْقوناً. ستُصفُّ امامنا أصحُن ويرقانات. اقداح وعلب. اصابع وتخوم. كنت وانا استحضر بعض مظاهر الاكل الدمشقي اللذيذ، احس بشبع مفاجيء. شبع رواقي يلهيني عن الجوع الذي كان يتخلل كياني المتعب والظاميء، آنذاك.

أكان لا بد من استحضار ما لا يمكن التأكد منه إلاّ في الأوهام، لا بد من استحضاره امام عيني المغمضتين لتطمئنّ نفسي؟ أي اكل اطيب من هذا وألَذّ؟ ولكن من يدري كيف ستسير الامور غير بكر، وربه؟

«كَرَمُ بكر كَرَم رَضِيّ»، كما قال، يوماً، علي. «لا يضايق المكروم ولا يتبجح عليه، مثل بعضهم»، اضاف. ومع ذلك، كان علي يرتَجُّ في مكانه وهو يحدق، يائسا، في البعيد. لكأن دعوة بكر لنا كانت تحدياً موجهاً إليه؟ لكأن «القضية» التي تشغل باله يجب ان تشغل العالمين اجمع؟ و«القضايا»، كلها، كما قال «ابن الوراق» مبنية على التواطؤ والاحتقار. احتقار الكائن والتواطؤ ضد التاريخ.

وكمن يفيق من اغماءة طويلة الامد، فتحت عيني بحذر وانا انظر حولي بذهول. كان كل شيء كما هو. ابتسامة علي الشاحبة ترتسم بخجل على شفتيه. و«مقهى الاصدقاء» في مكانه. والنهر المغطى بالزفت والاحجار لا زال مغطى. وفندق «سميرأميس» لم يبرح الضفة المقابلة للمقهى. وسينما «دنيا» مليئة بالانوار، تزين واجهتها العريضة اعلانات ملونةلافلام بكائية تستدرّ الدموع ممّن يذرفونها بلا نذر. وكلب «صوت سيده» الضاوي امام اسطوانته الازلية ينظر، حذراً، في النهر الذي كان جاريا ذات يوم. ينظر الى حيث الماء المفترضة، ولا يرى سوى الغبار. وشفتا عثمان تتلمظان باقوال سرية، اراها ولا اسمع منها شيئا. وحولنا يتقاطع الناس ذاهبين، آيبين، بلا توقف. عجباً؟ لكأنني لم اغمض لحظة عيني؟

لم اكن اصدق (احلم بالاحرى) ان بكرا هو الذي سيتولى امر إطعامنا، هذه المرة، ايضاً. سئمتُ قشور البصل المحروق. ونتف الباذنجان المقلي. ودوائر الكوسا المليئة بالَبَخر والزيت. كنت احلم، ذلك المساء، بأكل «صميمي» كما تقول «سلوى» (ومن هي هذه السلوى؟ سألني ابن الوراق، محتَدّاً. فسكَتُّ). كنت افكر مُتَلمِّظاً: من له القدرة على توفير ما نشتهي غير بكر عندما يكون سعيدا؟

كان بكر اكثرهم غنى. وأكملهم هيبة ولُزوما، مع انه لم يكن يملك اكثر مما يملكون إلا قليلا. كان يتمتّع باستعداد فطري لإنفاق ما يملك وهو سعيد. و تلك اول خصلة من خصال الكريم كما قال «ابن الوراق»، عندما حكيت له عنهم.

والذي اضاف، بعد ان نظر الارض بين قدميه، وكأنه يبحث فيها عن افكار جديدة (اضاف شارحاً لي ما َحسب أنه خافٍ عني): «الكَرم ليس ان تجود بما تملك، فحسب، وانما هو ان تشرك الآخرين في سعادتك. والمال سعادة. وأن تحميهم من غلظتك. والحرص غلْظة».

كنت استمع اليه، آنذاك، متهاوِنا، لانني لم اكن أتصور أنني سأكون معنياً بما كان يقول، ذات يوم. وكيف يخطر لي أن أكون، وانا لم اكن املك شيئا، حتى ولا نفسي. لا، لم أكن أدرك، يومها (هل ادركت الآن؟) أن الكائن الكريم يمكن ان يكون كريماً بلا مال. وعندما كان يردد على مسامعي، باصرار: «ان الكَرم طبيعة وليس مبيعَة». كنت اضحك بخبث. ومثل الخبثاء، جميعا، كنت احسب ان «ما لا يعنيني الآن»، لن يعنيني ابدا. وهو ما دَمَّرَ حياتي فيما بعد.

[٣]

من الطريق الملتوي الذي كان بكر يسحبنا عليه عرفنا اننا نتجه الى السقيفة المفضلة عنده: سقيفة «ابو معروف». وكيف يفوتنا وقع خطاه المتمهلة وهي تدق الارض باعتزاز. ُخطى شائقٍ وقد قارب الوصول الى ارض الأحبّة.

لا، لم تكن تلك هي المرة الاولى التي سأشاركهم فيها طعامهم وشرابهم. ولن تكون الاخيرة، ايضا. رباط خفي كان يربطني بهم حتى «اشعار آخر». رباط من اربطة الحب المكبوت الذي يتجلّى شغفاً في فضاء من الفاقة والخوف. فضاء من الانسحاق الروحي الذي لا منفذ منه. لا منفذ فيه.

كانت موجة الجوع التي اغرقتني، ذلك المساء، في بحر السَغَب الميت، هي التي جعلتني أرى، في قرارة نفسي الغافلة، ما أريد؟ صرت اعرف ذلك الآن. اعرفه جيدا عندما تزدوج المرئيات في عيني، واحسني بحاجة الى سَنَد. ولم يكن ثمة احد استند اليه، آنذاك، غير اوهامي. غير اوهامي التي بلا قرار.

وفجأة، َلمس علي زندي، وهو يقول باستياء:

– انظر. أترى كيف صار عثمان يَتَنَشْنَش؟ أحسّه يتفَجّر رَغداً؟ لكأن بكرا

وهبه حياة جديدة، مع انه سيأكل. سيأكل لا اكثر ولا اقل؟

وبعد ان تطلّع حوله بامعان، اضاف: لم أكن أتصور ان الطعام يسعد بعضهم الى هذا الحد، الى حد التملّق والمثول.

احسسته يصيبني، يومها، قبل ان يصيب عثمان. انا الجائع اللاصق بالارض والحثالات. انا وحدي اعرف قيمة ما اظهر احتقاره له. اعرف متعته، كذلك. لكن الامر لم يكن يستدعي الجدل، آنذاك، لِمَ أماحِك، إذن؟

وقبل ان اقول شيئاً (وهل كان بامكاني ان اقول؟)، رأيته يَتَقَلَّب في مكانه وكأنه كشفَ عَلَيَّ سرا، قبل الأوان. قبل أوان كشفه. و«هل للكشف من سبب أو أوان؟» كما يقول ابن الوراق. ما كان علي الا أن اسكت، اذن. ان اسكت كالأصم الذي لا تقاربه الكلمات.

لكنني فعلتُ العكس، تماما، ذلك اليوم. فعلته منذ ان قررت، بلا سبب منطقي، ان اخاطر. ان اقوم بمغامرة حياتي الكبرى ٠ فقلت متسائلا برقة وحيْرة: لِمَ تقف الموقف، هذا، منه؟ سألتُه، وسكتُّ. لكأ ن السؤال جرح بلا مغفرة؟ لكأنه، وحده، يكفي لأشاعة الطمأنينة في النفوس.

ولا بد ان التواطؤ القديم بيننا فيما يتعلق «به»، قد أمَدّني ببعض الدالّة عليه. وشجعني على ان اخاطر بسؤالي عما لا يعنيني. او هكذا كنت اعتبر الامر. وبعد فترة من الصمت، قال: «لانه يقول ما لايفعل. ويفعل ما لا يؤمن به. اي شرّ اكبر من ذلك»؟

وبعد ان تنفس بعمق، وهو يُلاحِق الأضواء القصية في آخر الزقاق الضيق، الذي كنا نتأهب لولوجه، اضاف: «ولأنه يتمتع، بشكل فطري، «بحسن النية الكاذب» وهو امر خطير.

قال ذلك وهو يترَحْرَح في نُعوشة المساء الدمشقي، وكأنه تخلّص من بعض أوزاره. واحسسته، وهو يحكي، يرمق ظهورهم، بتدقيق، قبل ان تختفي في عتمة الزقاق.

وبلا تمهيد تابع تخوّفاته السرية التي كانت تنغّص عليه حياته (وحياتي)،

قائلاً: «وَلَكِمْ اخشى ان يصل الى ما يخطط للوصول اليه منذ سنين». لم يكن ينظر الي. كان يتكلم وهو ينظر العتمة الدمشقية الآسرة، ذلك اليوم. لكأنه، كالعادة، كان يحاور احداً لا اراه.

وفجأة، صار يتمهّل في سيره. لكأنه يريد ان يبتعد الآخرون عنا. ان يبتعدوا الى اقصى ما يمكن للكائن ان يبتعد حيّاً؟ وعندما اطمأن الى الفضاء المحيط به، صار يتمتم من جديد وكأنه يتابع الاجابة (التي كدت انساها) على سؤالي: «له عينان لكنه لا يرى بهما الا الطريق التي تقوده الى غايته. وله اذنان لكنه لا يسمع بهما الا مدحاً له، او ذماً لاصدقائه.وله قلب لا يسعده الا قلب الامور لصالحه».

وبعد ان لاَعبَ الهواء المسائي المنعش بخشمه الواجف الكبير، قال بهمْس أكثر خُفوتاً: «لست ادري كيف قَبِله صاحبنا وهو، على ظني، رجل حصيف»! وبعد دقّة من الوقت اضاف بمقت: «اعرف ان لذلك اسبابا وتعاليل لكنني لا اريد ان أُبرر، لا اريد أن أُخطيء حتى وانا أصيب».

ولانه لم يكن ينتظر مني ردّاً على تشعّبات فكره وجيوش هواجسه، صار يدمدم لُحَيْناً كان يحبه كثيراً.

وتابعت انا سيري البطيء الهاديء لصقه دون ان اضيره في شيء. لكأنني كائن خيالي. كائن بلا وجود.

ذلك المساء، كان يتملّى وجوه العابرين، بمحبة ترتسم بلا مشقة على محياه. لكأنه يرد عليهم سلاما بهيا لا يكفون عن ارساله سرا اليه. كان الناس يتزاحمون،حولنا، فعلاً، ذلك اليوم. يتزاحمون مبتهجين، او يكادون. وكنت افكر مبتئسا: لِمَ يبتهج الناس وهم في اكثرحالاتهم سوءاً؟ ولِمَ لا يفعلون ذلك وقد بلغوا الدرك الاقصى من الاكتئاب؟ كان الجواب يرقى عفواً الى لساني. الى لساني المربوط بحبال لا مرئية، وان كانت محسوسة بغيظ.

انتشلني من تشتتي المباغت، هذا، صوت علي، نفسه. صوته الذي لم يكن شاحبا هذه المرة. صوت بدا لي مفعما بطاقة لم اعهدها فيه من قبل. كان يحوم بين الناس المتكاثرين حولنا وهو يتطَعَّم بالقول: «هؤلاء وحدهم، يشير الى

الجموع التي كانت تملأ الفضاء الدمشقي الصاخب، آنذاك، يستحقون الاعتبار».

ذلك المساء، خطر لي، لاول مرة، انه يخطط لامر كنت اجهله. اجهل كل شيء فيه. كنت ارى عنده، وبوضوح، هذه المرة، بوادر استجابة خفية لتطلعات الناس اليه. استجابة كنت احسبه زاهدا فيها. وها هو ذا يثبت لي العكس. يكشف لي، ولنفسه، ربما، بعض خصائصه المجهولة. خصائصه المجبولة من ظمأ ومن يقين.

وعندما حكيت بعض ما سمعته منه، ذلك النهار، «لابن الوراق» (وقد لفت انتباهي أثر العتمة المثير عليه) قال شبه ضاحك: «مأساة علي تكمن في أنه لم يستطع، بعد، تجاوز مشاعر الفشل. الفشل المفروض عليه بقوة الآخرين».

وبعد ان اطمأن الى اصغائي الكامل اليه، اضاف: «وهو امر لا يمكن تجاوزه، بله الخلاص منه، الا بطاقة تحليلية عظمى. طاقة نقدية بلا عوائق ولا مقدسات». وكأنه اراد ان يخنق بصيص الامل الكامن في كلماته المخيفة، أكّد بلا تردد: «وعلي، كما اظن، ليس اهلاً لذلك ».

ولما رأى الارتباك الغامر في وجهي الذي شحب كثيرا بفعل الجوع المتراكم منذ ساعات (وقد حسبه بتأثير كلماته) قال، بتبجح وهو يتابع العابرين، وبخاصة صبْية الشام المتمايلين دلالاً: «ولكن، كيف، كيف يمكن له ان يفكّ قيود ذاته وقد قيّدها بيديه»؟ ولم اجد امامي سوى الصمت، كما يقولون.

لم يكن صمتي ناجماً عن جهل لما كنت اريد ان اقول، فحسب، وانما عن سخط عميق، ايضاً. سخط احسسته يملأ ذاتي الفارغة الى حد الطوفان. ومع ذلك، لم استطع ان امنع لساني من ان يغلب عقلي، وكنت احاول ان افهم المأزق الذي يعذّب علياً الى ذلك الحد، الى حد التلاكم مع الذات (كما يزعم ابن الوراق) فسمعتني اقول، قبل ان احكم لجام نفسي: القدر؟

انفجرت تلك الكلمة في فمي معزولة، وكأنها كانت مدفوعة بتأثير ضغط لا يمكن السيطرة عليه. خرجتْ مندفعة بلا مبررات او شروح. لكأن للكلمات داخل

الذات منطقاً خاصاً بها لا علاقة له بتصرفاتنا الخارجية. وسمعته يكرر وهو على حافة الاحتشاء: «القدر»؟ وبلا تردد اضاف، وكأنما كان يتوقّع ماقلتُهُ وما كان عليه ان يقوله حتى: «قدر الناس هو ارادتهم. وارادتهم تنبع من رغبتهم في تغيير احوالهم. لكن المأساة...».

المأساة؟ قاطعته مندفعاً، من جديد، إذ لم اكن ارى في الامر مأساة. وحسبت انه سيغضب لذلك الا انه استعاد محور الكلام بهدوء، وهو يقول: «...ان الناس لن يرغبوا في تغيير اوضاعهم قبل ان يستاؤوا منها. ولن يستاؤوا منها الا اذا مارسوها، الا اذا عانوا خيرها، وبخاصة شرها. لكن المأساة (مرة اخرى؟) ان اولي الامر منهم قد فهموا هذا قبلهم، وهم لذلك يتربصون بهم شرا. و بوسائلهم اللئيمة الكثيرة، يفرِّغون ذلك الاحساس النبيل عندهم قبل ان ينضج. قبل ان يصبح قوة مادية قادرة على تغييركل شيء»!

الفصل الخامس

[١]

شعر علي ان بكرا غَيّر طريقه، فقال بحدة:

- اراك عدلْتَ عن طريقنا يا بكر؟

ودون ان يتوقف عن سيره الطويل الهادىء، قال بكر:

- الى «سقيفة ابو ناصيف»، هذه المرة.

وَضجّ الربْع:

- لا. الى سقيفة «ابو معروف» كما وعدتنا.

واعادوا الكرة اكثر من مرة. الا ان بكراً لم يكن ليرضخ لمطالبهم التي بدت له صبيانية بحتة. كان يفكر في شيء،وكانوا يفكرون في غيره. اما انا، فلم اكن ادري كيف تتوالد الافكار والكلمات،وتتحول الاحاسيس الى «حاجات» لا يمكن الإنفكاك منها. ولا كيف تتحكّم بنا الأهواء بلا رأفة. ففضلت الصمت، كالعادة، وانا اتابع الاحتدامات.

كان اول الليل الدمشقي يبدو للناظر وكأنه السراب. سراب من عَتَم ولؤلؤ. سراب ذو حيثية منعشة ومثيرة. كان الرائي يكتفي باهتزاز ردف عابر ليمتلىء بالسعادة والوَجْس. بتأثير تلك الأحاسيس البهية التي كانت تنبع من الارض، طوى النسيان سريعا ذلك التغييرالمفاجيءالذي بدا، لاول وهلة، وكأنه نازلة لا تحتمل.

والذي فرضه بكر بقوة ماله. وقوة المال لا تقهر. «لا يقهرها إلاّ وعي بلا تنازلات». كما يقول «ابن الوراق».

ظلّ بكر يمشي هادئا وقصياً، ذلك اليوم. يتقرب الى المارة بفتنة وتودد. ينظر اليهم وكأنه ينثر اللآلىء فوقهم. كان مجرد عبوره، ولو بعيدا، يثير فيهم بهجة وخشوعاً.

وكان علي يردد لِصقي، وهو ينظر اليه متحفِّزاً: «أي شعور خدّاع يملأ النفس احياناً»؟ قبل ان يضيف بحذر: «اللهمَّ احمِنا من جُهُمْته وعِناده».

لاحقاً بهم، كنت اتساءل باضطراب: بِمَ يفكر بكر وهو يرى الى وجوه الباعة والجوالين، والى سِحَن التجار والمهرولين، والى من يتوخّون عطفه ورضاه؟ وأي شعور ينتابه وهو يُشخّص الحالات المريبة التي تمر بنا بلا انقطاع؟ ولِمَ كنا نلحق به كالأيتام الذين يلحقون شخصا لا يستطيعون أن يعصوا له امراً؟

كنت استعيد، وانا اراه كيف يتصرف، ويحكي، بعض اقوال «ابن الوراق» المثيرة، ومنها قوله الاخير: «سقطة الكائن تكمن في اعتقاده الراسخ بان ثمة اخطاء كثيرة في الحياة، ولكن لا يقترفها الا الآخرون»؟ «قوة الكائن، إذن، (كان يضيف مُتَبَهْوِراً) لا تكمن في تبنّيه للحقائق، فحسب، وانما في تبنّيه الواعي لاخطائه، اولاً». وكنت افكر مرعوباً، وانا استمع اليه: كيف يمكن للكائن الضعيف، مثلي، ان يحمي نفسه من الانهيارات؟

وبلا مبرر واضح، اذْ ان الامر كان محسوماً، كما كنت اتصور، قال عثمان، فجأة:

- لنقلب الصفحة، هذا المساء.

- صفحةَ مَنْ؟

نَطَّ علي قائلا باستغراب. لكأنه خرج للتوّ من نفق نفسي طويل. كان يبدو واضحاً عليه انه يجاهد ليكظم غيظه. ووجدتني افكر، عفوا: كل ما يتقنه هو كَظْمَة الغيظ، هذه. وَردَّ عثمان بهدوء، وكأنه أيقَنَ ان الامر استَتَبَّ له، اخيراً:

- صفحة «ابو معروف».

قال ذلك وهو يستدير بعيداً، وكأنما اراد ان ينتهي من ذلك الحوار المخل بالمتعة والريف.

لكن عليّا لم يستسلم، فقال بحدة، وهو يوزع انظاره المتشددة بينهم:

- هل نسيتم كيف عاملنا صاحبكم هذا في المرة الماضية؟

هل نسيتم صحونه التي كانت تأتي فارغة تقريباً. وكؤوسه التي تكاد ان تظمأ،

هي نفسها؟ عجباً لكم؟

وفجأة سكت وبه وَجْد غامض. سكت وهو يتطلع حوله بحرقة واضحة. لكأنه يبحث عن «جمهور ضائع»، كما كان «ابن الوراق» يقول. وكما سكت فجأة، قال فجأة وكأنه استدرك الامر الأساسي، للتوّ:

– وهو مع ذلك لن يهيّء لنا مكاناً مناسباً. والجلسة، كما تعلمون، بمكانها.

رأيت الاضطراب يعلو وجه عمر الذي صار يمشي ويقف بالتناوب. لكأنه اضاع سلطته على قيادة قدميه. لكن عثمان الذي لا يضطرب في مثل هذه الاحوال، هوالذي قال:

– نحن ذاهبون لنتمتّع احتفاء ببكر، لا لنحاكم امرءاً سنحلُّ ضيوفاً عليه.

وبعد ان استدار لئلا يرى وجه علي، اضاف بمكر:

– أولستَ ترى ذلك، يا عمر؟

لكن عليا لم يدع الفرصة تفوته، وقد رأى السماحة تتمدد في قسمات بكر وهو يتابع سيره الهادىء، بلا مبالاة. لكأن الامر لم يعد يعنيه، منذ ان جرنا وراءه الى حيث يريد. فقال شبه ساخط:

– إني لأعجب منكم كيف تبررون الاماكن والاشياء؟ كيف تحسبون عَوْدكم الرَتيب إليها بهجة، ونكوصكم المستمر تقدماً؟

وبعد ان تملّى أول الليل الدمشقي الذي بدأ يلبس أثوابه المضيئة، كاشفة أثلام الزقاق الضيق والعميق، اضاف، وقد أيقن ان خسارته لا مفر منها:

– تعودون، دائما، الى ما تحسبون، َوهْماً، انكم تعرفونه، وكأن الرجوع هو المصدرالوحيد للمتعة. مع ان العادة هي مصدر البلادة.

وبعد ان تنفس بسرعة، أكمل بيقين:

– فالاشياء، كالكائنات، لا يمكن الركون الى احساسنا الراكد بها. ومعرفتنا لها تظل ناقصة حتى نعرف اخرى غيرها.

وبعد ان تَلَفَّتَ باحثاً عن ظله الذي كان يظهر ويغيب حسب مرورنا بالانوار الخافتة التي كانت تُلَوِّن سواد الليل الدمشقي، قال بحزم، وكأنه قرر ان يتحرر،

اخيراً، من قيوده اللامرئية:

- والحياة لا تكتمل إلا بالتخلّي المستمر عما ألِفناه.

وكأن ما قاله علي أثار همّاً دفيناً عند بكر، رأيته يبطيء، من مشيه دون ان يتوقف عنه. ويرى الى الجهات المحيطة به، دون ان يلتفت اليها. كنت ابعد الناس عنه، وكنت احسب، لهذا السبب، انني اراه بحياد اكبر. انني اعرفه خلاف ما يعرفه الآخرون؟ ولكن، هل كنت مهيئاً لمعرفة مهما كانت ضئيلة يومذاك؟ الآن صرت اعرف ان ثمة كائنات (ومنها انا) تظل تجهل ما تجهله حتى تموت. لكن الامر، يومها، كان مختلفاً، جداً.

ولجهلي الذي كنت اجهله (أو لنقل، اجهل السمة الاساسية فيه) توقعت ان بكراً سيرد علىَ علِي، لكن المتكلم كان عمر الذي قال بهدوء، متجاهلاً اطروحات علي ونزعته التحريضية:

- انها لمتعة حقاً ان نجتمع هذا المساء، معاً، وفي هذا المكان.

ولما رأى ارتجاف شفاهَ علِي وقُدوح عينيه، اضاف متَعجّلا، وكأنه أراد ان يصوِّب خطأه لنفسه، قبل ان يُصوِّبه له الآخرون:

- والمتعة، كما تعلمون، كالحرب خدعة؟

واكمل مبتسما وكأنه ان اراد ان يبتذل الامر:

- لكنها خدعة للاصدقاء. ولا أظنكم تجهلون ذلك.

[٢]

في سقيفة «ابو ناصيف» الذي همس بكر في أُذنه بكلمات لم نسمع منها شيئا، الْتَمَّ شملنا، ذلك المساء. التَمَّ حول طاولة مربعة، مغطاة بقماش اخضر داكن اللون من «الدامسكو» العريق. طاولة وضعت في مركز المكان، تماما، عكس ما توقع علي (وما كنت أتوقع).

كانت تلك اول مرة نحتل فيها موقعاً اساسياً كهذا، عنده. لكأن تغيراً سرياً قد جرى في السقيفة وفي فضائها، دون ان ندري. أيكون هَمْسُ بكر في اذن «ابو

ناصيف» المَتكتِّم هو الذي غيَّر كل شيء؟ ام ان لذلك اسباباً اخرى؟ اسباب لا يعلمها الا الضالعون في الامر. مَنْ يدري؟

حول الطاولة المهيبة صُفّتْ اربعة كراس، ذات ظهور واجفة وقوية. لها مساند كثيفة ولَدْناء. كراس مريحة، يمكن الركوب عليها دون خوف.

وكأنني كنت زائداً عن اللزوم قَدَّم لي «صبي السقيفة»، بلا اعتناء، كرسياً صغيراً من القش، ليس له مساند أو أقاويل. على ذلك المقعد الهزيل كان عليَّ أن اقعد ساكناً طيلة الليل.

بدا الانشراح واضحاً على وجه عثمان الذي اخذ يتحَرّى لائحة الأطعمة والمشاريب. اما علي فقد ظهرت على سحنته علائم الاستياء العميق. لكأنه أُجبِر على خيانة معلنة سلفا: خيانة احد لا يحب ان يخونه. خيانة نفسه؟

ووجدتني أتساءل، بصمت: لمن يخلص النَفْسَ علِيّ؟ ولِمَ يظلُّ منهمكاً وكأنه يغرق في بحر لا مرئي؟ ولكي اكون صادقاً، صادقاً بلاإضافات، اقول انني لم اكن املك الا السؤال. الا ذلك السؤال البليد الذي سيشغل بالي طيلة الليل.

وكأن عليا لم يعد قادراً على الصبر اكثر مما صَبَر، قال فجأة بلهجة مفعمة بالاستياء (متوجهاً بالحديث لمن؟):

– لقد اخطأتَ؟ لِمَ لا تعترف بذلك؟

وكان عمر هو الذي رد عليه متحفزاً:

– ربما! لكنني احب اخطائي اكثر مما أحب صواب الآخرين.

وكأن ذلك الرد المفاجيء فتح شهية عثمان للطعام اكثر مما كانت مفتوحة، رأيته يتصبب عرقاً وهو يلتهم الاطعمة اللذيذة التي كان يتهيأ لها منذ ساعات. اطعمة جعلته يتلمَّظ جهراً، وهو يلوكها بين فكيه.

ذلك المساء، جلس بكر في الصدر. وعندما جلس عَدَّل من هيئته، فغدا اكثر هيبة وجلالاً. كانت حكمة خفية تتوهج من اعطافه وهو يتحرى الجالسين بحياء. بحياء؟ «بمكر بالاحرى» كان علي سيقول لو تجرأ على الكلام، يومذاك.

اما عمر فقد صار الى نفسه اولا. ومنذ ان اطمأن اليها بدأ يتطلع بامعان فيمن

حوله. يتطلع سابراً وجوه الخلق واماكن جلوسهم وهيئاتهم. كان يتفرّس، بما يقارب اللمس، في كل ماكان ذلك المكان المعتم يحتويه. كل ما كان يحتويه من كائنات واشياء.

واخذني العجب لتلك الحاجة المباغتة التي لم آلفها عنده من قبل. حتى ان عليّاً صار يهمس لي بريبة: «يريد ان يعرف كل شيء عمَّنْ حوله، وعمّا يحيط به، قبل ان يقوم بحركة، او يتفوّه بكلمة». ومع ان ذلك بدا لي امرا طبيعيا، الا انه أثار، لسبب كنت اجهله، ضغينة علي.

اما عثمان فقد صار ينظر بقحة الى المحيطين بنا وكأنه يريدهم ان يَدلّوا على انفسهم، مع انه لم يكن يجهل احدا منهم. كان يستدل على الناس من الوان ثيابهم، من سحنهم، ومن روائحهم، ايضاً. ولم يكن، على العكس من علي، بحاجة الى دلائل كثيرة ليصنف الخلق ويحطهم في المكان الذي يرتأيه لهم. لكأن الطبيعة أمدته ببصيرة لا مثيل لها عندما يتعلق الامر بتمييز الخلق: مَنْ معه، ومَن ضده. وعندما رآه علي يلاحق الناس بنظراته الفتّاكة، صار يتمتم والقلق باد عليه: «قل اعوذ برب الفلق من شر ما خلق».

كنت، كالعادة، أُنَقِّل مقعدي المحروم من المساند والأواصير نقلات متعددة اثناء السمر والليل. كنت انفر، احيانا كثيرة، من استمرار الاستماع الى صوت واحد.

كنت احسني بحاجة ملحة الى سماع صوت آخر (حتى ولو كنت سمعته من قبل). صرت من كثرة الاستماع اعرف طعم الصوت ونكهته، استطعم الاصوات كما يستطعم غيري المآكل والمشاريب. أتذوق الكائنات سمعاً. من الصوت كنت قادرا على الولوج في الآخر، او على الخروج منه. قادرا على ان اقترب منه كثيرا، او ان اهرب عنه الى الابد.

كنت قد بدأت أُوقن في اعماقي بقول «ابن الوراق» العتيد: «صوت الكائن يلخص ذاته كلها»؟ والذي اضاف في معرض الحديث عن الكائن وصوته: «الكائن قلعة حصينة ولها ابواب. وأول ابوابها الصوت. ادخل. من اي باب دخلت فستجد

الكائن نفسه إن كنتَ قادرا على الادراك».

كنت، آنذاك، التهب لمجرد سماع كلمة «الدخول» بأيحاءاتها اللامتناهية. كانت، وحدها، تكفي لتجرح قلبي، وتُحبط نفسي. الا انه لم يكن معنيا بذلك، ابداً. كان كل ما يهمه هو توصيل افكاره «البائسة» الى حيث يريد. لكأن توصيل فكرة ما الى احد الناس أهمّ، عنده، من الحياة. ووجدتني ألْبُدُ صامتاً، متوقّد الأحاسيس. متهيّئاً لتقبّل ما يجيء به الليل.

بانتظار بقية الاطعمة الكثيرة التي طلبناها (طلبوها بالاحرى) صاروا يتوادّون الكلام.

كان عثمان يُسابِق الحديث وكأنه يُغالب الوقت الباقي للحياة. وعمر يتكلم ليحسم ما التبس من امر. وأقلّهم كلاماً بكر. وكان علي أبلغهم حديثا. كانوا يصمتون عندما يتكلم، ولكن هل كانوا يسمعون مما يقول شيئاً؟ كنت قد بدأت أشك بذلك وانا أُلاحق الأشارات.

صرت اعرف، من مسلكي ووجدي، ان المستمع حالات. كدت اضحك في سِرّي، وانا اردد: ألم يقل هو ذلك؟ وسرعان ما غلب الشَكُّ ذلك اليقين البائس. بلى؟ صرت اعرف فئات المستمعين وطبقاتهم. اعرفها جيدا. اعرف المستمع النبيه. والمستمع الفاهي. اعرف المستمع اللئيم. والمستمع الذي لا ينتظر منك الا ان تصير انت مستمعا له. اعرف المستمع الخائف. والمستمع الزائف (الذي احسبني من فئته) وهو الذي يوحي لك بانتباهه العميق اليك، مع انه لا يصغي الا الى صوته الداخلي الذي لا يكف عن الهدير.

اعرف، ايضا، الفئات الاخرى من المستمعين. من مستمع

الصدفة الى مستمع الحرفة الى... اعرفهم كلهم، وكيف، لا! وقد مررت بحالاتهم، هذه، كلها، او اكاد.

بين صخبي الداخلي، وصخب الخارجين والوالجين الذي لم يكن ليهدأ، ذلك المساء، حسبتني اسمع صوت بكر المستاء وهو يتوجه بالسؤال الى عمر، مشيراً الى شِلّة من الرجال ليستْ بعيدة عنا:

- مَـنْ هم هؤلاء الصبيـة، يا عمر؟

قال ذلك وهو يتطلّع بعين خفية الى الرجال الذين تحلقوا حول احدى الطاولات العديدة في السقيفة. طاولة ندية في ركنها الايمن. كان امتعاض بكر منهم باديا للعيان. لكأن وجودهم، بحد ذاته، إشكالية لا مبرر لها . لكن الذي ادهشني كان رد عمر الذي قال، بنوع من الاحتراس:

- صبية يا بكر، وهم بعض رجالات دمشق؟؟

كان سؤال بكر العابر، هذا، أو الذي اراده ان يكون كذلك كافيا لينبش بسببه عثمان كل ما يعرفه عنهم. ليقول بهم ما لَمْ اسمع به من قبل.

مستمعاً إلى حكيه عنهم، كنت اكتشف، ذلك المساء، ان الكائن حَمّال أوجه. انه، برغم كونه واحداً، يحتمل أوصافاً َشـتّى، وأقاويل. انه مثل قارة عظمى على الناظر اليه ان يبذل جهداً كبيراً لاكتشافه اذا ما اراد ان يتعرّف، حقا، عليه. وان مجرد النظر الى هيئته واخلاطه لا يعدو ان يكون َمسْحاً سخيفاً له بلا أهمية أو يقين.

[٣]

كان عثمان يحكي، وكنتُ أُلاحق ذبابة عيني وانا اتابع اشاراته المتسارعة. لكأنه يخشى ان تفر الكلمات من فمه الذي امتلأ بها. امتلأ بها الى حد الطوفان. كان يشير اليهم، مميِّزاً هيئاتهم واحداً، واحداً:

- ذاك، هو «لُقَيْمَة الرَقّي» الملقّب بـ«أبو لُقمة»، وهو رجل ُذبذُبَـة. هجر بلده الصغير المُـقْـحِـل عندما عضّه الجوع. الى هنا جاء يلتمس الخلاص من شظف العيش. وقد قيل لنا ان لديه ُمويْهِبة أدبية لا بأس بها الا اننا لم نختبرها بعد. لكننا اختبرنا (او نكاد) موهبته الاخرى: عِرْفَتـه المستغِلّة للنفوس، حتى قبل ان تعلن هذه عن حالها. النفوس التي يمكن له ان يستفيد منها، والتي لا يمكن ان..

وكأن عليا اصيب بجرح بليغ من كلمات عثمان السليطة، هذه، صار يتململ في مكانه كمن يجلس على نمل. ورأيته يغض الطرف عنهم، وهو يُداوِر

النظراليهم، الى افراد المجموعة التي استمر عثمان في التعريف بهم. فقال له علي حاسماً:

- اوجز يا عثمان.

لكن عثمان تابع الحديث بلا تردد وكأنه يقرأ ما يقوله في كتاب. في كتاب ملصق على جبهة كل واحد منهم:

- وقيل لنا انه وجد ملاذاً في كنف اتباعنا. وانه يحب العيش السهل وإن جرّه الى بعض التردي. وهو لا يحب ان يجشّم نفسه عناء العمل، وبخاصة إن كان بلا مردود فوري.

وبعد ان تنفس بسرعة، اضاف مبرراً:

- وهو في هذا يتساوى مع كثيرين من ابناء جيله.

بدا بعض الرضى يظهر خلسة على وجه بكر، وكأنه كان ينتظر، بفارغ الصبر، التعرف على من كانوا يحيطون به. اما عمر فقد بدا عليه ارتباك واضح ولكن باحتشام. وحده، علي، على العكس من كليهما، لم يستسغ تدخل عثمان المغرض في الحديث، ولا إدلائه بدلو معلوماته الممتليء باستمرار.

استغل عثمان ذلك الاضطراب الذي هيمن لحظات قليلة علينا ليتابع حديثه المشئوم عنهم، فقال بصوت أقلّ صخبا هذه الـ:

- وذاك هو «لُحَيْقَة الجَزيري» الملقّب «بالأُصَيْفِر» ألم تروه من قبل؟ عجبا؟ وهو الذي لا يكف عن التسكع في أوصال هذه المدينة منذ ان حَلَّ فيها، قادماً اليها من الاطراف. وهو، كما قيل لنا، َصموت كالحوت.

وبعد ان تنفس مرة اخرى بسرعة، أضاف مغالباً:

- وهو رجل يبلع الكلمات ويدّخُر معانيها بحرص شديد.

وهو يفعل ذلك، كما ُيقال، ليروي نزعة «المعرفة الزائفة» عنده. وهي نزعة لا ترتوي، كما تعرفون. ولذا فهو لايكف عن اصطناع الأحابيل اللغوية البائسة ليوحي لمن يسمعه، او يراه، ببحثه المرهق عن المعارف التي صارت معروفة لدى الجميع ما عداه. وبرغم بساطته الفطرية (أو ربما بسببها) فهو يبدو، دائما، وكأنه مسكون بهاجس لا يقاوَم من اجل الذهاب بعيداً، بعيداً جداً، مع انه لم يبرح

المكان الذي َثوى، منذ حلّ بيننا، فيه؟

وبعد ان أراح لسانه ُلحَيْظة، اضاف متسائلا بعجب:

- ومن اجل أي شيء يفعل ذلك، كله؟

ولما ظلوا ساكتين، اكمل مفسِّراً بالتباسٍ يصعب على الغافل، مثلي، الإحاطة به، فقال:

- للوصول الى البداية. الى حيث كان، قبل ان يكون ما هو الآن؟

كنت وانا استمع اليه، استعيد في اعماقي، اعماقي المليئة بما هبّ ودب، بعض اقوال «ابن الوراق» وهو يتحدث عن احد لم اكن اعرف عنه شيئا، وان كنت اتخيله مثل هذا الذي يتكلمون عنه، الآن، إنْ لمْ يكن هو نفسه. وهو يقول عنه متأسِّفاً: «كان مملوء بظمأ لا يروى. ظمأ المنبوذين بالقوة: ظمأ للحقيقة ولنقيضها. ولذا تراه، دائما، وكأنه ُفجِع للتوّ. ُفجع بفقده ما لم يكن يملك منه شيئا. ومهما حفرت فيه، فانت لا تجد عنده سوى التَحَسّر والصمت. التَحَسُّرالعبثي والصمت الفارغ، وكأن الحياة بلا عقل»؟

ولكي لا يشترك مع عثمان فيما كان يعتبره نميمة لا مبرر لها، استدار علي عنه بعيداً، وهو يتمتم: «اللهمّ احمنا من غلوائه».

وكأن جملته، هذه، فتحت في نفسي المليئة بالَغمَض والُستور، آفاقاً جديدة، صرتُ استرق النظر الى وجه بكر مستطلعاً فيه علائم حبور خفي يشعّ منه. بكر الَكتوم، الحافظ لعواطفه وانفعالاته، يسمح «لغبطة مبتذلة» بتلوين جدرانه!

كانت غبطته مبهمة لكنها صادقة الى حد الايحاء للآخرين بوجوب مشاركتهم له فيها. اي شي اكثر رعباً من هذا؟ كنت اردد في اعماقي الكئيبة، صامتاً، ذلك المساء.

وعندما حكيت «لابن الوراق» عن الحيرة التي تأخذني بشأن بكر، وبخاصة عند مقارنته «بالَربْع»، ضحك بهدوء، وهو يقول بتعالٍ: «أصابع اليد الواحدة ليس لها نفس الذوق ولا نفس المهمة، كيف تطلب من كائنات متمايزة ان تكون واحداً»؟ واحسسته يضيف في سره: «ايها الغبي»؟

[٤]

انتهز عثمان لحظات توهج بكر، وهي قليلة، فقال مُتمارِحاً:

- هل لي ان اطلب شيئاً آخر، يا بكر؟

- أوكلما قلت لنا شيئاً طلبتَ عنه؟

رد بكر مبتسماً، وهو يشير، في الوقت نفسه، الى «ابو ناصيف»، متجاهلاً صبيه الاقرع الواقف باللصق منا:

- اعطه مايريد، وهات لكل منهم ما يرغب فيه.

احسست بنوع من الراحة العميقة تملأ اركاني، وبخاصة معدتي التي اشتدت. كان فيض من الشَبَع والسلام قدبدأ يغمرني حتى قبل ان اصيب ما يكفيني. لكأن السماحة التي كانت تتجلى في حضور بكر، وحدها، تكفي لاشاعة الغبطة والحبور. لكن ذلك الفيض المبهج سرعان ما بدأ يتلاشى ضائعاً بين توتر عمر السري، وتمتمات علي التي لم تكن لتتوقف حتى وهو يمضغ الطعام.

لكأن عثمان، بطلبه الجديد، اكاد اقول والعفوي ايضا، أثارنقمة خفية لديهما. إذْ رأيتهما يتواجهان دون ان يتجابها. كان تيار سري يخطو من احدهما نحو الآخر، دون ان نحس به، او نراه؟ والا لما استدار عمر قليلاً، وتململ، في الآن ذاته، علي، دون ان يبرح المكان؟ الى اي جهة تسارعت انظارهما، آنذاك، وكيف تداخلت المشاعر والأساطير!

ولم يتركني علي اغرق في بحر شتاتي طويلاً، إذ قال هامساً، وهو يُقرِّب شفتيه الضخمتين من اذني التي تضاءلتْ لصقه: «اللهم لا تجعلنا عبرة لمن لا يعتبرون»؟ قال ذلك بلا عناء، والاطباق المزدانة تتراصف، امامنا، على الطاولة الخضراء، من جديد.

استحسن بكر لعبة التعريف المغرضة، هذه، ولا بد، فقال (متجاهلاً عثمان، قصدا، كما بدا لي):

- وَمنْ هم بقية الشلّة، يا عمر؟

حاولتُ ان ارى محط نظرته، عبثاً. «فالعين الحاذقة لا تحطُّ على هدفها، ابدا.

وحدها، النظرة الغبية تصيب احدا بعينه. احد نعرفه نحن حتى قبل ان تحطَّ هي عليه» كما كان «ابن الوراق» يقول.

كانت نظرته تغطيهم جميعاً. وكان عثمان هو الذي أجاب:

– والغاطس في الحضيض، ذاك، هو «ابن سُوَيْد» الدمشقي، ويلقبونه «إمّعَة الشام». وهو رجل قُصْرَة. بعضه خجول وبعضه ذهول. يقال انه يبحث عن العدل المطلق، وعن الحرية التامة، ولكن، في الفلسفة والأماثيل.

وهو لا يتعرّض «للوضع» بسوء حتى عندما يسيء الوضع إليه.

وهو، برغم ذلك، لا يكف عن النقد «المنهجي» لما ولمن لا يخشاهم. ولا يتورّع عن نَشْر بلاغته الفارغة فوق رؤوس مَنْ يخالطونه. إنه، ببساطة، امرىء كُتُبي. لا خطر منه، ولا خطر عليه، كما نُقِل الينا.

وبعد ان تنفس مرتاحاً، اضاف بتدقيق واضح:

– لكأن الحياة عنده مقسومة الى قسمين لا يلتقيان: قسم العيش وقسم الطيش. هو، هنا في أبهة ونُبْهَة، و هو في

الخارج في تلملم واستحياء. الحياة عنده غنية عن المواقف والانفعالات، كما يزعم. وبخاصة تلك التي تتطلّب سلوكاً مناوئاً. يكفيها الانقياد المطيع لشئونها اليومية التي لا غنى لها عنها، كما يقول.

وبعد ان تطلع في عيون عمر اولا ومن بعد بكر، ولست ادري لم كان يفعل ذلك كلما بدا له الامر جليلا، تابع بهدوء:

– أي حياد اكثر نفعاً لنا من هذا؟

بتأثير كلماته المليئة احتقاراً، هذه، داهمتني مقولة «ابن الوراق» «المخيفة» وهو يقول محذِّراً من التطلّعات «الزائفة» التي لا تؤدي الا الى التنازل عن جوهر الحياة: «حلم الكائن البائس بالخلاص من وضع ينتمي اليه وجودياً، دون ان يفعل ما يجب للخلاص منه، هو الذي يؤدي، في النهاية، إلى تفريغه من جوهره الانساني، والى ابتذاله تاريخياً»!

وكأن كلماته كانت حمماً تنصب على علي ايضاً، رأيته يتهدّد للقيام بما لم

اجرؤ انا على القيام به: الكلام؟

كلام مجهول العاقبة والنبوء. فصار يتباعد عن الجهة التي تربطه بعثمان ويتقرب من القوم الجالسين. يتقرب منهم جُهْرة وبلا زور. كان يتداخل بعضه في بعض، وهو يتمتم: «إهتمامات مزيفة لكنها تخفي مشاكل حقيقية»! حسبته، كالعادة، يكلمني سراً، الا انه، فجأة، قال بصوت واضح، مليء بالاستياء:

– عجباً ياعثمان؟ أراكَ لا زلتَ في طور التجميع والتسميع. طور نضد المعلومات بدلا من نقدها. لكأن الناس هي مجرد اوصافنا لها.

قال ذلك وكأنه، وحده، يعرف الداء والدواء ولايستجيب لِطبّه واعتباره أحد؟ ولذا،ربما، صار يتمتم لنفسه بيأس: وهم أعقَد من ذلك بكثير.

وكأن عثمان لم يسمع شيئاً مما قال علي، او كأنه لم يكن معنيا به، ابدا، تابع حديثه بهدوء شديد. تابعه ببساطة وكأنه اراد ان يُدلِّل على ان «اعتراض» علي لم يكن اكثر من جملة معترضة في سياق الحياة. الحياة كما يريدها هو، ويريدون. كما يخطط لها، ويخططون. فتابع أساطيره قائلاً بتحدّ (ولكن لمن؟):

– وذاك الذي يجلس متململاً في مقعده، وكأنه يجلس على شوك، هو «هُذَيَّة الحسكي». وهو رجل ثَرّ الحديث. به شغف للكلام. يحسبه المستمع إليه، لاول مرة، نهرا من المعارف والعلوم. لكنه سرعان ما يكتشف انه ليس الا سيلاً من الهراء. قضى حياته، كلها، وهو يبحث عن جمهور بليد. جمهور يقبله على الفور، وبلا تمحيص. ومن يطلب ثمنا فوريا لكلامه الذي لاثمن له، سوى المغفّلين؟ سأل عثمان نفسه وكأنه يسأل احدا آخر. وأجابها، مكتفياً بذاته، وكأنه، وحده، المعني بالجواب.

وكأن عمر أراد ان يمزج الكلام بالملام، ان يخلط الثرثرة بالصمت، وان يتواجه عثمان وعلي (ليتحكّم بكليهما، كما يزعم ابن الوراق) قال، بعد ان تَنَسَّم الهواء الممتزج بالأدخنة والقوارير، وهو يتحاشى النظر الى أيّ منهما:

– للكلام مقتضيات وتواجيه. وهو، عندما يكون صائباً، كالبذار الخصيب لا بد له ان يثمر، ذات يوم، وإنْ لمْ يثمر، أبداً، على الفور؟ وهو مثله ليس بحاجة الى

شواهد ومبررات.

ولكن لِمَ تراه قال ذلك؟ صرت اردد صامتاً في حلقاتي. أتراه اراد ان يؤكد ماقال عثمان، أم تراه اراد ان يرتدع علي عن الإلحاح والمساءلة، ان يدرك اخيراً (ان يقبل بالاحرى) ان للأمر ابعاداً ومستويات؟ وهل يخفى ذلك على أحد!

[٥]

قطع استرسالات عثمان التي لم تكن لتنتهي، صوت بكر الذي نادى، من جديد. لكأنه اراد ان يريح صدغيه من الصوت الملحّ:

- لا تهملنا يارجل؟

قال مخاطباً «ابو ناصيف» الصَموت، بلطف، و لكن بلهجة حاسمة، وبصوت متوهج بالسلطة والحب. سلطة الكرم وحب الذات. وكلاهما لا يُغْلَب. كان يتكلم وهو يتلوّى بنبل، وكأن دعوة العشاء، هذه، اعطته سلطة اضافية علينا؟

كنت احسب انني وحدي الذي فكر بالأمر من هذه الزاوية. وكانت تلك غفلة جديدة مني، لأن عليا لم يتأخر عن مبادرتي بالحديث المنطوي على نفسه، قائلا باستياء:

«عندما نكبر نغدو بحاجة الى من يخضع لنا، بعد أن كنا بحاجة الى من يحبنا، صغاراً».

ولأنني فهمت اللفظ ولم أُدرك المعنى، وقد رأى هو ذلك في وجهي الذي غدا أسَحَم ومُزْوَرّاً، ابتسم لي برقة وكأنه اراد ان يوضح لي، بشكل صامت، مقولته التي ادهشتني. ولكي يعذرني عن قِلّة ادراكي وسطحيته، ويعفيني من عبء جهلي الذي لا يحتمل (هكذا فهمت انا الامر) قال، متسامحاً: «لا تعجب؟ إن كان احدنا يريد ان يعرف عن الآخر ما يجهله هو نفسه عن نفسه، تغدو الحياة لا تحتمل».ووكنت اريد.

كان يحكي وكنت انظر الى بكر. الى بكر الذي كان يشير إشارات خفية وملهمة. الى من كان يشير بكر في سره وجلوسه؟ ولماذا كان يريد ان يعرف كل

شيء؟ وعمّن؟

وسريعا ضاعت تلك الاسئلة التي شغلتني عميقا، دون ان اجد اجوبة لها. ضاعت في لَغْو عثمان الذي قال متحمِّساً، وكأننا لم نكن ننتظر إلاّ متابعة تعاريفه السليطة:

- وذاك المُتَراهِف، ذو النبرة العالية والضحك المفلوت هو «قهْقُهَة الماميّ». وهو رجل يحسب نفسه من سادة الظرف مع انه لا يملك من اسبابه غير اللَغْو والرجفان. وهو على علاقة وثيقة بجهاتنا. واسبابه من اسبابنا، كما قيل لنا.

وبعد ان نظر حوله برهة وكأنه يبحث عن احد بعينه ولا يراه، قال بحذر واضح، هذه المرة:

- لكن الخطر في مثل هذه الاحوال يظل قائما. خطر التنافر بين ما نريده منه، وما يريده هو منا. ومع ذلك ليس ثمة مفرمن استيعابه واستيعاب امثاله من البادعين.

كان يتكلم وبه عنفجة ونفج وكأنه يشرح نظرية جديدة في السلطة، «لا هراء بلا نظير»! كما قال «ابن الوراق».

صار علي يتململ، ذلك المساء، وكأن الحديث تحول، بالنسبة له، الى قريص. واحسسته يريد ان يقول شيئاً، ولا يريد. وفجأة، قال، بحدة باغتتني، إذْ لم اكن اتوقع تدخلا من احد منهم بخصوص تعريفات عثمان المألوفة في امسيات دمشق التي كانت تطول، احيانا، الى حد الضجر:

- أخطر صفة من صفات الكائن هو اعتقاده الجازم بأنه، دائماً، على صواب حتى عندما يكون مخطئا. إنه بذلك يخطو الخطوة الأساسية في مسيرة الطغيان؟

ماذا كان يهدف علي من ذلك التدخل الذي فاجأ الجميع. والذي بدا غير مفهوم حتى مني.حتى من اقرب الخلق اليه. لكأنه اراد ان يفتح ثغرة جديدة في علاقته الصمّاء بهم، تلك التي يظل يشكو من القصور فيها، ومن العُطوب. ولكن من كان مهيئاً ليسمع ما كان يقوله، آنذاك؟ ومن كان مستعداً لاستيعابه وتطبيقه، والشام تفور تفاهة وبلاهة؟؟

حاولت، جاهداً، أن ألقى تفسيرا مُرْضِيا لما كان يحدث امامي، ولكن دون جدوى. ومثل كل مرة سرعان ما تركتُ الامر بلا ضوء. «فما يحدث يبدو، احيانا، شديد الوضوح حتى لتشك بأن الوضاحة فخ محكم. واحيانا اخرى، يبدو شديد اللَبْس والغموض حتى لتخال انك تغرق في يَمّ بلا حدود» على حد قوله؟

وكنت لا ازال في طور الكائن الذي لا يفهم إلاّ ما يقع تحت بصره المباشر (عندما يكون قابلاً للفهم من أبْسَط الناس).

وهو ما ملأ قلبي غمّاً، برغم الأطعمة المنشورة في الصحون امامي. وبدا لي ان «ابن الوراق» لم يكن على حق عندما يؤكّد باستمرار: «ان المفهوم بالضرورة معلوم». فانا «افهم»، احيانا، دون ان «اعلم» شيئاً، والعكس صحيح، ايضاً. ولكن اي جدوى من معارضة بلا سلوك؟

أثار اضطرابي السري ضحكاً صاخباً عند «ابن الوراق» عندما علم بالامر. وعلى الفور بدأ الشرح محاولاً تحليل حالتهم (كأية حالة اخرى)، زاعماً، أنهم مثل غيرهم، تحركهم غايات وأحلام، ايضاً. فقال بوُثوق: «مايتشدّق به بكر واصحابه ملقى على قارعة الطريق. لكن الناس لا تقرأ ماتراه، وانما ما تسمعه؟ والمسموع من صنيع القائل، لا الفاعل. وهو ما جعل الخلق على اختلافهم مؤتلفين».

وبعد ان نظر في وجهي الذي بدأ يَرْبَدُّ لاستماعي المنهمك اليه، اكمل دون ان يأْبَهَ بي: «في مستنقع مثل هذا، وحده، عقل متحرر من القيود قادر على ان يزيح الطين عن عيوننا».

وكأنه استراح، اخيراً، بعد ان أدّى مهمته الأثيرة لديه: تَلْقيني، «تنفس الصعداء» كما يقولون، وهو يتطلع إليّ متفحِّصاً، وكأنه يسألني: فهمت؟

وبدلاً من ان يتوضح الامر لديّ ازداد غموضاً؟ أو هكذا شعرتُ.

كان من السهل إثارة الإلتباس عندي، آنذاك. كنت لم أزل، بعد، ضحية الرؤية المسطحة للناس والاشياء. وهي رؤية لا تتمتع بأى تأويل منطقي محتمل. ومع ان التأويلات، كلها (كما صرت اعرف الآن) متواطئة، الا انه «لا بد منها لكي تستقيم الحّياة» كما كان يقول. «وتنقيتها، باستمرار، ضرورية، لعلّنا نتوصل، ذات يوم،

الى طاقة نقدية تساعدنا على الخلاص من واقع السوء، هذا، الذي يطمرنا بنفاياته» أضاف، قبل ان يؤكِّد بحزم: «فمن لا يُؤوِّل لا يُحوِّل».

ولكن، ماذا كان يريد ان يقول، في الحقيقة؟ وكيف لي ان ابلع هذه المقولة الغليظة؟ صرت اردد ضاحكاً بصمت، وانا انتظر الأعاصير.

[٤]

اراد عمر ان يجنّب بكراً عناء المساءلة والتخمين، ذلك المساء، وقد بدأت الناس تتجمّع، على غير توقع، في السقيفة. فصَرَّ على أسنانه القوية، وكأنه يريد ان يسحق بها الرَوْع الذي والاه، وهو يقول بنوع من الخشية المرحة، دون ان يتوجّه بالحديث إلى أحد بعينه:

– الفطنة احياناً قاتلة؟

وعلى الفور، ردَّ عَلِي (وكأنه المعني بما قيل):

– ماذا تقصد ياعمر؟

قال ذلك وهو يزيح بصره عنهم بعيداً، ويتلملم في مكانه وكأنه يتهيأ للقيام بامر لا يريد ان يفصح عنه، آنذاك. امر قد يضاعف من استياء بكر الذي بدأ يتراكم. لكن عمر رَدَّ بهدوء آسِر، متابعاً شجونه اللطيفة، مع ان رَدَّه الذي لمْ أكن أتوقعه، بدا لي شديد الغموض:

– مَنْ لا يتحمّل ربعه، يقلّ ربحه؟ قال.

وبعد ان ابتسم برفق علامة الرضى عن جو المساء الدمشقي الغامر (لا عن الذات، كما حسبت خطأ، آنذاك)، اكمل:

– نحن جماعة، وخير الجماعة في التماسك، لا في التشتت والانفراط.

وكأنه كان يتوقّع، مسبقاً، هذه «الوعظة» حتى لا أقول الهَفْوَة، ردَّ علي بحدّة، مقارعاً رأي عمر:

– الجماعة لا تفكر. الذي يفكر هو الفرد. والافتراق بين من يفكر ومن لا يفكر واقع لا محالة.

وكأن عثمان لم يكن ينتظر الا هذه «الزَّلَّة» من علي، شطَّ في مقاطعته له، وفي تأويله المتسرع، فقال متسائلاً برعب واضح وهو ينظر حوله متوجّساً:

– تريد ان تقول ان الفتنة واقعة بينهما لا محالة؟

وبعد ان تطلّع إلى عمر، دون ان يركّز انظاره عليه، اضاف بمقت:

– والفتنة لا تعقبها الا القطيعة، كما تعرف.

– لا تُحَمِّلْني عِبء سوء نيّتكَ الذي لا يُحتَمل ياعثمان.

قال علي بغضب وهو يُلَمْلِمُ أعضاءه، وكأنه يتهيّأ للنزال مع احد لا يريد ان ينازله الا مرغماً. أحد يحتقر حتى الحوار معه، وهو مرغم على محاورته، مع ذلك.

ولما ظل الصمت سائداً برهة من الوقت، هي بُرْهَة ٱلتِمامه المتحفّز، تابع علي بهدوء،ولكن بتصميم واضح، وكأنه تخلّص، اخيراً، من عقدة «عاقبةالقول» التي كانت تربط، من قبل، لسانه (كما يزعم ابن الوراق) فقال:

– بعض الناس مخلص لحياته، وبعضهم مخلص لافكاره، إذْ نادراً ما يكون الاخلاص ممكناً لكليهما، وانت لست مخلصاً لا لهذه ولا لتلك.

وبعد ان استردّ نَفْسه التي رأيتها تَحوم حوله في العتمة الدمشقية الجميلة، قال لائماً عثمان من جديد (ولم يكن يمقت شيئاً مثل اللَوْم):

– علامَ تُحاجِجني، وبمَ تلومني، وانت أوْلى مني بذلك؟

ولأن بكراً لايستسيغ أي سلوك مناوىء، وبخاصة في حضرته، صار يرتَجُّ في مقعده الذي كاد ان يتهاوى، دون ان يقول شيئا. وكان عمر هو الذي حاول ان يطفيء أوائل الحريق قبل ان يتّسع، وتعسر السيطرة عليه. فأشار بلطف (وكأنه يقرأ سريرة بكر) الى صبي السقيفة الاقرع الذي ظل واقفا بالقرب منا منذ اول المساء. أشار إليه، وكأنه يريد ان يقول لهما: اسكتا؟

وعلى الفور تقرب الاقرع منه. فأسرَّ له عمر بكلمات لم يسمعها احد منا (وان كنت اشك الآن في انه قال له ما فكرت انا فيه آنذاك). وكانت تلك الحركة الصغيرة كافية لقلب الجو والاهواء، وقد ألْحقَها عمر بابتسامة واضحة (وكان نادراً ما يبتسم)، وهو يقول بمودة:

- جئنا الى هنا لنتسامر لا لنتذامر.

وكأن ذلك كان تحريضاً اضافياً لبكر لتنعم نفسه، وليظلّ هادئاً بلا نُغوص، سرعان ما استرد شمائله ونواصيه. ومن جديد، أشار الى «ابو ناصيف»، متجاهلاً، كالعادة، صبيه الاقرع اللاصق بنا باستمرار. اشار اليه إشارة عابرة لكنها كانت كافية ليهيّء لنا ما كنا نرغب فيه. ليهيئه على الفور. وكأن السرعة هي الفضيلة الوحيدة التي يتمتّع بها.

كان حضور المقبِّلات التي رافقت الطلبات الجديدة امرا يثير الشهية والشغف (بالنسبة لي على الاقل). كانت الُصحَيْنات الصغيرة الملأى «بما لَذَّ وطاب» قد بدأت تصطف امامنا بعد ان فرغت منذ قليل. وقد حرّض مرآها البهي، من جديد، شهيتهم للكلام، لا للطعام، فحسب.

وكان عمر هو الذي تولّى، هذه المرة، قيادة الحديث. وقبل ان يفعل، استدار في أُبَّهة ليرى الجالسين حولنا، وهم كُثُر. كانت نظراته الوادعة مملوءة، في الحقيقة، بشَرَر لايفسّر. شرر لهب لم ينطفيء، تماما، إلاّ انه قادر على ان يحرق بصمت.

وكأني رأيت شبح الابتسامة اللئيمة، نفسها، يطلُّ من وجه عثمان الذي تشاغل، منتظراً ان يطلب عمر منه استعادة الكلام. الكلام الذي انقطع منذ هنيهة. ولا بد انه كان يتوقع ذلك منه (وقد تهيّأ له، فعلاً) لانه لم يؤخذ، حين قال عمر:

- ذكرت بعض القوم، ولم تذكر لنا بعضهم الآخر، ياعثمان!

توَهَّجَ وجه عثمان تحت نورالمصباح الخافت المعلق فوق رؤوسنا. وعلى ضوء نَوَسانه البطيء، راح يُقَلِّب صفحات ذاته التي دَوَّن فيها كل شيء (كل شيء عنهم، وعنا ايضا كما سأعرف، فيما بعد).

وهذه المرة، بدأ الحديث بتؤدة وكأنه لا يرغب فيه، الا انه مضطر اليه تلبية لدعوة عمر اللَحيحَة، فقال بصوت خافت، على غير عادته:

- وذاك الرجل الأبلق، الذي يبدو مربعاً مع انه مستطيل، هو ابن شُقَيْر السلموني» الملقّب بالأُشَيْقِر. وهو رجل متقلب الاهواء. سطحي العاطفة. له ولع

بالشيء وبنقيضه. ولذا يبدو مضطرب الفؤاد، متسرّع الاحكام. ولابد انكم رأيتموه يقطع الشوارع حافياً، مدعياً ان خير وسيلة لمعرفة الطبيعة هي ملامستها مباشرة.

وبعد ان لَحس مجامع فمه بلسانه الذَرِب، اضاف، ضاحكاً بالتباس:

– وكأن التمرّغ في الوحل ميزة؟

ولما لم يعلّق احد منهم عليه، تابع متردداً، ولستِ ادري لماذا بدا عليه ذلك التردد المفاجيء، فقال:

– الاكيد، كما قيل لنا، انه رجل يعرف كيف «يتبدّل»، «واحياناً من اجل لاشيء» كما يزعم، وإن نقل الينا العكس. ففي هذه الحياة، كما تعرفون (ونظر كللاً الى علي) لا أحد يخلع سِتْره بلا ثمن. ماذا نريد منه اكثر من ذلك؟

– نريد قلباً صافياً، وعقلاً َنيِّرا، يا عثمان.

قال عمر مسابقا عليا، وكأنه كان يدرك ما يشغل باله في تلك اللحظة. وبالفعل احسست بعلي يتهيّأ للكلام دون ان يصيبه. لكأن تدخل عمر المفاجيء شلّ طاقته على الكلام، مؤقتا. لأنه قال بعد قليل من الصمت، وهو ينتقي كلماته بحذر، وكأنه يخشى على نفسه من السقوط في أحابيلها:

– هؤلاء هم لُقْيتكَ، يا عثمان.

ولم يترك عثمان الرد بلا رد، فقال محاججا بعنف غير مرغوب فيه، كما بدا لي:

– احسب انك وقعت ضحية معرفتك «الكلية» ياعلي.

وبعد ان اغمض عينيه قليلا، وكأنه يستحضر ارواحه الشريرة، اضاف:

– انت تحسب انك تعرف كل شيء يدور حولك، وانت لا تعرف في الحقيقة الا شيئا واحدا فقط (ولم يقل ما هو).

ولما رأى استحسانا خفياً لدى الآخَرَيْن، اكمل بتصميم، وكأنه يطمح الى إثارة الزوابع في عينيه:

– انت تظهر غير ما تبطن.

وتابع بسرعة، وكأنه يخشى ان تُنهَب الكلمات من فمه الذي توسع ممتلئا بها:

- انت تحاول ان توهمنا بانك لا تدافع الا عن حرية الرأي، وعن ديمقراطية المسلك والعقيدة، وانت تفعل العكس فيما تنثره حولك من آراء، وفيما يصدر عنك من تنظير ومن سلوك.

واستتبع قائلا وعلى شفتيه ابتسامة غامضة:

- والعكس ليس، دائما، هو الصحيح، كما تزعم.

- انا؟

صرخ علي وهو يكاد ان يقارب الاغما من شده غضبه الذي لم يجد له مخرجا غير نفسه التي كادت ان تتخلّى، هي الاخرى، عنه. ان تتخلّى عنه في تلك اللحظة الشديدة المقت.

ولبرهة خطر لي انه سيهشم رأس عثمان الذي كنت اراه يتهاوى امامي ملوثا بمائه الاحمر الفوّار. بلى؟ كنتُ احسّهُ يتخبّط في مقولاته العديمة السند، وفي تقوّلاته التي كانت تبدو لي جائرة الى حد الغفلة والزيف.

وكأن الرد المباشر على عثمان الذي بدأت نواجذه تخْضَرُّ، هو الآخر، لم يعد يشفي غليل علي، رأيته يتوجه بالحديث مباشرة الى عمر، مخاطبا اياه بقسوة لم اعهدها منه، وبخاصة في حضرة بكر (إنْ لَمْ يكن ذلك سبباً من اسباب تلك القسوة، إن لم يكن سببها الاساس). فقال محتَجّاً:

- عجبا يا عمر؟ تتهمونني بما ليس بي، وما ليس لي.

وبعد ان تلملم بعنف، اضاف:

- تتهموني بما يفجع القلب، ويشل طاقة النفس على الاحتمال؟

واكمل بلا توقف عن الكلام (مع انه قد توقف برهة عنه): - لا؟ لا قدرة لي على الدفا ع عن نفسي لا لضعف فيَّ، ولكن لعجز العقل عن رد مناسب على ماتفترون.

وبعد ان تنفَّس، وكنت احسب انه لن يتنفس بعد اليوم، اضاف، ولكن بحزم شديد:

- وليس لذلك اسم آخر سوى القمع. فالقمع الحقيقي هو ان تضع الآخر في

وضع يتعذر فيه حتى مجرد الرد عليك.

وبعد ان استدار بعيدا عنهم (وعني)، وهو يشحذ النَفَس، كالغريق الذي لامس انفه الريح بعد طول عناء، قال لائما بحدة، هذه المرة:

- التهمة حوار، يا عمر، وليس حكماً مبرماً لا رجوع عنه. والحواريقتضي محاورا بلا ضغينة. إن اتهمك فلتهمته سبب معقول، وغاية مقبولة. فكيف لي ان ارد وانا لم اسمع هذا، ولا أرى تلك؟

[٧]

ماذا كان بامكاني ان افعل، آنذاك، غير ان انقل انظاري التي ابْتَلَّتْ الى الباب. ومنه الى اقصى السقيفة: الى حيث القَتْ نفسها المجموعة الغريبة التي ولجت المكان، للتو. مجموعة احتلّت، على الفور، طاولة بعيدة في الركن الايسر منها. طاولة ذات غطاء رقيق، لم تدهن منذ سنين. حوافها مثلومة. عليها خطوط وتعاريج. حولها اصطف الوافدون الجُدد بلا ترتيب ولكن بنظام. بنظام سافر وأكيد. كل واحد منهم جلس في مكانه وكأنه ولد فيه. لم يكن لهم رأس ولا قدم ومع ذلك كانوا يتتابعون. يتتابعون بلا إمَرة او مزية. هيئاتهم توحي بتعاطف سري بينهم. تعاطف ملتبس يكاد أن يثير الشغب قبل ان يُثار.

حول تلك الطاولة القصية انحشرافراد المجموعةالغريبة، وعلى الفور بدؤوا اختلاطهم البهي. اختلاط بدا هيّنا وسعيدا، مع انهم كانوا بحاجة الى كثير من المُكَمِّلات. «لكن السعادة لا علاقة لها بالوفرة، بل بالاشراق» كما قال «ابن الوراق».

والى الآن لا ادري لِمَ كنت اصدق ما كان يقول حتى دون برهان؟ «ربما لأن التصديق والتكذيب يخضعان، في النهاية، لرغبتنا فيهما اكثر مما يخضعان لبرهان محسوس، او لسبب ملموس.» كما كان يؤكد هو نفسه، ايضاً.

كان دخولهم الى المكان كافياً لتغيير كل شيء فيه: الامزجة والحركات وطريقة الاكل والنظر والهمس الذي بدأ ينتشر كالطاعون في الفضاء. في فضاء

السقيفة المحتدم، ذلك المساء. اما انا فقد رأيت بولوجهم السقيفة، ولاول مرة، «تقسيم المكان» المجحف إلى طبقات. حتى ان الداخل اليها، ومن نظرة عابرة، يستطيع ان يعرف كل شيء عن الحاضرين بمجرد النظر الى اماكن جلوسهم فيها.

لست ادري لِمَ سيطرَ عليّ «ابن الوراق»، من جديد، ذلك اليوم. ولا، لِمَ صار يغرقني باقواله عنهم (وعني)؟

كان يتكلم وقد ارخى سُدول جبهته النازّة بعَرَق لا يُرى مع انه يتراكم باستمرار. كان يتكلم؟ كان يعلمني، بالاحرى. يعلمني ما لم يكن يعلم؟ كدت اضحك كالمجنون وحدي، عندما خطرت لي تلك الخاطرة الشيطانية. لكن صوته اللزج الذي كان يرنُّ في اعماق صدغي باصرار، حَرَمني من تلك الضحكة المشتهاة.

كان يحكي شارحاً: «رد فعل الغافل، حتى لا اقول المضطَهَد، او مَنْ يحس انه في وضعه، فليس ثمة معيار آخر لدى الكائن سوى الحس (فالحس، وحده، استطرد بنشوة، هو مصدر التمرد كما هو مصدر التَبَلُّد)، رد فعل الكائن، هذا (او من هو في وضعه، كرر من جديد، وكأنه يخشى ألاّ أفهم) هو ان يلتهب. هو ان يضطرب من مجرد النظر اليه. ان يعادي مَنْ يُحاكيه، لا ان يستوعب ما يُقال له، معتقداً أنه، هكذا، يحمي نفسه من الآخرين؟ لماذا يفعل ذلك؟ (سأل نفسه بحماسة، وأجابني بحماسة اقوى): لانه لا يفكر بعقله بل باحشائه. ورَدُّ فعل ال...»

ماذا كان يقول؟ كنت أُتابع باضطراب عميق كلماته التي كانت تُوالي انهمارها الفتّاك فوقي. لكأنها ذباب عملاق لا يكف عن الطيران حولي، هاجماً بلا رحمة، عليّ؟

انتزعني من ذلك الاحساس المُخِلّ صوتُ عثمان الذي عاد الى الحديث. عاد اليه بصلافة وكأنه تلقى امرا سريا من بكر. بكر الذي استبد به نوع من التلجلج غير المعهود. تلجلج لم اكن اتوقع منه شيئا (وهل لي ان اكون فيما أتوقع على

صواب؟) إذْ قال مُعرِّفاً، من جديد:

– وذاك الرجل الجالس قبالك ياعمر (بدأ حديثه برحابة وكأنه لم ينقطع عنه) هو «ابن الخضراء الطعموني» المشهور بوقاحته ونُصوله. وإذْ لم تكن الوقاحة، بحد ذاتها، عيباً، اضاف، فانها تغدو كذلك عندما لا تستند الى اساس، وليس لها غاية.

كان نوع من المداهنة والتزييف يسيطر على الجو حولنا، وهو ما لم اكن اتوقعه، ابداً. لكن عليا سرعان ما اخلّ بشروط ذلك الحياد الكاذب عندما استدار عنهم، وهو يتمتم في لِحاه: «لو يتساهلون مع الناس كما يتساهلون مع انفسهم»؟ ولما مر صوته الغميق بلا امواج ولا هَبّات، اضاف بنوع من الأسف: «لو يعرفون انفسهم كما يعرفون الناس لما وقعت الواقعة التي ستقع»! وبعد ان كَبَتَ غيظه عميقاً، قال بصوت متحشرج، وكأن حلقه امتلأ غثياناً:

–لَمْ نجيء الى هنا لنتَفَكّه في أوْجُه الخلق، ولا ان ننبش قلوبهم، يا عمر؟

وكأن عثمان لم يسمع مما قال علي شيئا (وهو ما أثار عَجَبي) تابع كلامه برصانة مدهشة:

– وهو مثل بقية المحيطين به يريد تغيير العالم دون ان يجرؤ حتى على تغيير مقعده. ومما يثير العجب، اضاف، انه مثلهم يعتقد ان الاقوال تكفي، وحدها، لتبديل الاحوال.

لم يُطِق علي صبراً، فهَبَّ قائلا:

– عجبا يا عثمان؟ تريده ان يتخلى حتى عن الافكار التي تسكن نفسه؟

عمن كان يدافع علي؟ أكان يدافع عن احد لا يعرفه؟ أم كان يدافع عن «أحد» آخر لا اعرف انا عنه شيئاً؟ وهو ما حرَّك نزعة التمرد الميتة في نفسي. حتى انني كدت ان اشترك في الحوار الدائر حولي منذ اول المساء. ولم افعل سوى الصمت المقيت.

ولا زلتُ ارى ابتسامة «ابن الوراق» اللئيمة، ابتسامته الشامتة التي خَرَقتْ قلبي، تلك التي سبقت كلماته المنبثقه من بين شفتيه اللزجتين، وهو يُحلّل لي

وُيدَلِّل: «علي لا يدافع عن احد». وبعد ان سكت لُحَيْظة، متطلِّعاً في وجهي الذي اربَدَّ، اضاف: «انه، يدافع عن نفسه».

ولَمّا رآني صامتا والصخب العميق يملؤني اضطراباً، اكمل موضحا، وقد حسب انني، كالعادة، لم ادرك مما قال شيئا: «وليس ذلك عيباً، كما قد يخطر لك على البال، لان سقطة الكائن الاساسية لا تكمن إلاّ في تَخلّيه عن الدفاع عن ذاته. عن ذاته قبل كل شيء».

ولما كنتُ منهمكاً في ادراك بعض ماقال، تمتم بهدوء، وكأنه يعزّيني عن غبائي المتحكّم فيَّ، قائلاً: «الحياة غنية وشائكة، يا عزيزي، وتعقيدها يحتاج منا الكثير لأدراكه». ولكي يؤكد لي، كالعادة، انقضاضه المستمر على البلادة والكسل الفكري الذي كان يراه منتشراً حوله كالوباء، نَثَرَ امامي جِمْعاً من الأمل الذي لم يكن لي فيه مكان، ومع ذلك ظللت ساكتا، استمع اليه وهو يقول:

«والواحد منا، مهما كان بحرالغباء الذي يغرق فيه، لا بد له ان يتنفس هواء ذكيّاً، ذات يوم».

لم يُعزِّني ما قاله، بل زاد في كربي كرباً. كنت اعرف انه يريد ان ينبهني الى البلادة الكثيفة التي تسكن رأسي، إلا انه بدا وكأنه يريد، هذه المرة، ان يوحي لي (وربما لنفسه ايضا) انني بلا أفق معرفي ذاتي ممكن. وان تغيّري، او تطوري، امر ميئوس منه. وكنت احسه مؤمناً بما كان يقول، حتى ولو لم يكن على حق؟ وهو ما كان يثير في نفسي شتّى الأحاسيس، برغم صمتها الذي لا يعكره كلام؟

ولكن، لِمَ علينا ان نتغيّر، أن نتغيَّر بالرغم منا؟ صرتُ أتساءل صامتاً، والحَرَق يملأ قلبي. حَرَقُ السؤال البائس، والإجابة الناقصة عليه. وكنتُ أُضيف، مغمضاً عينيّ عن المنظر القريب: وهل بامكاننا ان نتغيّر حقا؟ مَنْ يستطيع ان يؤكد ذلك، او ان ينفيه؟ لا احد غيره؟ كما خطر لي في ذلك المساء الممتلىء بالأراعيب.

ومع ذلك، ليس ثمة مفر من مواجهة تطوّر الكائن، وتغيره المستمر، شاء «ابن الوراق» أم أبى؟ صرت اردد مشجعاً نفسي. لا، لم يعد اليقين الخادع الذي كان يملأ الفضاء، آنذاك: يقين السكونية البليدة، وبخاصة ما يفعم نفسي منه،

يكفيني. «يقين بلا معرفة تدعمه هباء. ومعرفة بلا سلوك ينقلها عدم».

وفجأة وجدتني اريد ان اتعلّم كيف احكي لا كيف افكر، فحسب. وبدت لي تلك «المشكلة الاضافية» امرا اساسيا، وان لم تكن تخطر لي من قبل على البال. من اين انبثقت تلك الرغبة المفاجئة في الكلام، ايضاً؟ وكيف لي بتحقيقها وانا لم اكن الا مستمعاً بامتياز؟

وما اثار دهشتي ان تلك المشكلة البسيطة والتي يمارسها الناس كل يوم، بدت لي أهم من مسألة «الخطأ والصواب» التي استبدت بي زمنا طويلا. أهَمّ، ايضا، من إشكالية «اليقين» الزائفة التي كانت ترقص، آنذاك، على كل لسان. وهو ما دفع «ابن الوراق»، ولا بد، ليخاطبني «بأخوة» واضحة، دون ان يكون لها ما يبررها في الحقيقة، قائلاً:

«انت تعرف ان الحياة ليست خطا مستقيما، وهي ليست خطا متعرجا ايضا. انها كتلة. كتلة من الأحاسيس، والأحاسيس المضادة. كتلة من السعادة (ولست ادري لِمَ تذكَّرَها الآن) الممزوجة بتعاسة بلا حدود. بلا حدود فاصلة بينهما».

ماذا كان يريد ان يقول؟ وكيف انتقل من هذه الى تلك؟! كدت اصرخ. كدت اصرخ عاليا، ذلك المساء: ماذا سافعل بغبائي؟ لكن صوت عثمان المباغت قطع الصرخة قبل ان تنبثق، متابعاً تعريفه المغرض للرجل:

– وهو من زَعانف دمشق الذين يعيشون من فُضولها. هؤلاء الذين لا حرمة لأحد عندهم، ولا لشيء، مهملاً كان، او مملوكاً.

وكأن عليّا لم يكن ينتظر الا هذه الكلمات ليثور. ليهبّ قائلا بصوت مضطرب ولائم:

– زعانف وسادة؟ زعانف لهم الفُضول ولنا الصَفايا؟

أهذا ما تقصد ياعثمان؟

قال ذلك وهو يملأ عينيه من وجه بكر الذي اصفَرّ؟ وبلا تردد صضاف بغيظ صَريح:

– عجباً؟ كيف تميّزون الناس وقد ولدوا أمثالاً؟

الفصل السادس

[١]

من المدخل الجانبي للسقيفة ولَجَتْ، بغتة، مجموعة «غريبة» أخرى من الشاربين، ذلك المساء. مجموعة بدت تحت ضوء النيون الاصفر الباهت وكأنها تتردد في الدخول وفي الخروج.

ومن موقعنا الذي يتوسط المكان استطعنا ان نحيط بحركات اعضائها الذئبية، وبنواياهم السرية حتى. لم تكن صدفة ان تتوسّط طاولتنا المزدانة فضاء السقيفة، إذن. كنا قادرين، من موقعنا هذا، على رؤية كل ما يجري حولنا، وما يُقال، اذا ما اردنا ذلك. ولم تكن الارادة تنقص أيّاً منا.

وهذه المرة، رأيت سِمات الاستياء ترتسم بوضوح على سحنة عمر، ومنها تنتقل سريعا الى وجه بكر الذي بدأ يتورّد خدّاً بعد خدّ. بكر الذي صار يتلَفَّت يمنة ويسرى لئلا يرى وجه احد من الداخلين الذين ما إن اجتازوا الباب الجانبيّ الضيق للسقيفة حتى توقفوا في الطرف المعتم منها. الطرف الابعد عنا. توقفوا وهم يجيلون النظر في الحاضرين. يجيلونه بحثاً عن مكان مناسب لهم، كما فكرتُ. وهل كان بامكاني ان افكر بغير هذا؟

احسستُ انني كنت على حق فيما فكرتُ فيه، وانا أتطلّع خلسة إليهم. ولكن أي معنى «لمفهوم حقٍّ» كهذا، لا يمكن التأكد منه، كما لا يمكن دحضه ايضاً؟ كما قال «ابن الوراق»، ذات يوم.

وقبل ان يتخذوا لهم مجلساً، رأيت صبي السقيفة الاقرع، الذي سمعتهم يُلَقِّبونه «بابن عابِس» يسرع اليهم. وبتصميم، يقودهم الى طاولة معزولة في طرف السقيفة القصي، وكأنه يريد ألاّ ينتشر وباؤهم فيها. طاولة لم تكن مهيئة لاستقبال احد من قبل. قام بتنظيفها، على عجل. وفوقها َمدّ، بلا اعتناء، رقعة حمراء مخْضَرّة من الاهتراء، وقال لهم «اقعدوا»؟ وهويقف فوقهم كالحِنْفيش.

يقف ليسجل طلباتهم التي بدأت تحور. ليسجل طلباتهم؟ ليعزلهم، بالاحرى، عن الآخرين، فكرت مبتئساً، ذلك المساء. فكرت برغم ضجيجهم الهازل وهم ينادمونه منشدين:

يا اقرع بن عابس يا اقرعْ
إنكَ إنْ يُقْمَع أخاك تُقمَعْ

لم يهتم الاقرع باللغط الذي تناثر منهم، ولا بما كانوا يطلبون (بشغب بيّن). ابتعد عنهم سريعاً، وسريعاً اليهم عاد. عاد يحمل أصُحناً شَتّى وخصاصات. لكأنه حفظ طلباتهم عن ظهر قلب. لكأنه يريد ان يخدع الحاضرين بتقديمه تلك الصحون الكثيرة لهؤلاء النفر المريب. تقديمها بلا مزية ولكن بحيطة مبالغ فيها، وهي لا تكاد تحوي شيئاً. و«هل يعرف الصحن سوى آكله»؟ كما كان يقول.

ومع ان العتمة كانت على اشدها في طرف السقيفة القصي حيث أُجْلِسوا، الا اننا، من كثرة التردد عليها، صرنا نعرف الرَوْز من بعيد. نعرف محتوى الصحون من طريقة شيلها وحَطِّها. ونعرف، ايضا، ان تلك العتمة المفتعلة، السائدة هناك، لم تكن صدفة ابدا. «فليس ثمة صدفة في الحياة». «في حياة الآخرين» على حد قوله. «الصدفة لنا نحن، لنا نحن وحدنا» كان يضيف بنوع من التعالي على الهواء. ولكن ماذا يريد ان يقول!

آنذاك، لم اكن افهم، لِـمَ كان «ابن الوراق» يُركِّز كثيرا، على «النحن والوحدنا»، هاتين. ومع ذلك كنت افهم شيئا مِـمّا لا افهمه.

لم تمنعنا العتمة التي لم تكن عفوية، اذن، من معرفة ما كنا نعرفه جيدا. «فالمعرفة معرفة محكمة، او هي نبوءة بلا جذور». «نبوءة لا تُصلِح حال احد، ولا تَصلُح لتكون معْياَراً للافكار وللاشياء». كما كان، هو نفسه، يؤكد.

بدأ عثمان يتململ. لكأنه يريد ان يفشي سراً خطيراً، ولا يجرؤ. اما علي فقد بدا وكأن به ناراً تأكل انحاءه، ولا أحد يَهُبُّ لنجدته. لإطفاء ذلك الحريق الذي سيلتهم نفسه، كلها، ان استمر.

واحسستني مدعوّاً للتقرّب منه. لتهدئة تلك النار التي لم تكن لتكف عن إحراق

احشائه المسكينة. كنت اريد ان اقول له كلمة لطف طيبة علني اخفف مما يعاني بَرْهماً.

كدت ألْمسه مواسياً. لكن تدخل عثمان المفاجيء جعلني اكف عن التفكير في كل شيء (حتى عما كان يشغلني، كثيرا، يومذاك) إذْ فاجأ الجميع بقوله المُدِلّ على مَنْ ولجوا السقيفة للتوّ:

– هؤلاء ليسوا من اولئك (يقصد المجموعة التي دخلت قبلهم والتي احتلت ركنا قصيا في السقيفة، هي الاخرى) وإن بدوا اقرب اليهم مشهداً. إنهم أشدّ منهم مسلكاً، واكثر تطرفاً منهم.

ولما رأى البَهْتَة تعلو وجوهنا، اضاف موضحا بسرعة، متوجهاً بالحديث الى عمر:

– انهم بعض زعانف دمشق وهُمّالها، أو صعاليكها، اذا شئتم. وهم قِلّة على كثرة الوالجين منهم.

وكأنه حسبهم يستزيدونه عِلْما، بسبب صمتهم المتواطيء، وبتأثير الخَدَر الذي بدأ يسيطر على فضاء السقيفة المحموم آخر ذلك الليل، صار يتمادى في تعريفاته المغرضة، وهو يقول:

– ومنهم «ابو النَسْناس الدمشقي»، ذاك.

أشار بيد خفية الى رجل قحة، ذو هامة عظيمة بقليل من الشعر، وبأنف ضخم يكاد ان يسد الفضاء امامه. وتابع بالهدوء، ذاته:

– وهو صعلوك الشام الشهير، ذو الصوت الأبَحّ، الذي لا يتورع عن الغناء منذ اول جرعة، كما تعرفون.

ولم يكن احد غيري يجهل شيئا مما قال، كما بدا لي، آنذاك. ولكن هل سيغيّرذلك من الامر شيئاً؟

وبنبرة مليئة بالايحاءات، اضاف معقباً:

– والصعاليك، كلهم، من الرجال الا امرأة واحدة، هي «سُجاح الدمشقية» متنبِّئة الحارات، الملقبة «بأم مَكْر». وهي امرأة غريبة الاطوار، تَدَّعي ما يَدّعيه

الرجال، وتنافسهم فيه، ايضا.

وبعد فترة قصيرة من الصمت الذي بدا وكأنه كان ضرورياً لكي يرتب افكاره بشأن تلك المرأة، اضاف متوددا:

– وبرغم جهودنا الصادقة لم نتوصل، بعد، الى معرفة حقيقة هذه المرأة التي سيكون لها شأن كبير، إنْ لمْ نُقَلِّم اظفارها منذ البدء، كما نُقِل الينا. و..

ولا بد انه اراد ان يقول «ولن يطول الوقت قبل ان نعرف كل شيء عنها» الا انه لم يقل شيئا. لم يقل شيئاً لأن الصوت الأبَحّ، ذا النبرة المثيرة، هيمن، فجأة، على فضاء السقيفة الذي بدا وكأنه أُصيب بخدر لذيذ.

كان «ابو النَسْناس» قد بدأ يغني.

بهدوء بدأ الدمدمة اولا. ومن ثمَّ اعلى، فاعلى. كان يرتقي الادراج بترتيب. ادراج صوته النابع من نفس مفعمة بالريبة والابتكار. لا لم يكن ما أدّاه غناء. ولا هو شيء آخر ايضا. كان نوع من الانتشار الدافيء الذي يتخلل الكائنات والاشياء بلا عناء. حتى ان الاقرع «ابن عابس»، نفسه، وهو الذي لا يستقر على حال من القلق، وقف يستمع مذهولاً الى الصوت:

وكلُكُمُ قد نال شِبْعاً لبطنه

وشِبْع الفتى لؤم اذا جاع صاحبه

غّنى بحرقة ظاهرة. غنّي واعاد. واعاد ترتيل الكلمات على اكثر من منحى ومن طريقة.

كنت استعيد، مستمعا اليه، قراءة «ابن الوراق» العتيدة لذلك البيت: «وشبع الفتى ظلم اذا جاع صاحبه». استعيدها وانا امتليء اضطرابا.

استبد الطرب باصحابه قبل ان يستبد بالآخرين. صاروا، هم ايضا، يدمدمون مثله. يدمدمون بلا رهبة او تذمير. يدمدمون وهم يتعاشرون ببذاءات كثيرة. وفجأة صاروا يستجدونه: َغنِّ. َغنِّ لعروة بن الورد. غن لعروة. وكأنه لم يكن ينتظر منهم الا طلبهم، هذا، جرع حثالة كأسه الواجف، وهو يُبادِر الغناء من جديد:

ذريني للغنى اسعى فاني
رأيت الناس شرهم الفقير
واهوَنهم واحقرهم لديهم
وإنْ امسى له َنسَب وخير
ويقضي في النَديِّ وتزدريه
حليلته وينهره الصغير

ورأيت بعض اصحابه يقوم من قعدته بعنف. يقوم واقفاً كالعربيد. يقوم ناظراً في الحضور بنوع من التحدي والاغتصاب، شارباً كأسه الفارغ حتى الثمالة. ماذا كان يَعُبُّ من كأس بلا قعر ذلك الكائن الاعجف، ذو الهامة الغريبة؟ وبأي زَيّ كان يَتَزَيا؟

احسست بنفسي تنقاد اليهم بلا عنان. كنت احسني، انا ايضا، اريد أن أقوم واقعد. اقوم من هنا لاقعد هناك.

ولكن كيف؟ كيف اسحَبُ جسدي من رَسَنه السرّي الذي اسلَمْتُه لهم، طوعاً، لأجُرّه الى حيث هؤلاء؟ لكأن نوعاً من الشلل الخفي يمنع كل شيء: يمنع الحركة كما يمنع السكون. شلل من اي وجهة نظرت اليه، عرفت فيه شلل الَركْدة، والخنوع.

كيف لي ان افعل، اذن؟ كيف لي ان احيا من جديد؟ ان انتقل (بارادتي) من هذا المقعد الصغير الخانع الى المقعد المجاور له، فقط؟ وكأنني كنت الوحيد في الحضور الذي كان يتعذّب لتفاهات «فكرية» كهذه، رأيتهم يتَمايَلون حولي طرباً، وانا غارق في السكون. بلى؟ تَمايلوا، كلهم، الا عثمان وانا. حتى عليّ، نفسه، صار يردد الانغام الشجية لذلك الرجل الذي غَيَّر غناؤه جوّ السقيفة وادراكها.

ولاول مرة صرت ألمح على قسمات عليّ اسرارا وعلامات: اسرار امل «علمه في الغيب»، وإن كان صدره ممتلئا به. وعلامات فَرَح خفي لم أرَ مثله على قسماته، من قبل. آه؟ ما اجمل ان يفرح الكائن عندما يكون تعيساً. كنت افكر في هذا، وانا لا افكر في شيء.

كان بعض القوم قد توقف، فجأة، عن الاكل. وبعضهم الآخر أعاد اللقمة التي كان قد قربها من فمه الى الصحن الذي َنشَلها منه. وحدها، كؤوس الشراب ظلت تتهاوى في حُلوق الجالسين.

لحظة صمت ودُفْلى. لحظة هي لحظة الصَبِّ في كأسه من بقايا كؤوس الآخرين، بعدها عاد الصوت الجليل الى الحياة. عاد اليها بعد ان خبا نوره برهة. لكن تلك البرهة السريعة الزوال كانت كافية لقلب الامور وتخليلها. بعد «عرْوة» صار «ابو النَسْناس» يغنّي «للشنْفَرى». يغني بلوعة، مهيمناً على الفضاء، من جديد:

وام عِيالٍ قد َشهِدْتُ ُتعيلهم
اذا أطَعَمْتهُمْ أوْتَحَتْ وأقَلَّتِ
تخاف علينا الجوع إنْ هي اكثَرَتْ
ونحن جياع أيّ آلٍ َتألَّتِ

وخَبَطَ الطاولة المكسوة بالدمسق الفاخر بكر. خبطها بعنف وهو يكتم الصرخة التي كادت ان تغادر نفسه ولم تغادر. كان يتراعد وهو يحدق في فضاء مستعِر بلاضفاف.

يتراعد وهو يتمتم:

- يا عمر؟ يا عمر؟

وبدأتُ ابكي. ابكي في اعماقي التي لم تجرؤ على اظهار دمعها الفَوّار. دمعها الذي كنت ابلعه دمعة، دمعة.

تذكرت امي البعيدة جسداً وروحاً. تذكرتها كلها. امي التي كانت تغزل الصوف، وتعجن الزبل، وتحطب الشوك، وتنادم الانعام. امي التي حاشَتْ لي الكَعّوب والكُرُمّ والحَيْلَوان، والتي نَبَشَتْ معي غيران الجرابيع المضفورة من اللحم لتشويها لي على جمر خشب البُطْم الحارق كالصُوّان. تشويها لي مكتفية منها بالرائحة الفوّاحة في ليل الحَماد العميق. امي التي لم تعد أُمّاً لأحد.

كنت، وانا ابكي، أتساءل في اعماقي المحشوّة بالقهر:

مَنْ قَسّم البشر الى طبقات؟ ولم يكن الجواب على الغبيّ صعباً. ولكن ما جدوى الاجوبة على اسئلة تطرح دائما:

الآن، ومن قبل، والى الأبد؟

صرتُ اعرف ان السؤال الذي يُطرَح لا تستحقه اجوبة العالم، كلها. ما جدوى ذلك كله، اذن؟ للعلم؟ علِمْتُ كل شيء، كل شيء اريد ان اعلمه. كل شيء وانا جالس على هذه الطاولة، هنا، هذا المساء.

ولكن هل ينفع ذلك احدا؟

[٢]

ذلك المساء، احسست بالجوع يولي الادبار. يوليها من مجرد النظر الى ما كان يحيط بي من طُعوم ومن ملفقات.

من صحون ومن مشاريب. «والعين تأكل قبل الفم احيانا».

وبدلا من الرغبة في الاكل، التي لم تكن لترتوي عندي، من قبل، ملأتني، الآن، رغبة ملحة «لمعرفة المكان». معرفة مداخله ومخارجه. ذلك المكان الذي لم يكن ليشغل بالي قبل تلك اللحظة الظامئة الى المجهول. لحظة «الخدر والصعاليك».

كدت اسحب علياً من كُمِّه. اسأله التوضيح، الا ان الهرج المتزايد حولي شلَّ طاقتي على الكلام، وعلى الحركة، ايضاً.

لا، لم تكن تلك هي المرة الاولى التي كنت اشعر فيها بأنني مقيَّد بقيود سرية لا فكاك منها، ولايدركها احد غيري. قيود تربط لساني قبل ان تربط اعضائي الاخرى. تربطه وتضنيه حتى اكاد احسه مغموراً بِلَبن رائب أُسيل، قصدا، عليه.

وكان ذلك يزعجني الى اقصى حد، الى حد الشعور بأنني أخون نفسي بأرادتي، لأنني كنت «اقبل» عجزي الكاذب عن الكلام. اقبله وأتحمّله دون تذمر، ايضاً؟

أتكون الغبطة الحقيقية، اذن، هي القدرة على الكلام؟ الكلام الذي يؤدى الينا، وينشأ منا. وعلى التمتّع به، قبل كل شيء آخر؟ والا لِمَ تراني كنت اغبط

«المتكلمين» من الناس اكثر من الميسورين منهم؟ ولِمَ تراني لم اكن احسد إلاّ عَرّافي الكلام وأساطينه، اولئك الذين يعرفون كيف يتكلمون وكيف يسكتون.

كان الجو الغريب الذي يسود السقيفة، آنذاك، هو الذي يستبد، في الحقيقة، بعواطفي واهجاسي. هو الذي كان يملأ نفسي برعب خفي لا مبرر له. ولاول مرة، اصبح الأكل، بالنسبة لي، امراً ثانوياً جداً، مع انني كنت بأشدّ الحاجة إليه. حتى انني لم أعد اشعر «بجوعي التاريخي» العتيد. جوعي الذي كان المحرك الأساسي لنشاطاتي، كلها: جسدياً ونفسياً، واخلاقياً؟ ولكن مَنْ كان مهتَمّاً بذلك، غيري؟ غير مَنْ لا يحق له حتى تبديل المكان الذي يقعي فيه؟

رعب؟ رعب كدت الجأ الى عَلِيّ لأبعاده عني. ولكن «كيف يُطمئن الراعبَ مرعوبٌ»؟ على حد قوله.

كانت السقيفة التي جمعتنا، ذلك المساء، في شارع ضيّق وقديم. شارع جانبي مدخله مظلم مثل مخرجه. كان الدمشقيون يلجؤون اليها ظلمة. يختلسون النور ليقربوها. يلجونها بنوع من التوجّس والخشية، وكأنهم يمشون في البحر.

كان القادم من ساحة «الحجاز»، والصاعد شمالا نحو ساحة «عَرْنوس»، بعد ان يعبر النهر المليء بالدَبَش والنفايات، لا بد له ان يميل في منتصف الطريق يسارا، والِجاً، في هيئات الابنية ولُغاها، لكي يصل بأمان الى مدخلها الغاطس في الظلمة والَصرير.

ثلاثِ شُوَيْرِعات كانت تتلاقى منحدرة نحو تلك الفوهة البَلاّعَة بلا حساب. فوهة الخفر والروع. الفوهة المحمية بابنية قديمة على حافة الانهيار. من يشرح لي الامر على نحو آخر؟ من يشرحه لي على عكس ما افكر به؟ من يستطيع ان يحميني من ادراكي البليد؟ ادراك الفهم الأوّلي، والحاسة العقيم. الفهم الخمج اللاصق بالجسد وبالروح منذ ان كان العقل لِبْنَة من طين؟

ذلك المساء، ملأتني رغبة ملحة لمعرفة مَنْ كانوا يحيطون بنا في السقيفة. معرفة افكارهم، ومزاياهم. كنت احسني فارغاً، مثل جُرْن بلا ماء، وكان الآخرون بالنسبة لي، مركز احلامي. احلام ادراكي الوهمي لما لم أكن أملك حقيقة. كنت

احسني كالكلب الأليف: يمالىء القريب، ولا يؤذي الغريب؟

كنت احب ان اعرف كل شيءعن بشر السقيفة، ذلك اليوم. ولكن اية معرفة ممكنة في فضاء ممتلىء بالنفور؟

وفجأة، قررت ان اقوم. ان اتحرك. ان اهجر المكان الذي كنت التصق به منذ أول المساء، أن... إلا إنني احسست بعلي يسحبني من ذيلي الى اسفل. يريدني ان أقعد على عجل، ولم أكن قد أكملتُ وقوفي، بعد. ولكن، لماذا كان يريدني ان اجثو على ركبتي وقد جمعت كل شجاعتي لآقف عليهما!

جلست منصاعاً، واضعاً نفسي في مكانها الذي خصص بدقة لها، منذ البدء؟ جلستُ وانا أفكر في الامر الذي لم أكن أدرك منه إلا قشوره. كنت بحاجة الى وقائع العالم، كلها، لأدرك ابسط الاشياء. اي غباء مرعب اكثر من هذا؟ جلستُ، وانا اصرخ في اعماقي: يا مسكين؟

وكالبرق، مرَّ الاقرع بنا متجهاً، هذه المرة، إلى طرف السقيفة القصي، دون ان يتوقف، كالعادة فوقنا. لكأنه يُلاحق قطيعاً من الثيران الهائجة التي ستدمر كل شيء إنْ لم يُحِطْ بها على الفور.

مرَّ وهو يختلس النظر، مثل من يرصد أسدا في غابة، الى وجه بكر الذي كان يتَلامع في نور السقيفة الخافت. يختلس النظر إليه؟ كان يحاول ان يلتقط، بالاحري، كل ما يرتسم على محيّاه من علامات. كان يراقبه عن قرب، اذن؟ سألت نفسي متعجبا. ولم استطع ان امنع السؤال الذي وقف على حافة لساني من الانزلاق: لِمَ ينظر الاقرع الى بكر بمثل هذا التَصَيُّد الذي يبلغ حَدّ التَعَبُّد؟

وقبل ان اسأل علياً عمّا خطر لي، نظرَ عليٌ اليَّ وهو ينظر، في الوقت نفسه، إلى هناك. إلى حيث إلْتَمّ شمل «الزعانف» كما كان عثمان يسميهم (وإن كان يحلو له ان يدعوهم الاخوة).

نظر إليهم بقلق دون ان يقول شيئا. كان يتنفّس عميقاً ساحباً بعض الهواء الذي لم تلوِّثْه، بعد، سُحُب الادخِنَة التي اخذت تتكاثر، مختلطة بانفاس الساهرين. كان ينظر إليهم متعاطفاً، وكأنه يدرك ان اصواتهم الحارقة ستنطلق

بعد قليل. «اصواتهم التي كان يحلم ان تنضم الى صوته، ذات يوم» كما يزعم «ابن الوراق»؟

ورأيته يتهيّأ ليتكلم. وتهيّأت لسماعه. ولم يقل شيئاً. لم يقل شيئاً لان الضجة الخافتة التي انطلقت من المجموعة الغريبة التي ولجت السقيفة قبل قليل، تحولّتْ، فجأة، الى نشيد صارم ومهيب:

هيلا يا قامِعْ. هيلا. هيلا.

مفتري وطامعْ. هيلا. هيلا.

خدَعتكْ ليلة.

ووْقعَتكْ وَيْلة.

ومَسْكَطَكْ فاجِعْ. هيلا. هيلا.

القسم الثاني



الفصل الاول

[١]

صار علي يتلَوّى. من اي شيء كان؟ من المغص ام من الضباب؟ من النشوة ام من التودد الى الاصوات التي كانت تتلاقى بحميّة في فضاء السقيفة الملتهب، ذلك المساء؟ من يستطيع ان يعرف ما يدور في خلد احد آخر إنْ لمْ يكن في سعة من الحكمة والدهاء؟ اما انا فكنت ارتجف. ارتجف وانا استرق النظر الى وجوه الحاضرين، وقد علَت البَهْتَة اسرارهم وحناياهم.

ولكن، لمَ كنت أرتجف، انا؟ انا بالذات، احد الجوعى والمقموعين؟ مَنْ حَطَّني في هذا المكان الخامِل؟ ولمَنْ كنت في الحقيقة انتسب؟

لا، لمْ اكن على بيّنة من امرى، بعد. وكيف يمكن لي ان اكون، وانا لا زلتُ «في الطور الزاحف» كما كان «ابن الوراق» يقول. يقول بالحاح كلما وجد الى ذلك سبيلاً، وكأنه مكلَّف بتذكيري بما كنت ارغب، بقوة، فى نسيانه. فلا توقّفْ عن التَمَخُّض والاهتزاز؟ امرتُ نفسي حاقدا وانا اغمض عن اللمعة عينيّ. اغمضهما لينفتحا دون امر مني.

لا، لم تكن نفسي لتأتمر، آنذاك، بامري. كانت تسكنني وهي، في الحقيقة، لهم. هذا ما ادركته بعد ذلك بزمن طويل.

ولكن «أنّى للمرء ان يتخلّص من نفس تسكنه حتى وإنْ كانت عدوّة له الا بثورة حقيقية»؟ كما كان يؤكد باستمرار. يؤكّد؟ يجتَرُّ اقواله التي صرت احفظها غيبا، بالاحرى. حتى انني صرتُ ارددها منذ ان اراه. اردد القول المناسب في الظرف المناسب، وكأنني مكلّف باعادة ما يقول، كما كان يأمل هو ان يُقال.

اراد ان يصنع مني «كائناً متمرداً» فخلق مني «امرءاً مُردِّداً». صرت ادرك، الآن، هذا. ادرك ان «المنظور الثوري» لا يُوهَب، ولا يُنْهَب، بل يتوصل المرء اليه بارادته ووعيه. ولكن أنّى لي، آنذاك، بادراك هذا؟

قطع صوت بكر الحاقد والرصين بقية الفكرة التي كانت تملأ نفسي. قطعها قبل ان اصل الى غاية او جواب، وهو يتساءل، بحدّة:

– علام، يا عمر؟

ولم يُزِدْ بكر. لم يوضح الفكرة التي كانت تشغله، والتي شغلتنا جميعاً، ذلك اليوم. كان التوهّج، والاستياء، واضحين في أقاريره، وسريرته. قال ذ لك ولَفّه الصمت والانتظار. لكأنه ترك الجواب لمن هو جدير به. وكان عثمان هو السَبّاق الى القول:

– بشر يغنون بَلْواهم.

قال مُسابِقاً، وعلى شفتيه ابتسامة خفية لا يراها الا العارف بحُرَيْكاته. لكن عليّا لَقَطها حتى قبل ان ترتسم على شفتيه.

ولذا، ربما، توجهتُ بكياني كله الى علي. اريد ان افهم شيئا مما يحيط بي. لكن عليا كان يستدير بكليته اليهم. الى ذلك النفر الشئيم، كما وصفهم عثمان. كان ينظر في فراغ اسود. فراغ يبتلع اجسادهم المرميّة في ركن السقيفة القصي، ولا يسمح الا لاصواتهم بالوصول الينا. بلى؟ رأيته يتملّى بامعان قسماتهم الغاطسة في الظلمة الكئيبة دون ان يراها.

ولكن «ليس بالضرورة، كما قال ابن الوراق، ان يرى المرء ما يريد ان يراه، مجسدا امام عينيه، ليدرك خصائصه الاساسية. يكفي ان يحس به. ان يحس به بحب وسماحة»؟ وهو ماكان يُؤطِّر، آنذاك، نظرة علي. النظرة المتطلّعة الى المجهول، في ذلك المساء المليء بالنُذُر والأعاجيب.

كنت، وانا أُلاحقه بعيوني، اقرأ بعض الراحة على قسماته الثخينة التي لا تكشف، الا نادرا، عما يدور في خباياها. احسست به يحكي؟ يحكي (كالعادة) لذلك الأحد الذي لم اكن اراه. اقتربت منه (برغم ذلك) اكثر مما كنت قريبا، علّني اسمع رَوْح ما يقول. ولم اسمع سوى الهمس العميق. لمنْ كان يهمس في وجه الظلمة المريبة عَلِي؟ وعَلَى مَنْ كان يسدد الانظار؟

صوت عثمان المباغِت هو الذي اخرجني من صرصراتي وأهابيلي. صوته

الحاقد، المتحيِّز، الأكُود، وهو يقول واصفاً جماعة الاغنية التي خَرَّبَتْ طمأنينة بكر، مُنقِّطا الفاظه بلؤم وبلاحذر:

– جمع من السكارى والأفّاقين، رؤيتهم وحدها، حتى قبل سماعهم، تكفي للأحاطة بالحقد العميق الذي يكنونه للخلق.

وكأن تدخل عثمان زاد في مقت بكر (مقته لنفسه ولجماعته كما بدا لي) أعاد السؤال باستياء، من جديد. أعاده بالحاح، متجاهلاً ما قاله عثمان، وما كان ينوي أن يقول:

– ولكن، علامَ يا عمر؟

اعاده بلَجَّةٍ لا تُخفى، وهو لم يعد ينظر احداً. لكأن السؤال، وحده، كان يكفي ليعرف كل شيء. كل شيء كان يريد ان يعرفه. ووجدتني افكر في صمت: أيكون على علم بكل ما يسأل عنه، وهو مع ذلك لا يكف عن السؤال؟

وعندما اعربت «لابن الوراق» عن هواجسي المعذِّبة، هذه، قال مُتباسِماً بخبث: «وهل يسأل الجاهل عمّا يجهله»؟ وعندما رأى الحيرة تملأ ذاتي، اضاف بنوع من التباهي، ولسانه الرطب ينثر حولي ثعابين لُعابه العميم: «ياعزيزي»؟

لم اكن احسب، عندما غادرت بادية الشام، انني سألتقي ببشر من نمط هؤلاء. كان الفقر المدقع الذي كنت اعيشه يثبِّط كل حلم لديَّ، حتى ولو كان حلم لقاء عابر. وكنت، لشدة بؤسي، اعتقد «ان المال وحده، الذي يفتح الابواب للكائن». ابواب العالم وابواب الحياة (كما كان عثمان يردد). الا ان عليا، كان يعترض بشدة كلما سمعه يكرر في حضوري مقولته الخبيثة، هذه (خشية ان اصدقه) قائلاً: «لا يا عثمان؟ العقل هو الذي يفتح للكائن الابواب. اما المال فلا يعدو ان يكون مفتاحاً صغيراً بلا ضمير». وبعد ان يتطلّع إليَّ بنوع من الوِثْقَة والوجد، يضيف مُحذِّراً: «المال يفتح الباب لدخول بلا خروج؟ إنه يغلقه وراءك في اللحظة التي يفتحه لكَ فيها حتى لا تنفذ، ابدا، مما دخلت فيه».

كنت استمع اليهما والحقد يأكل نفسي. حقد عليهما معاً، فانا لم اكن املك لا هذا ولا ذاك. كنت استمع وانا افكر في شيء آخر؟ شيء يتعلّق بالآخرين (لا بي،

كما هو متوقّع مني). كنت افكر في صمت: لِمَ يريد بكر أن يعرف «شُوَيْئاً» عن هؤلاء، مع انه يعرف كل شيء عنا وعنهم؟

وبدا لي أنه كان بحاجة الى احد يحكي له ما يريد، وبخاصة عمّا يعرفه جيداً، حتى ولو كان ما سيحكيه بلا شأن؟ ولذا، ربما، تطلّع بشكل مغرض الى عينيّ عثمان اللتين َشعّتا، فوراً، بنور كاسح ومريب. لكأنه لم يكن ينتظر من بكر الا هذه البادرة ليبدأ احاديثه ورزاياه. ولا بد انه كان يخطط لما سيقول، منذ وقت طويل (كما دلَّتْ اقواله)؟ وهو ما فضح تأخره المفتعل، وتمهّله غير المعهود في الكلام. حتى انني احسسته يبالغ في التردد، وفي اصطياد اللحظات المناسبة للبدء بالحديث؟

تأخر عثمان كثيراً، على غير عادته، عن التعريف بهم، تعريفاً ملائماً للموقف «المتأزّم» الذي كنا نغرق فيه.

كدت اضحك فرحاً: فهذه هي المرة الاولى التي احسسته يتردد فيها. يتردد في الاقدام على فعل «مجيد» كهذا: فعل «التدليل المغرض»، كما يقول علي، بأناس يجرؤون على الحركة والكلام. يجرؤون عليهما في حضرة بكر وعمر!

كدتُ اضحك؟ لا؟ كآبة بلا حدود ركبتني، ذلك المساء. كآبة جعلتني ابتعد فورا عن كل بهجة ممكنة. اكتفيت، كالعادة، بالصمت، متابعاً نظري البليد الى المحيط.

ولا بد ان عليّا كان يعرف كل شيء. كل شيء عما يعرف عثمان (وعما لا يعرف) لانه بدأ يتحرك في مكانه، مرسلاً أشعة عينيه التي لا تخطيء إلى عثمان، وكأنه يحذره من مغبة القول (وللقول فتنة ومتعة، كما يقول)؟ الا ان عثمان خيَّب ظنه (وظني) عند قال بصوت مليء بالتحدّي والغرور:

– الرجل ذو الوجه السلوقي اليابس هو «حُرْقوص الدميمي». وهو رجل بِدْعَة. يعرف كيف ينقل أهجاسه واحلامه، وكيف يستدرّ عطف العامة والسائعين. وهو، كما قيل لنا، من اطراف الارض البعيدة المُحادِدَة للفَلاة.

وبعد ان تنفس بهدوء، اضاف:

- وهو رجل سيء الطوية. لا يخشى احداً، ولا يحترم نظاماً. لا يتبع الا اهواءه و مزاياه. وهو مستعد لكي يموت من اجل الدفا ع عن رغباته و آرائه. الحياة عنده مقسومة الى قسمين: ما يعتقد هو به، وما لا يعتقد.

وفجأة، سكت عثمان؟

سكت وقد رأى بكراً يدخل في حال من الركود الذي يصعب التغلّب عليه. ركود قاطع للشهية. كان اي منا يستطيع، من مجرد النظر السريع، ان يرى المغص يمشي معربدا في قسماته وفي حواشيه، مثل ثعبان يقطع درباً تعوّد، منذ زمن طويل، على المرور فيه.

وكأن عليا اراد ان يُجْهز على ذلك الحوار الجائر الذي بدأ بلا مزيّة، وكاد ان ينتهي بلا اثر، حوار بلا «مشروع تاريخي»، على حد قول «ابن الوراق»، رأيته يتململ، متحفِّزاً، وكأنه يتهيّأ ليقول ما لم يكن في الحسبان. الا انه ظل ساكتاً برهة، وهو يلاحق الإشارات. إشارات الغيب التي كانت تجول امام عينيه، قبل ان يقول بحدة:

- لنكُفّ عن تلفيقاتنا، ياعثمان؟ ولننظر الى الناس بلا تحيّز او ريبة.

وبعد ان شحذ النَفَس الذي استعصى عليه لحظات (بدت لي شديدة الطول)، اضاف بكثير من الحكمة، وبلا توتر، هذه المرة:

- الناس ليسوا، دائما، بَلْوى، ولا هم، دائما، متواطئون. اننا نحيا، شئنا ام ابينا، بينهم، واكاد اقول..

ولم يدعه عثمان يتم جملته الاخيرة، اذ قال بحدة فائقة:

- تتكلم عن الناس، وانت اقلّنا معرفة بهم؟

ولما بدا عثمان ضعيف الحجة في كلامه الذي لم يكن توتره يتناسب وما كان يرغب فيه من اقناع الآخَرِيْن، أضاف متمهِّلاً، هذه المرة:

- الناس ليسوا شياطين، حقا، الا انهم ليسوا ملائكة، ايضا. وهو ما يهمنا.

- لعثمان، قال علي، رأيه الذي لا يُطمَأنّ إليه؟ (وتطلّع إليهما وكأنه يُشرِكهما في الامر) اضافة الى انه رأي منحاز، سلفاً، إن لم يكن مغرضاً بامتياز.

وقبل ان يرد احد منهم عليه، اكمل بنوع من التوتر والاستعلاء: اما الحياة فلها قوانينها وانظمتها الخاصة بها. وسياقها لا يُطابِق، بالضرورة، ما نتمنّاه، حتى ولو كنا في قمة السلطة والنجابة.

نظر عثمان حوله بامتعاض وهو يستمع إليه. لكأنه يهيّء الجو لما سيقول. وبتصميم رد متعجّلاً، وكأن الكلمات (لا الافكار، فحسب) كانت تتسابق فوق لسانه:

– أنت مخطيء ياعلي؟ للناس مصالح. وتحركهم رغبات. وهم لن يتورعوا عن استعمال كل وسيلة من اجل تحقيق رغباتهم، والحصول على ما يريدون الحصول عليه.

وضَجَّ علِيّ وكأنه لُسِع نارا:

– واي ضير في ذلك؟

وبالحدّة، نفسها، تابع اعتراضه:

– أتريدون ان نُخْلي الناس من أرواحهم؟ ان نجعلهم خرافاً يرعون في مراعينا القاحلة. أما زلتم تتوهّمون بان الخلق لا يعرفون شيئا، عنكم، وهم يعرفون، في الحقيقة، كل شيء؟ عجباً، لسياستكم الكابتة للنفس، هذه، والقاتلة للروح؟

وقبل ان يرد احد منهم عليه، استمر في الكلام، وكأنه يريد ان ينتهي هذه المرة من أعجافه ونُفوراته، فقال بعزة وخُيلاء:

– انا مخطيء؟ وأيّ ضيْر في ذلك، يا عمر؟

ولست ادري لِمَ توجه بالحديث الى عمر مع انّ مُحاوِره كان عثمان. وكانت تلك هي المرة الاولى التي يشغلني فيها شاغل كهذا. وسرعان ما تبخر ذلك النَسَمُ من نفسي حين جاء صوته المُلَوّع من جديد، وكأنه يتبنّى حتى الاخطاء التي لم يرتكبها، عندما قال:

– فمنْ لا يخطيء لا يتعلم.

وكأني به اراد ان يُجذِّر رؤيته الجريئة هذه، إذْ اضاف، بعد توقف قصير عن

الكلام، بحسم:

– خلق الله الناس كَثْرَة وفُروقاً، ولم يخلقهم واحدا، لا جسداً، ولا فكراً، ولا رغبات. لماذا تريدون تبديل ما خلق الله؟ لماذا تريدون تبديل ما لا يتبدّل؟

– تبديلهم؟

ردّ عثمان بسرعة لم اكن اتوقعها منه. رد، متعجباً، وهويؤكد العكس (العكس الذي خُفِي على عَلِيّ، كما اراد ان يفهم الآخران من اعتراضه المتعمّد) فقال بتُؤدة، وازِناً كلماته:

– نحن لانريد تبديلهم (أكّد من جديد، وأضاف). نحن نريد ان نصنع منهم جماعة واحدة تكون كالبنيان المرصوص. جماعة لها نظرة متجانسة، وذوق متماثل، ورأي واحد.

وبعد ان نظر إليهما بنوع من التباهي، وكأنه فَكّ لغز الحياة الأخير، تابع: وكل ذلك لمصلحتهم، هم، قبل ان يكون لمصلحة أي منا.

ودون ان يعطي الفرصة لأحد ليرد، أو ليعترض، أكمل بحزم:

– انت تعرف ان تفريق العباد لا يخدم احدا. وانت لا تجهل ان قوة الجماعة في تعاضدها. وتعاضدها يكمن في تجانسها.

– بلى؟ اجهل ذلك. اجهله واجهل كثيراً غيره.

قال علي بنوع من الاعتداد بالذات، وهو يتطلع حوله باضطراب. باضطراب اعتراه، بغتة. لكأنه كان يكتشف، للتوّ، جسامة البعد اللاانساني الكامن في ذلك الهرج السائد في الفضاء الدمشقي، آنذاك.

[٢]

تناهض بكر بهدوء،رافعاً رأسه الهائلة الى اعلى. تناهض لينظر، مع الناظرين، الداخل. لينظر إليه باعتداد فطري قبل ان يعود الى هيئته السابقة، باتزان.

اما علي فقد ظل ينظر عبر الزجاج المليء بالغَبَش الى البعيد. الى كائنات لا

تُرى بالعين (وان بدت له بهيئاتها). بدا وكأنه يتهيأ ليحكي. وتهيأ عثمان، كذلك (او هكذا ظننت). لكن الهمس المفاجيء الذي ملأ فضاء السقيفة جعلنا نحْتَرِفُ، كلنا، لنرى الذي أثار، بمجرد عبوره الباب، كل ذلك؟ ولم يكن إلاّ «ابن الوراق»، نفسه. وكأنني كنت على موعد معه، رفعت رأسي قليلا ليراني. ليراني في مكاني.

لم يحتمل عثمان ذلك التخلخل المريب، وقد اعقبته ضجة صامتة، فقال بنوع من الاستفزاز الذي لم ارَ له محلاً (وان كنت لست حجة في الرأي)، قال دون ان يسأله احد منهم:

– هذا هو «الشكّاك الأعظم» الملقّب بأبي نَمّام (بالنون أكّد). قال ذلك بنوع من الصلافة والبرود، وكأنه لم يكن يُعَرِّف بأحد من الناس، بل بظاهرة غريبة.

لم افهم مماقال عثمان شيئا. ولذا بدت لي جملة: «الشكاك الاعظم» صيغة بلا محتوى او موضوع. صيغة واقفة في الفراغ. في فراغ نفسي الهائل. بحاجة الى بيان وتبيين. ولكن كيف؟

اما علي فقد أشاح بوجهه مستاء. ناظرا، عبر الوجوه المحيطة به، الى البعيد. الى «قاسيون» الجليل، حيث سماءدمشق مفتوحة مثل كتاب لا يقرؤه احد. لا يقرؤه احد غيره، كما فكرت، صامتاً، ذلك المساء.

وكأنه أتَمّ القراءة، فعلاً، قال، بعد فترة من التأمّل العميق، وبه نوع من الاحتجاج الملتبس الذي يصعب تفسيره:

– لماذا تبخس الناس حقهم، يا عثمان؟؟

وأضاف، وهو يبدو في غِنى عن كل جواب:

– وانت تعرف أن الشَكّ في محلّه يقين؟

– أبْخسُ الناس حقهم؟

قال عثمان متعجِّباً، متجاهلاً نظرية «الشك واليقين» التي «يتاجر» بها علي، على حد زعمه، قبل ان يضيف بحدّة، وقد ضاق ذرعا بمداهمات علي وتنكيده المستمر:

– أوَلمْ تَرَه كيف يتصرّف؟ وكيف يحكي؟

وكأن عثمان لم يعد قادراً على التوقف عن الكلام، او كأن في نفسه أحداً آخر يتكلّم تحت ضغط كبير، أكمل باندفاع يعجز العقل عن التحكّم فيه:

– كيف تدافع عن رجل، كهذا؟ رجل ينظر بين قدميه بدلا من ان ينظر في أوجه الخلق. ويكلمهم مُتَساقماً وكأنه سيفقد الوعي قبل نهاية الكلام. وهوإلى ذلك نَمّام، ونَـقّال سوء. ماذا تريدني ان اقول عنه وبه؟ وكيف لي ان اميّز الغثّ عنده من السمين، وأحجياته، حتى لا اقول حججه، أوْهى من بيت العنكبوت!

واضاف بسرعة، وكأنه يُغالِب احداً لا اراه:

– إنه لا زال يحسب ان الحياة مجموعة من المعتقدات. وان خيرها ما يعتقدون به، هو واصحابه (اقصد صاحبيه، فلم نعرف له صحبا غيرهما، صحح فورا، قبل ان يتابع) شيء واحد اتقنه ببراعة لا حد لها، وهو ما يسميه بوقاحة: «النميمة الثورية»، تصوروا! مع انها، في الحقيقة، ليست اكثر من مسبة حاقدة على العالمين.

لم يعد علي قادراً على السكوت الذي لازمه منذ لُحَيْظات، وقد أسأمه تبجّح عثمان وتَـقُـوّلاته، فقال بهدوء كبير على غير عادته في مثل هذه الاحوال:

– اي سوء في ان ينظر المرء تحت قدمه حتى لا تزلّ؟

قال ذلك وهو يغالب حالة من الانسحاق المفاجئ الذي اخذ يحلُّ في اوصاله. لقد بدا، فجأة، وكأنه مصاب بداء الكُوَاب الذي لا علاج له. ولست ادري لِمَ كان ردّه مقتصرا على نقطة واحدة من ذلك الحديث: هي نقطة النظر الى الارض، بالذات؟

وإذْ بدا عثمان متحمّساً لمقولاته قولاً وفعلاً، بدا علي، على العكس منه، وكأنه يعاني حالة من الالتباس العميق.

حالة من الاندفاع غير المتماسك تعقبها، على الفور، حال من الُحبوط والهمود. لكأن نفسه مليئة بالثنيات المَطْوِيّة التي تحتاج الى جهد كبير لمدّها، وايضاح محتوياتها. أيكون وقع ضحية «شكّ قسري»، كما يقول «ابن الوراق»، بسبب العقبات الكثيرة التي كانوا يقيمونها في وجه ما يفكرفيه، وما يقوله، وما

يريد فعله؟ ام ان للامر ابعاداً اخرى؟

أيكون تحمسه الشديد للدفاع عن الآخرين، دفاع عن ذاته المهددة، اذن؟ وقُحوماته لحماية واحد مثلي (من عثمان مثلاً) ليس إلا الخطوة الاولى لحماية نفسه مما يتوقّع!

أيكون «ابن الوراق »على حق عند ما أكّد لي ذات مساء: «ان مَنْ يفشل في حياته اليومية، يفشل في مشروعه التاريخي، ايضا»؟ ام ان في الامر لغزاً آخر؟ لغز لم اكن على بينة منه، بعد؟

ولكن أنّى لي ان ادرك الغازالحياة الكثيرة، وانا لا زلتُ كالكسيح في مَصْحَرَة «الجزيرة»؟

[٣]

بعد ان القى نظرة خاطفة على الجالسين، اختفى «ابن الوراق»، فجأة، وكأنه لم يقف على قدميه، هنا، منذ لحظات. كانت عيونه «النقدية» التي ترى كل شيء، كل شيء لا يراه الآخرون، على حد زعمه، هي التي قادته الى المخرج المناسب، او «المخرج التاريخي» كما كان يسمي المنافذ التي يسلكها، حتى ولو كانت منافذ مبتذلة وبلا خطورة تذكر.

كنت أتعَجّب، في سِرّي، من ذلك الاصرار المثير للشفقة عنده على وصف الاشياء البسيطة بالتاريخية. وبخاصة عندما يتعلق الامر بتصرف من تصرفاته الملتبسة.

ولاني لم اكن أُفرِّق، بعد، بين الاشياء والكلمات، ولا بين الوقائع والاوصاف، كانت «الصيَغ اللفظية» المنتقاة، وبخاصة عندما تُقال باتقان، تجعلني انصاع لها، فورا. وهو ماكان مصدراً من مصادر «الخضوع السهل» عندي للآخرين.

ذلك المساء، صار بكر يهتزُّ بهدوء مخيف. بهدوء مثل الهدوء الذي يسبق العواصف المشَتِّتة للكون. ومع انني كنت اختلس النظر اليه بلا انقطاع الا انني لم استطع تمييز شيء مما كان يعتمل في نفسه، آنذاك.

الآن، صرتِ اعرف ان ثمة تمزقات كثيرة يمكن ان تعبر ذات الكائن، دون ان تكون، بالضرورة، وليدة اللحظة الراهنة. «لكن بكرا لا يهتَزُّ لماض. ولا يرتعش لمستقبل، حتى ولو كان منظورا» كما كان «ابن الوراق» يؤكد لي باستمرار. لِمَ كان الاهتزاز المخيف يركب جسده الشامخ، اذن؟ وكيف لي ان ألِج اعماقه لأعرف الحق من الباطل؟وحدها، نظرته المتواطئة التي كانت تجول بلا اكتراث كادت ان تفضح اهواءه ونواياه. نظرته الليّنة التي حَطَّتْ، اخيراً، على عثمان.

لَمْ تَبْد على عثمان أية رغبة في تبرير مزاعمه حول«ابن الوراق» الذي لم يكن مجهولا لدى الآخرين، مع ان ايّاً منهم لم يكن يعرفه «بالمعنى النقدي» للمعرفة، على حدّ قوله.

وبرغم اتِّقائه المتقن لها، لَمْ تتحوّل انظار بكر عن وجه عثمان الذي بدأ يمتقع وكأنه أُصيب بمغص مفاجيء. وكان عَليّ هو الذي فَكَّ عقدة ألسنتهم التي بدت وكأنها نسيت الكلام، عندما قال مدافعاً (عَمّنْ؟):

– صحيح ان بعض الشك ليس إثماً، لكن تعميمه خطيئة لا تغتفر.

وبعد ان تطلّع بريبة حوله (وحولنا)، وكأنه يستطلع الجو، اضاف:

– الشك المتعمّد فيمن يخالفوننا الرأي لا يدفعهم إلا الى مزيد من الخِلاف معنا، إنْ لمْ يصبح مصدرا من مصادر تمردهم علينا (وعلى انفسهم، ايضا، وهو اخطر بكثير. اضاف همساً).

كان عَلي يتكلم بهدوء وهو يرسل انظاره العاتبة الى الطاولة المظلمة البعيدة. ولم ادرك، على الفور، وجه المقاربة او المقارنة بين اهل الطاولة الطَرَفية الذين سكتوا للتوّ وبين «ابن الوراق» الذي اختفى، فجأة، كما دخل.

لكن عليّاً لا يتكلم كلاما بلا غاية، ولا يأتي بحركة دون هدف، كما يؤكد عارفوه الكُثُر، وعلى رأسهم ابن الوراق، نفسه. لا بد ان يكون ثمة تواشج بينه وبين هؤلاء، اذن. فلا صبر.

وكأن عمر لم يسمع مما قال عَليّ شيئاً، توجّه بالحديث الى عثمان، وهو يحاول (كما بدا لي) أن يهدّيء من أغاضيب بكر، إذ قال متخذاً هيئة التسامح

والاعتدال:

- بنقدكَ له على هذه الشاكلة، ألا تزيده نفوراً منا ياعثمان؟

ولم يتردد عثمان في الاجابة:

- هو ليس بحاجة الى مزيد من النقد لينفر، او ليُنفِّر الآخرين منا، يا عمر.

وفجأة، صار يتنفس باضطراب كبير، كمن سيكشف سرّاً خطيرا، قبل ان يضيف:

- انه يعتقد اننا لم نفعل إلاّ السوء. واننا لسنا منذورين الا للضَرَر والضَرار.

وبعد ان تطلّع، هذه المرة، صراحة، في عينيّ بكر، اكمل بنوع من التحدي (واكاد اقول التجنّي) المقصود:

- ان «حركتنا التصحيحية» لمسار التاريخ، تلك التي تملأانفسنا بالشغف، وعقولنا بالعنفوان، ما هي بالنسبة له الا حركة جماعة مهووسة بحب التسلط والمال. انها، كما يقول في احاديثه، حركة مسدودة الآفاق سلفاً. ولن تتمخَّض الا عن مزيد من القمع والعنف.

كانوا يستمعون برضى إليه، ماعدا علي وقد تشاغَل بما كان بين يديه. اما انا فقد أُخذْتُ بما سمعته منه. أُخِذْتُ في قلبي. لم اكن اعرف ان عثمان، وبالتالي هم كلهم، كانوا يعرفون عنه كل هذا.

كنت احسب ان تقوّلات عثمان الكثيرة، حول مَنْ يتعرّض لهم، قابلة للرد بسهولة ويسر. لكنني بعد ان استمعت إليه، الآن، صرت اعرف انني لم أكن في بيّنة من امره، ولا من امري. فما قاله عن «ابن الوراق» يمكن ان يؤخذ على علاته دون ان يجانب الحقيقة.

كدت اركض هارباً من الرعب: أأكون، أنا الآخر، مكشوفاً لديهم بمثل هذه الدقة؟ لكن تدخل عليّ في الحديث، من جديد، هو الذي جعلني اسبط في جلوسي:

- العاقل من يأخذ برأي اعدائه قبل اصدقائه. قال، وتابع بحكمة: فما من كلام عبثاً. وفي كل قول حقيقة، حتى ولو لم نقبل به وبها.

وبعد ان سكت لُحَيْظة، اضاف باتزان:

– اني لأعجب من الخوف المتمكّن منكم. هذا الخوف الذي تريدون له ان يشلّ حركتنا، وينهك طاقتنا على المبادرة والفعل. انتم تعرفون اننا سنكون عرضة للنقد منذ ان تولينا امور الناس. اي سوء في ذلك يا عمر؟

قال ذلك وهو يرسل نظرته الفصيحة صوب بكر الذي ابتعد عنها هاربا نحو ركن السقيفة المظلم. ومع ذلك اكمل بصرامة ووضوح:

– الناس يحلمون بالعدل، ويأملونه منا . ومن حقهم علينا ان نكون عادلين. وليس «ابن الوراق»، هذا، الا جملة في كتاب الناس.

– لكنه جملة أساسية.

قال عثمان مقاطعاً. واضاف بسرعة، متوجها بالحديث، صراحة، الى عمر:

– اما مسألة العدل التي يتشدّقون بها، والتي تشغلك الى هذا الحد، الى حد مناوءة فرقتك وفريقك، فهي لا تعدو كونها ذريعة يستخدمونها، هو واصحابه، من اجل تبرير هجوماتهم علينا، وتأسيس عدائهم لنا .

وبعد ان صمت منفعلاً، تابع بهدوء وكأنه لم يكن يبحث الا عن اقناع علي بما سيقول:

– والعاقل، كما قلت قبل قليل، هو الذي يجعل من ذرائع المناوئين له، حُجّةً للقضاء عليهم.

كان عثمان يتكلم وهو ينتقل من وجه الى وجه. من عمر الى بكر وبالعكس، دون ان يتوقف عن الحديث. وهذه المرة، قال باحتدام، متوجهاً بالحديث الى عَلِيّ:

– لكم أتمنّى ان تتجاوز، اخيرا، تلك المقولة الساذجة، حتى لا اقول الكاذبة: مقولة العدل اساس الملك. فالمُلْك هو اساس العدل وليس العكس بصحيح. المُلْك هو الذي صنع، ويصنع، مفهوم العدل. وهو الذي يفرز «العدل الضروري» لبقائه. عدله الخاص به، والملائم له، ايضا .

وهَبَّ علي، على الفور، مدافعاً، وكأنه يدافع عن امر لن يهنأله عيش بدونه:

– بلى؟ لا زلتُ متمسكا بتلك المقولة العظيمة التي لا ترضيك. وهي مقولة اساسية من مقولات الحكم الذي يريد لنفسه ان يدوم.

وبعد ان تطلّع، بنفاذ صبر، الى عمر الذي بدا وكأن الحديث يشغله اكثر مما كان يتوقع، اضاف:

- امران علينا ان نتجنبهما اذا ما اردنا الاستمرار في المكانة التي احرزناها: استفزاز الناس، والتلاعب بعواطفهم.

- هذا هو، تماما، ما نريدك ان تتجنبه، يا علي.

قال عثمان محتجا بقوة، وكأنه وجد الفرصة المناسبة، اخيرا، لقول ما كان يعتمل في نفسه، منذ زمن طويل. وقبل ان يسترد الكلام منه علي، اضاف متسرعاً (بعد ان سَبَرَ بعينيه نوازع بكر وعمر):

- نحن واضحون، تماماً، مع الناس. لقد افهمناهم، منذ البدء، اننا لا نريد منهم الا الطاعة اذا امرنا، والتسامح إنْ اخطأنا.

اما انت، اكمل بسرعة، فلا زلت تغرهم بوجود حاكمٍ مُنزّه عن الخطأ، وسلطة بعيدة عن الخطيئة.

وخَمَش الارض بيديه عليّ. لكأنه طُعِن من اقرب الناس اليه قبل ان يحترز منه. خمشها بعنف وهو يقول:

- وهل هذه جريمة، يا عمر؟

ولم يمهل الرد عثمان الذي قال باتهام واضح:

- بلى؟ هي كذلك فعلاً. ونظر اليهما قبل ان يتابع أسانيده اللئيمة: فهي تحمل في بنيتها تأُميل العامة بحياة خالية من النَكَد، وتَحْميلهم مسئولية الخلاص من وضع لا يرغبون فيه.

وبعد ان سكت قسراً ليسحب نَفَسه الذي بدا وكأنه لن يعود، اضاف بتعالٍ:

- الكلام بحد ذاته ليس جريمة، لكنه قد يصبح سلاحاً فتّاكاً بيد مَنْ يُفْتَتَن به.

وما إن سكت حتى تابع فوراً، وكأنه يتكلّم تحت ضغط لا يحتمل:

- والفتنة، كما تعلم، على الابواب؟

قال ذلك وهو يتطلّع، مع المتطلّعين، الى مدخل السقيفة المظلم، وكأن كائنا

خارقا سيلجها، للتو. علي، هو الآخر، صار يتطلّع معهم صامتاً، وحزيناً. لكأن الرد على «مقولة» عثمان الأخيرة، هذه، لم يكن يهمه، لانه موافق عليها اصلاً. إنْ لمْ يكن قد تنبّأ بها من قبل؟

[٤]

عندما نقلت لابن الوراق بعض ما سمعته منهم، ذلك المساء، سَدَّ فمه الرطب بكفه اللينة، ليخفي عني ابتسامته الخبيثة التي كانت ترتسم على ضحالة شفتيه. وبعد ان تطلّع بعيداً الى اضواء دمشق البهية، الممتدة في الفضاء المحيط بنا، قال بهدوء، وكأنه يريد ان يطمئنني على كل شيء: «بلا ريب، هم يخافون من انتشار «الوعي الثوري» وتعممه؟ إنه «وباء» عند مَنْ لا يريدون الانطلاق. وهو مثل أي وباء آخر يمكن ان ينتشر بالعَدْوى».

وبعد ان مسح بعض نثار بصاقه، ولَحَسَ بعضه الآخر، تابع: «إنهم يعرفون، جيدا، ان الوعي مصدر الشك. وان الشك هو الذي يقود الكائن الى ادراك ماهية الوضع الذي يعيش فيه. والشك في الاشخاص هو الذي سيؤدي الى الشك في التاريخ. وعندما نشك في هذا نبدأ بالتحرر من قيودنا الكبرى التي تشلنا منذ مئات السنين. والفتنة التي يخشونها، اضاف بعد ان تلمّس وجنتيه، ما هي الا تهديد مصالحهم الخاصة، حتى ولو كان هذا التهديد في صالح الناس»؟

وقبل ان ينتزع انظاره الواهية عن الانوار الدمشقية التي بدأت تسطع في قمة قاسيون، تابع: «إنها الحرب اللئيمة وقد أُعلنَتْ ضد كل من تسوِّل له نفسه الوقوف في وجوههم حتى ولو كان وقوفه حقاً»؟

كان يتكلم وهو يبتسم بلؤم أثار قبساً من الحقد في ذاتي. ذاتي التي ابتلعت ضجتها على الفور. فسألته، بنفور: هم؟

ووجدتني اضيف بسرعة مباغتة، وبجدية لم اعهدها في نفسي: ولكنك لم ترحم احدا من شر نقدك، حتى لم يبق ما تنقده؟

ورأيت عينيه الضيقتين تقعان على الارض بين قدميه، كعادته كلما اراد ان

يوحي لي بان الامر عَصِيّ عليه. ودون ان يرفع بصره عن القاع، قال متباهيا وكأنه يعرض عَلَـيَّ بعض مفاتنه السرية: «ومع ذلك، بقي لدينا الكثير لننقده. بقي لدينا ذواتنا، يا عزيزي».

ذواتنا؟ قلتُ بكثير من العجب والخوف. كنت احسب وقتذاك ان «ذاتي» لا يمكن ان تُـمَسّ، لانها، ببساطة، بلا وجود. الآن صار بامكاني ان احدد أكثر فأقول لأنها، اصلاً: لا مكتملة ولا حرة. آنذاك، كنت احسب انها إن مُسَّتْ، حتى ولو بنقد ضئيل، فسأفقد مقوّمات كياني، كلها. ومن شدة الاستلاب كنت أتصور ان النقد لا يصلح لي، بل للآخرين. للآخرين فقط. رغم انه ظلّ يؤكد لي: «ان كل شيء قابل للنقد بما فيه نقده هو لهم».

انتشلني من وهدة الانغماس الذاتي، تلك، صوته القاسي، وهو يقول بتؤدة، محدقا في فضاء دمشق الذي بدأ يظلم شيئا فشيئا: «لا تنسَ ان نقد الذات هو أساس كل نقد». ولكن، منْ قال له انني كنت بحاجة الى نصيحة بليدة كهذه؟ فكرت في هذا وانا استعد للعودة، الى مَثْواي.

كنت بحاجة، في الحقيقة، الى القروش العشر التي لم اطلبها منه، هذه المرة. القروش التي كانت ستسمح لي بركوب سيارة اجرة عابرة تقربني من المكان الذي يؤويني. مكان خراب في قلب «المَزّة» العتيقة. تماما، تحت أبط الهضبة التي يتربع فوق هامتها العريضة «سجن المزّة» الرهيب. السجن الذي كانت رؤيته، وحدها، كافية لبعث الرعب في نفسي: نفسي الخائبة المحشوّة بالهَلَع والخَميد.

كان علَيَّ ان امشي المسافة، كلها، اذن. ومَنْ غيري له القدرة على اختراق دمشق فجراً؟ دمشق التي كانت تغطُّ في نوم عميق.

وكأنني كنت اريد ان استريح، سَلَفاً، من تعب سيحل في اوصالي، توقفت انظر، متفحّصاً، تمثال «المَرْجَة» العتيد. التمثال النحاسي الاصهب، حيث يَتَجَمّع الغرباء والعصافير. كانت قطرات الندى اللؤلؤية تكسو سواده البرونزي الجميل.

ندى الفجرالمختلط بذرات النور المتسايل من الافق البعيد. أفق المدينة الشرقي الذي كان على أهبّة الانعتاق من ربقة الظلام.

كنت احسب انني امشي وحدي، عندما فاجأني صوته اللَّحوح، متابعاً حديثه وكأنه لم ينقطع عنه: «هم يعرفون ان نقد الماضي اساس صناعة المستقبل، لكنهم يتجاهلون ذلك، لانهم لا يريدون ان يفعلوا الآن ما سيضيرهم من بعد»! وبسرعة أضاف: «وارجو ألاّ يخيفك هذا. فنحن لا ننقد ماضياً لا يهمنا، ولا نثور على وضع يفتقر الى احترامنا له».

وبعد ان لبثَ صامتاً لحظات، كما هي عادته المسائية عندما يستهويه الحديث، اكمل بهدوء: «إلا انهم يجهلون أن تطوّر الكائن امر لا بدّ منه ». ورأيته يتنفس عميقاً، وهو يستجلب الريح من بعيد اليه، قبل ان يتابع حديثه المستاء، وكأن الانسانية ستضيّع فرصتها الأخيرة إنْ لم تأخذ برأيه: «منْ يخشى التطوّر، إذن، غير الُطغاة»؟

استمر يشرح لي متمهلاً (وقد حَرَفَني عن طريقي) ماكان يعتبره ضرورياً في معرض تعليقاته الكثيرة التي لا تنتهي حول ما كنت انقله له من احاديث كانت تدور بينهم.

احاديث كان على علم مسبق بها، ويزعم جهلها، قصداً، كما سأعرف، آسفاً، فيما بعد؟

يومذاك، لم أكن مهيّئاً لمعرفة ما تجب معرفته في الوقت الذي تتوجب فيه هذه المعرفة. وربما مازلتُ كذلك اليوم، ايضا. الآن، صرتُ ادرك ان «الغَفْلَة التاريخية» ليستْ شيئاً آخر سوى الاكتشاف المتأخر لما هو معروف مسبقاً. كنتُ كمَنْ يدرك، لتوّه، ان الارض هي التي تدور حول الشمس، وهو سعيد بمعرفته «الجديدة» هذه، مع انها معرفة مستهلكة منذ قرون. «ولكن أنّى للكائن ان يحوز المعرفة الضرورية لحياته بلا عثرات»؟ على حد قوله، هو، نفسه. لماذا أتعَقّدُ، إذن؟

اختفى كل شيء من رأسي، فجأة، (وكأنه غسلِ بالماء) عندما هَبّتْ من

مكامنها اسراب العصافير. عصافير الفجر الدمشقي المشع من البرد. اين كانت تختفي جُموع العصافير الهائجة، هذه؟ لا حُفَر في الارض. حيطان الدور مطلية بعناية.اعمدة الكهرباء مِلْس وقصية. وليس في الفناءات اعشاش، ولا رُشاشات؟

وعندما سألته، متعجباً، عن الظاهرة هذه، ذات يوم، قال، وهو يكتم ضحكته بحزم، وكأنه يخشى عليها من الضياع إنْ هي غادرت حلقه الاملس: «العجب في ان تتعجب انت». واضاف وهو يحط رأسه في الارض مصغّراً خده: «تتعجب وكأن الطبيعة جزء من ذاتك الفارغة. الطبيعة، يا عزيزي، ملأى بما ترى مع انه يظل خافياً عنك، وبما لا ترى وهو ماثل امام عينيك».

وبعد ان تَلفَّت ليرى الانطباع الذي قد تثيره اقواله الأريبة في نفسي، اضاف بنفور: «ما يَسُرُّك او يضرك لا يهم الطبيعة في شيء. تَعلَّمْ، اذن، ان تكتشف الاحياء والاشياء بعناية ووِدّ. وأن توليها ما تستحقه من اهتمام وادراك».

وبتصميم، توقف عن سيره الحثيث، واستدار ليقابلني، وهو يقول بيقين: «عصافير الفجر الدمشقي البديعة، هذه، ما هي، في الحقيقة، الا رُسل. رُسل تُنْبِيء عمّا يعتمل في جوف الطبيعة من أعاصير. ولكن من يقرأ ما تكتبه باجنحتها العصافير»؟

ماذا يريد ان يقول؟ وأية ملحمة يريدني أن أوقعها بنفسي؟ صرت أُردد هائجاً، وأنا أنظر في كل إتجاه. «عدم الإدراك ضلال» فعلاً، كما كان يقول. لكننا لن نفتعل المعارف التي لا تقودنا إلى النور؟

لن؟

الفصل الثاني

[١]

في منتصف الطريق، توقفت. كنت اريد ان ارى الليل قبل ان يختفي نهائياً من الكون. ولكي اراه حقا كان عَلَـيّ ان أتسَـطَّح فوق الفجر. فجر دمشق الغامض الذي بدأ يشُـقّ الأُفق ليريني بُصَـيْلاته.

فجأة، استَـدَرْتُ نصف استدارة، وبدأت اركض. اركض الى اين؟ كان ثمة عَلَقة ترابط في بطني. علقة تريد ان تنهش شيئا. ولم يكن ثمة ما يُنْـهَش.

الى السوق، اذن؟ الى السوق. سوق البقالين والقصابين والخَـضّارين، صرت احثُّ نفسي قبل ان تستسلم للجوع نهائياً. هناك سأرى خضر الشام الطازجة وبقوله. ارى بصله وفوله. ارى الاعناب المرصوصة بعناية: الابيض لصق الاحمر. والخمري حد الاسود. واليد باليد.

قبل ان اصل بقليل كان قرن الشمس قد بدأ يغمر الشام بنوره الاصفر المُـحْـمَرّ. كانت حركة الناس على أشدها، بعد ان اختفى الليل وسكونه. كانوا يفرشون الارض الطينيه الرطبة على عجل. فوقها يمدّون ما أتوا به من الاطراف والحواف: اللحوم والخضر والزيوت والاجبان والعسل والبصل والبثور.

كان «سوق الهال» قد اصبح في عرس بعد ان أمسى خالياً وكئيباً. في ذلك السوق المهيمن على الشمس، لم أجد احداً من رفاق الامس. وبين خليطه البديع من البشر لم أرَ زَوْل «ابن الوراق» ولا حِسّه. لكأنه جنّ يختفي عندما تظهر الكائنات؟

من اين كان صوته الملحّ ينبع، إذن؟ وبأي حق كان يدق صدغي، بلا توقف، منذ اول المساء؟ ولِمَ كان يصرُّ على التأكيد لي: «ان الانسان طاقة. طاقة تحمل في طيّاتها طاقات كثيرة اخرى. ما عليه، إذن، إلاّ أن يُعيد صياغة نفسه كما يريد»؟ ومع ذلك، بقيتُ مهملاًوحزيناً، مع انني كنتُ أُتابع الاصغاء اليه منذ سنين؟

اكتشفت (وكأن ذلك كان مهما؟) انني كنت اقف على بعد خطوات، فقط، من السوق الذي ركضت، مُرْتَجاً، إليه. كنت، في الحقيقة، اقف، منذ البدء، لصقه في فَصيح ذلك الفجر. الفجر الدمشقيّ الصافي الذي غمر الكون بنوره المشعّ. وكنت احسبني في فيافي الحماد. لا ماء ولا زاد. كنت ألْهثُ كالكلب الذي يعرف بحدسه اين ترمى العظام مع انه لم يرها، بعد. وهل يرى الجائع إلا ببطنه؟

صرتُ امشي هادئاً، منذ ان ادركت ذلك، وانا أُلاحق الالوان الدمشقية التي بَلَّلها الاحمرار. الوان الاصوات والسائمة والبشر والعصافير.

الوان المعروضات المتكاثرة وكأنها في سباق مع الشمس مختلطة مع الكلمات في رأسي الذي فرغ من شدة الجوع.

وأخذتني اللجّة بعد اللجّة. لَجَّة الاتربة والخضر والحبوب الممتزجة مع الاقوال والانسال. ووجدتني أُتمتم مستاء: منذ الفجر يتجادلون؟

في خضم ذلك البحر المتماوج من الاحياء والاشياء، صرت اقترب من الرجلين. اقترب منهما بحذر طالباً ما يسد الرمق ويبعد الجوع. وكانا يتصرفان وكأنهما اخرسان؟ كان احدهما يلوم الآخر على ذنب لم يقترفه (كما بدا لي) ومع ذلك، كان يلومه بعنف، وكأنه «مجرم بحق الانسانية»:

– لماذا لا تريد ان ترى فيما يحدث دليلاً على مشروع حياة جديدة؟ او لنقل علامة من علامات هذه الحياة التي بدأت تكتسح كل شيء حولنا.

كان الرجل يردد، متسائلاً، حانقاً، لا على صديقه فحسب، بل على نفسه، ايضاً. نفسه التي بدت وكأنها، هي الاخرى، ترفض ذلك المشروع الذي يريد ان يسوِّغ له، رغم كل شيء!

وقبل ان يجيب الآخر اكمل اللوّام، دون ان يكف عن العمل، في ذلك الفجر الصاقع من الرطوبة والبرد:

– لِمَ تُخْفى عليك عيوب الماضي وكأنك لم تعشها، ولم تسمع بها، حتى؟

– لا اريد ان أُضَيّع جهدي في امر لا جدوى منه.

قال الآخر بهدوء وهو يتابع عمله بحمية أذهلتني. كان يحكي وكأنه يتنفس.

يتنفس بحركات يديه المغمورتين في اشيائه، لا برئتيه. لكأني لم أرَ في حياتي احدا غيره يعمل. كان يُداري اغراضه وكأنه يعامل كائنات هشة سريعة العطب. كنت احسه يُواسيها وهو ينقلها من مخابئها الى فُسْحَة العرض.

ودون ان يرفع بصره عن اغراضه، تابع:

– كيف لي ان اطمئنّ الى احد او الى شيء، بعد الآن، وانا لم اعد اطمئن، حتى، الى نفسي؟ وماذا يهمّني الماضي، والحاضر اسوأ ما يكون؟

وبعد ان فع رأسه ليرى النور المشرق بعينيه، اضاف:

– انت تعرف، مثلي، ان النا س تكره الخامل والجاهل. وتكره، اكثر ما تكره، الخائف والزائف؟ وبانكسار نفسي عميق ارخى سُدول عينيه، وهو يتمتم: فمن لا يثق بنفسه لا تثق الناس به. واكمل بحزم، وهو يضع اغراضه بتؤدة في اماكنها: لا يمكن لكائن أجوَف (وكاد ان يقول مثلنا اليوم) أن يكون وثوقاً. لا، لم اعد أثق إلاّ بيدَيَّ وما يَمُسّان، وبقدميَّ وما يَدوسان.

لكن صديقه اللحوح لم يكترث (كما بدا لي) لما قال، ولم يهتم لتوتره العميق الذي أصابني (انا الغريب) بالانفعال، فتابع متسائلاً بلا مبالاة:

– دعني من ذلك، كله؟ قُلْ لي: أيّ امر يشغلكَ، فعلاً؟

– كمْ مرة تغيرت الانظمة ولم تتغير الحال؟ قاطعه الصبور حانقاً، وهو يكاد ان يُقارب اليأس المطلق.

وبعد ان وضع ما يحمله بهدوء على الارض المبلولة بالندى، قال بأدب ووضوح:

– نحن الآن بحاجة الى شجاعة حقيقية، شجاعة تخلصنا لا من تسلّط الماضي علينا، فحسب، بل تحررنا من ربقة الحاضر، ايضاً.

لكن اللَوّام لم يأبه لما قال صديقه الصبور، فتابع كلامه مُشوِّهاً مشاعررفيقه ونواياه:

– انت تخاف الوضع، حقاً، ولست ادري كيف أتلقّاكَ؟؟

وبقناعة مفرِطَة، ولكن بامتعاض، مثل مَنْ يودّع احدا يعرف انه لن يراه من

بعد، قال الصَبور، وبه ارتباك:

– نحن لا نخاف لان الأوضاع مخيفة، إنها مخيفة لأننا نخاف؟ واضاف بلوم بيّن: انت تعرف ذلك مثلي.

وبعد ان تملّى الاغراض اللابدة بين يديه، وهو يكاد ان يقبلها، تابع نافياً عن نفسه تهمة بلا أصول:

– انا لا اخاف الا من الموت.

كاد ان يضيف شيئاً آخر إلا انه توقف ساكتاً على حافة الكلام. توقف وهو يحط الاغراض بخشية العارف هشاشتها، يحطُّها في مكانها الضيق، المُلاصِق لأمكنة الاشياء الكثيرة الاخرى.

وبعد ان استتب له السكوت برهة، وفَعَل الصمتُ الطويلُ فعله، قال بريبة:

– وهو الخوف الوحيد المجدي لأنه يخلِّصنا من حساباتنا الصغيرة، ويلهمنا التصرّف بحرية ازاء انفسنا وإزاء الآخرين.

قال ذلك وَصمَتَ. صمت بعمق وكأنه يريد ان يصمت الى الابد. الى ان تتغير شروط ذلك الوجود الذي بدا وكأنه يرفضه جملة وتفصيلاً.

ووجدتني ادور حول «سوق الهال» مخبولاً. السوق الذي امتلأ بالناس الصابِحين حتى غَصَّ بهم. ومن دوراني اعود، كالمسحور، الى الرجلين. اعود اليهما وقد نسيت جوعي. أعود متلصصاً، استرق السمع كالشيطان. كنت جائعاً الى الكلام، إذن، لا، إلى الاكل؟ لا؟ لقد اعجبني فيهما العمل الذي لا يتوقف عن الحدوث. عمل يحمل في بنيته ذلك النزوع العميق الى تجريد الحياة من قدسيتها. نزوع شبه عبثي آلمني اكثر مما ادهشني.

كانا يتحاوران وكأنهما في خَلْوة مع انهما محاطان بالناس؟ ويعملان بحمية وكأنهما لا يفعلان الا ذلك، وهما لا يكفان عن الكلام. كلام بليغ يتجسَّدُ افعالاً قُدّامي (عكس كلام الآخرين ومماحكاتهم) ماذا اريد اكثر من ذلك؟

وكأنه ادرك الامر الأساسي للتوّ قال الصَبور، بعد فترة من الصمت المريب، لصديقه اللوّام الذي كان يصغي بأدب إليه، قال بتواضع وخوف، وكأن الحياة

«الكريهة» التي يحييونها خلَّصتْهما من كل بذاءة ونُفور:

– في وضع رهيب كهذا إمّا أن تكون «أيّ أحد» من الناس لا معنى لحياته، أو أن تكون أحداً آخر. وفي الحالتين لا يعثر المرء على مقامه صدفة.

مع جملته المخيفة، تلك، صرتُ امشي خَلْفاً. ظهري الى الريح، ووجهي الى السوق الذي صار يبتعد بألوانه ومعروضاته. كان ضوء الفجر النابع من الارض يأتي مسرعاً اليّ. لكأنه يريد، هو الآخر، ان يطردني من مكاني. مكاني الذي كنت أحوم حوله منذ اول الليل.

كنتُ امشي متقهقراً، وانا افكر بكلمات «ابن الوراق» الأثيرة التي طالما نَقَرَ بها صدغي: «عندما تتآمر الطبيعة والكائنات (ونادرا ما يحدث ذلك) ضد احد من الناس فان خلاصه الوحيد يكمن في التشبّث بالمكان».

كنت قد بدأت ادرك، ولو بشكل غماميّ، انني كنت احيا مُلامِساً. ولاول مرة، ادركت كمْ كان عَلِيٌّ على صواب عندما كان يقول: «الفاقة، كالقمع، تغلق ابواب الحياة في وجه الكائن». ولست ادري لمَ شعرت في ذلك الفجر، دون غيره، بأن «حياة الملامسة»، تلك، لم تعد تجدي. ولذا، ربما، امتلأتُ باحساس أليم، وقد أيقنتُ، فجأة، انني افتقد كل شيء: المال، والاصدقاء، والحب، والحرية، وقبل كل شيء افتقد الادراك؟

وتبَيّن لي، بوضوح، في تلك اللحظة الحاسمة، ان مقولة «ابن الوراق» العتيدة: «للحياة ركنان: الادراك والعراك» والتي ما فتيء يرددها على مسامعي، مضيفاً اليها احياناً «ومَنْ يفتقدهما يفتقد كل شيء» لمْ تكنْ، فيما يتعلّق بي، إلاّ قولا حقّاً، قولاً ينطبق عليّ كما ينطبق المرهم على الجرح. ومع ذلك، ظلَّتْ قولاً بلا حَوْل مع انها لم تكف عن ملاحقتي وتعذيبي، طيلة السنوات. ..

في ذلك الفجر الدمشقي الساحر، صرتُ أحسُّني اكثر الناس شبهاً بالعصافير. عصافير الشفق الطائرة في محيط بلا شجر ولا ماء. عصافير ترفرف في فضاء المدينة الفارغ وهي تطلق صرخاتها المتوترة التي كنت احسبها صرخات فرح عميق، ولم تكن، في الحقيقة، الا صرخات يأس كبير.

ماذا كان بامكاني ان افعل، آنذاك، غير ان ابتعد عن السوق وفتنته. غير ان امشي، صامتاً، حتى النهر. حتى النهر الذي أصله للتوّ.

على ضفته اليابسة اقف.اقف ملتبساً وحزيناً، ناظراً ماءه الآسن، الرّطين. نهر على وشك التهوّر والجفاف؟ ووجدتني اضحك، في ذلك الفجر، وانا اريد ان ابكي. بلى كنت اضحك وابكي، معاً، عندما تسلّط «ابن الوراق» عليّ، من جديد. اللعنة؟ من اين نَبَغَ الآن؟وماذا يتهيّأ ليقول؟

كانت قسماته الصُفْر الشاحبة تمتليء بالضحك الصامت. وانفه اللّيّن يتصبّب عَرَقاً غريباً. على اطراف اصابعه ارتجاف خفيّ. وفمه الأملَس مزْموم وكأنه لم يستعمله منذ ان وُلِد. كدت اسأله كيف يتقن الكلام وهو في مثل هذه الحال، الا انه قال، بغتة، وكأنه على علم بما يدور في خلدي (عن العصافير وعني): «الاستسلام الى حس العدالة العفوي لدى الناس، مثل الإستسلام للأسد الجائع». وبعد ان سكت وهو يخفي الشماتة في عينيه، اضاف، محرضاً: «لا احد يعطي ما لا يؤخذ منه بالقوة».

وتابع بلا مبالاة: «اعرف ان تلك فكرة مبتذلة وقديمة لكن التذكير بها، من وقت لآخر، ضروري، وبخاصة لمن..» ولم يكمل.

وكأنه اراد ان يواسيني، اخيراً، على غبائي، قال وهو يحدّق، مُتذاهِلاً، في ماء النهر الذي قارب النَشَاف: «لا تطمَعْ؟ عندك الرغبة في الادراك، وليس ذلك بالقليل. ولكن، لا تطمئن، ابدا، الى ما تتوصل اليه. فالموت، بالنسبة للكائن، هوالوقوف المستمر في النقطة، نفسها، مهما كانت صلبة، وعميقة الجذور».

[٢]

– ما هو مشروعنا اليوم، ياعمر؟

قال بكر وهو يَتمَرَّغُ في الضوء الدمشقي الباهر. ضوء النهار الذي لم يزل بارداً، بعد.

كنا قد التقينا، منذ قليل. وكانت الوجوه لا زالت تحمل في ثناياها خفايا الليل

الفائت في السقيفة، ودعابات حواراتها المليئة بالهَيْف. كنت قد بدأت اضيق بتلك الليالي، وبسوالفها المليئة بالنكد والغيظ. ليالٍ لا تعرف متى تأكل فيها. ولا تشتهي ما تصيب. وتظل تُراوِد الحياة خجلاً وانت تعبرها كالمذهول.

كنت احسني مرهقاً وضعيفا. تآكلتْ، دون علم مني، طاقتي على التحمّل. كانت روائح الصبح الدمشقية تفوح حولنا كالسعيرة. ولم اكن قد أكلت شيئاً منذ البارحة ليلاً. كنت أتطلّع حاقداً وصَموتاً. لكأن المأكولات المعروضة حولي سموم. سُموم مثل سموم أفاعي «الجزيرة» الصُفْر العَضّاضة. وكان عثمان هو الذي فاجأني بقوله «الحصيف» (كما بدا لبطني الوالهة) عندما قال بتودد:

- قبل كل شيء علينا ان نأكل. أن نأكل جيدا هذا الصباح.

قال ذلك وهو يتلَفّتُ حوله بحيطة وكأنه يستنقص احدا، لا يراه، ذلك النهار.

ولربما بانتْ، بسبب ذلك، على قسماته علائم الفرح العميق. وصار يُمَسِّدُ باشتهاء على بطنه لامّاً فوقها أثوابه الحريرية المتراكم بعضها فوق بعض. ولابد انه استغلّ فترة الصمت التي كانت تسيطر على الفضاء الدمشقي، وغياب مَنْ كان لايتمنّي الاغيابه، عندما بدأ يَتَلَمَّظُ بنَهَم وهو يتهزهز جذلاً، كعادته عندما يتعلق الامر بالمأكل والمشرب، قبل ان يقول من جديد:

- أكل طيّب، وعقل صَيِّب. ماذا تريدون اكثر من ذلك؟ وهَمَّ أن يضيف شيئا آخر، عندما قال بكر باستياء:

- ألا تسكته يا عمر؟؟

قال ذلك دون ان يتوقف عن متابعة افواج الناس التي كانت تنحدر بعجالة نحو قلب دمشق الفائر، ذلك الصباح.

كانت الحركة على أشدّها. وعَجاج الطرقات يتكاثر وكأنه نُذُر شُؤْم لعواصف الحَماد. بذلك الغبار الرقيق كان يختلط دخان الباصات العتيقة التي توصل اجزاء دمشق بلا انقطاع. باصات تتحرك بلا اكتراث مالئة وجه الشارع بنفاياتها السود الكثيفة. شارع «النصر» العريق الذي يوصل المحطة الام «لخط الحديد الحجازي» بسوق «الحميدية» الشهير. في قلبه يقف، مرتَجاً، باص

«الشيخ محي الدين» حيث قبر ابن عربي يتأبط الجبل الواقف في الضوء. بجواره تقف الباصات الحُمْر الاخرى: «ركن الدين» و«المهاجرين» و«الميدان» و«القصّاع» و...

و«باب مصلّى»، وباصات الاحياء البعيدة الاخرى. واخيرا، باص «المَزّة» العتيد.

بالقرب من هذا، تتوقف زاجِرة، متهيئة للانطلاق، باصات اكثر عُتْقاً ورثاثة، توصل دمشق بحواشيها البعيدة: «كَفَرْ سوسةْ»، «دُمَّرْ والهامَةْ»، «بلودان»، «الزَبَداني»، «عين الفيجَة» حيث ينبع النهر- بَرَدى ذو الأفرُع السَبْع، «الستْ زينب»، وقرى الغوطتين والانحاء الاخرى المتفرقة فوق الارض.

في ذلك الخليط الغريب من البشر والآلات، كان بكر يجرنا وراءه بتصميم. لكأنه في مهمة سرية (إنْ لمْ يكن كذلك، فعلاً). ولكن اين هو؟ ولِمَ تأخر الى هذا الحد؟ كنتُ أتساءل، صامتاً، وانا امشط الناس بعيوني.

صرت اختلق المشاكل لقدميَّ. اخلع حذائي مرة. ألبسه مرة اخرى. أعيد خلعه ولبْسه، من جديد، بعد ان اكون حاولتُ تنظيفه مما قد يكون عَلقَ به من أوهام. ولكن، ايّ شيء يمكن ان يعلق بحذاء ذي ثقوب؟

بلى! قمت وقعدت. وقعدت وقمت. ونظفت الحذاء المهترئ اكثر من مرة، آملاً ان يطلّ عليّ، فجأة، من بعيد.

كنت أتصوّر انهم سيتوقفون بحثاً عني، او قلقاً عليَّ، منذ ان أتوقف عن المسير؟ ولكن، لا؟ لم يبد على اي منهم أي اهتمام بما كان يجرى لي.

كنت وانا أتقاعد الارض، قصداً، استرق النظر إلى ظهورهم التي كانت تبتعد عني بلا مبالاة (إنْ لمْ يكن بسرور)؟ لكأني حمل من حجر وقع رحمة بظهر لم يعد يطيقه. «لا؟ لايهمهم مَنْ يسير وراءهم ما دام يلحق بهم، كالكلب» على حد قول «ابن الوراق» اللئيم؟ هذا ما ادركته، بوضوح، ذلك النهار.

وحده، عثمان الذي كنت احسبه قاسياً (وربما لانه كان كذلك فعلاً) أشار عليَّ، من بعيد، مُعنِّفاً: «إلْحَقْ، وإلاّ ضِعْتَ في الزحام، ايها الغبي».

كنت قد انتهيت، او تناهيت، من لبس حذائي حين غاب عني ظهر بكر. ولم اعد ارى الا اطراف عمر الذي كان يخبُّ الى جانبه. لكن قلبي اطمأن، وانفرجت أساريري، منذ إن لمحت وجه عَلِيٍّ قادما من بعيد، ماشياً على عَجل برغم ثقله الباهظ. «كنتَ تتشاغل بانتظاره، إذن»؟ قال عثمان، مستاء، وهو يكاد أن يسحلني على القاع.

كانت جموع الناس المتسارعة تملأ الفضاء، ذلك النهار. فضاء دمشق المُعَبّأ بأدخنة الباصات العتيقة، وبروث الحيوانات الجارّة والمجرورة باستسلام.

بشر من شتّى الالوان والاجناس كان يمشي. بشر كثير العدد. ظاهر التوتر. موسوم بهيئة تنّم عن التمرس بالقرف والاستياء. لكأنه لم يخلق الا ليعاني. ليعاني كل ما لا يرغب في معاناته، وما يرغب فيها، ايضا.

بشر عَجول يمشي في الاتجاهين، معاً. الى «الحجاز»، حيث المحطة التاريخية التي لم يبق منها الا رفاتها، بعد ان التهمها الزِفْت. والى السوق، سوق الحميدية التي فيها:

«لكل امريء من غيدها ما تَلَمّسا».

كان الجو جميلاً. ولم يكن في الحسبان الولوج في ذلك الحشد المريب من البشر. كانت اعماقي مليئة بالنكس والاضطراب. اخشى المُزاحمة والمُلاَحمة، وهأنذا أغرق في لَجّ من الناس؟ حتى ظهر عمر بدأ يتلاشى بين الظهور الواجفة في سدرة الضوء. ومرة اخرى، كان عثمان هو المتسائل، إذْ قال بانفعال (لم افهم مغزاه):

– الى اين يقودنا هو وصاحبه، هذا اليوم؟

كان يتكلم بتحَدّ واستياء، كما لو أن قلبا جديدا حلّ في كيانه. حتى اني سمعت (او كدت اسمع) كلمات اخرى تنطلق من بين اسنانه التي كانت تصطكُّ في ذلك الضُحى اللامع من شدّة النور.

كان يتكلم بحدة، وهو يشير، من وقت لآخر، الى حذائي المهتريء. يشير اليه

بحركات استبعادية، مليئة بالقرف. لكأنه يريدني ان القي به، هو الآخر (مثلما القيت من قبل بنفسي) القي به في كوم القذارة المرمية في سعة الضوء. كان يتمَطّقُ بكلماته التي صرت اسمعها بوضوح، هذه المرة، وهو يحاول الفصل بيننا: «لمَ لا تمشي حافياً وقد خلقك الله هكذا»؟؟

لكن الكائن يُخلَق شيئاً، ويصير، إنْ أراد، شيئاً آخر! (من قال هذا؟) كنت اردد في اعماقي المفعمة بالغيظ صامتاً وانا احدق في المجهول، متشبّثاً بحذائي. ولولا وصول علِيّ المفاجيء، لما تخلّى عن فكرة القائه المخيفة، تلك، وربما إلقائي معه، ايضاً.

- اين اختفيا؟

سأل علي بحيرة، وهو يحاول العثور عليهما، دون جدوى.

كانت جُموع دمشق المتكاثرة، ذلك النهار، تعمي البصر والبصيرة. ناس من الحواشي القريبة والبعيدة يصلون بلا انقطاع. يلبسون الالوان الفضية والقاتمة وهم يتفاوتون. لا ينظرون حولهم الا نادرا. لكأن ما يجري في محيطهم لا يخصهم في شيء؟ كانوا يمشون بحميّة، وكأن «الطيب» بانتظارهم، ولا ينتظرهم إلاّ السكينة والحر. كانوا يبدون وكأنهم يتحركون في فضاء مسكون باحلام لا بديل لهم عنها، وما يحركهم سوى «الغريزة والمال» على حد قوله. وكأن «الْتِهامهم» لبكر وعمر أثار حفيظة عثمان الذي قال بتشنّج واحتقار:

- الى اين تتسابق جموع البشر الرعناء، هذه؟

قبل ان يضيف بقرف:

- يجب ان تحقق معجزة امامهم لكي يلتفتوا اليك؟

- اى جواب يمكن ان يلائم سؤالا كهذا سوى الصمت؟

قال علي بصوت خافت وهو يتابع البحث عنهما. وفجأة، ابتسم عثمان بخبث، دون ان يقول شيئا.

ولمّا رأى حيرة علِي تكبر، وتوتره يزداد حدة، قال ملاطفاً:

- لا تقلق، سنعثر عليهما حالاً.

– انت أدرى بمكامنهما.

قال علي بشيء من الإنْبَة، وهو يبعثر انظاره في جموع الناس المتكاثرة، ذلك الصباح. لكأن الضوء، وحده، كان كافياً ليَلُمّ البشر والاحياء. ليكون حجة لخروج الكثيرين منهم، بلا سبب معقول. اي شيء يمكن ان يشرح التجاء الناس الى الامكنة الفارغة غير الخواء؟ غير خواء النفس التي بدأت تخاف. ولكن من اي شيء يمكن ان يخاف البشر ان لم يكن من «الفاقة والقهر»؟ على حد قوله.

– انا ادرى بمآكلهما.

صحح عثمان، وقد حلّ به فرح مفاجيء، قبل ان يضيف:

– عَجِّلْ. سيأكلان الزبدة ويتركان لنا الحثالات.

– أوَليس هو هذا قانون أُخُوَّتكم، ياعثمان؟

قال علي بنوع من التحَسُّر الذي لا يُخْفى، وبه يأس يقارب الحزن العقيم. لكأنه اكتشف، للتَوّ، المساويء التي كان، او صار بالرغم منه، طرفا فيها: «مساويء العدالة الكاذبة، والحرية الزائفة، والمساواة اللامتكافئة». كما كان ابن الوراق يردد باستمرار.

لكن كلامه المستاءَ مرّ بلا أثر، كما تمر الريح في فجاج لا يسكنها سوى الغيم؟ كان عثمان يسرع الخطو، في ذلك الصبح المليء بالمفارقات، من اجل اللحاق بهم، غير عابيء بما يفكر به علي، وبما يقوله.

و«هل يُسمَع قول لقائل لايعرف كيف يفرضه على الآخرين بالقوة»؟ على حد زعم «ابن الوراق» العليم! زعم بدا لي في تلك اللحظة الشيطانية جديراً بالاعتبار.

الآن، لا ادري كيف حاصرتني، آنذاك، اقواله الغريبة الاخرى حول تورط علي في ما كان يحدث ويصير. لقد كان بلؤمه المعهود (كما شعرت يومها) يريد ان يبلل صوف علي بدم الواقع، وان يحمله جزءاً من مساوئه. ولذا، ربما، أكمل حديثه المناويء له، ولهم، قائلاً: «مساويء كلهم مسئولون عنها، فكرا وسلوكاً، حتى علي نفسه، وان تصور، واهما، انه في حلّ منها».

ومع انني، منذ فترة قصيرة، بدأت امسك بنفسي وقد تَلَبَّسها الارتياب، فيما

يتعلق بمسئولية علي وتورطه فيما يحدث ويصير، الا انني لم اكن متأكدا من شيء. لكنني صرت اشعر بأنه لم يعد دائما على حق فيما يقول ويفعل. ولكن كيف لي ان اقف على مشارف حقيقة يجهلها الكثير من الناس؟ لمَ لا استمع اليه حتى النهاية، إذن؟ لِمَ لا اعترف (معه): «بأن كل شيء ممكن، حتى ما لا يمكن»!

ولمّا رآني مستسلماً بكليتي لما سيتَفَوّه به، بدت على سيمائه علائم التفوّق والتَوْق للخلاص مما يفعم نفسه، للوصول، باسرع ما يمكن، الى اقناعي (راضياً او غير راضٍ) دون ان ادري مَنْ كلّفه بامري، فقال بوثوق مفاجيء: «لا يوجد تطبيق خاطيء في التاريخ»؟

وقبل ان افكَّ تشابك خيوط فكري، واتحرر من قناعاتي المتلبّدة كغيوم الجزيرة في نفسي، أكمل بثقة عظمى، وكأن كلامه ليس بحاجة الى شرح ولا الى تبرير (فهو، مثل قائله، يبررذاته بذاته)؟ أكمل متابعاً فكرة «التطبيق» التي اطبقت بجهمتها علي: «فتطبيق منهج ما، قال، لا يمكن ان يتم، في الواقع، مرتين. وهو ما يطمع فيه علي، إنْ لمْ يكن لا يطمح إلاّ اليه (ولست ادري لِمَ حدده بالذات)! لكنه يجهل، كما يبدو لنا، إنّ ما لَمْ يطَبَّقْ مرة واحدة، وفي أوانه، لن يُطَبَّق، ابدا. وما طُبِّق لن يُعاد تطبيقه».

ولا بد انه رآني اقف مذهولا، في ذلك الضُحَى المنفتح على المجهول، وانا لا افقه شيئا. إذْ رأيته ينحني على القاع متشاغلاً باللعب بها، دون ان ينظر الي. كنتُ اتساءل، مضطرباً، في سِرّي الذي غدا أبيض من الفَيْض: ماذا يريد ان يقول؟ ولكن مَنْ لي بإجابة شافية، والعالم يضيق بالأهوال؟

وقبل ان اعلن عن السؤال الذي كان يشغلني، قال موضحا (كما بدا لي) وكأنه كان في نفسي: «هذا يعني ان القديم قديم بكليته: نظاماً وسلوكاً وتعاليم. وان معيار الكائن الأساسي يجب ألاّ يكون التاريخ وإنما عقله. عقله القادر على نقد التاريخ والواقع معا».

ها؟

[٣]

صوت علي هو الذي فصل بيني وبين «الصوت». صوت «ابن الوراق» الخاتل في الاعماق. صوت يظهر حينما يجب ان يختفي كل صوت. ويموت عندما أريده ان يكون. لكأنما بينه وبين العدم حلف. حلف التماهي المغرور. صوت لا يوضّح المجهول، وإنما يغنيه. وفي «غنى» كهذا، فقط، يمكن ان يعثر الكائن التائه على دربه، كما كان يقول. كيف لي ان اقاوم النور، اذن؟ نور النهار الدمشقي الذي بدأ يلوي الاعناق، ويليّن الاشداق؟ ومَنْ يمكن له ان يجيب، وعلي يتساءل بحنق:

– اين هم ربْعُك ياعثمان؟

كنا نتقدّم؟ لا؟ كنا َنحور في مكاننا بحثا عن اللذَيْن اختفيا. واين؟ في صلافة تلك الجماهير التي لا تكف عن الالتفاف حول نفسها مثل دوائر الماء الغائر في العميق. كانت روائح الشطط قد بدأت تفوح من كليهما: عثمان وعلي. ولا بد ان جوع الصباح الدمشقي المليء توتراً ونذوراً، هو الذي أذكى نيران الحقد التي أخذت تتبدّى لديهما، إنْ لمْ يكن هو الاهمال المسكوت عنه، وقد تجلّى استياء.

حسبتُ عثمان، يوافق الرأي عليّا، ذلك الصباح؟ وكانت تلك هي المرة الاولى التي يداهمني فيها احساس مثير للاضطراب كهذا. كان علي يتمتم في ذقنه، وعثمان صامت لا يجيب؟ كنت احاول ان اعرف اتجاه الريح التي ستقودنا الى الفيء، عندما قال علي باستياء: «وهل يعطي من يملك لمن لا يملك شيئاً إنْ لمْ ينتزِعْه منه بالقوة»؟ تعليقا على قول عثمان الفائت «سيأكلان..» الا ان عثمان بدلاً من ان يعلق، وضع ذراعه حاجزاً امامنا ليوقفنا بتصميم عن السير؟

ماذا رأى في ذلك الضوء الساطع، ومَنْ؟ ضوء الشمس الدمشقية التي لا يمكن التنبّأ بتأثير أشعتها الفائرة على الاجساد. اجساد الشام اللّيِّنة التي تتلامس مفعمة برغبات بلا حدود. تترافق في الأزقة الضيقة وكأنها في سعة من المكان، حيث التَماسُّ المتواطيء لا يزيدها إلا غروراً بحالها، وحبوراً؟

وكأنني اردت ان احس طعم كلماته الموحية التي قالها لي ذات يوم، صرت ارددها في اعماقي، وبلهجته الشيطانية، نفسها: «الجمال يغدو أكثر جمالاً عندما

يهتَمُّ الآخر به. وليس للجسد من وجود خارج الرغبة فيه»! ولَكَمْ بدا لي انه، فيما قال، على حق.

لا؟ لم اكن قد رأيت من قبل في دمشق بشرا مثل هذا؟ بشر يتلامس ويتهامس. وكنت كالمقعد في فياف بلا ضفاف: اخاف واخاف؟

أيكون ذلك بفعل الضوء، وحده؟ أم أن «الرَغْبة من رؤية الناس والاشياء تعميني»؟ أولمْ يقل هو ذلك؟ أوَ لَمْ يَقل ان العيون المشغولة عن العالم لا ترى احداً، حتى ولا نفسها »؟

ولكن أي شيء يجعل عثمان متوتراً الى هذا الحد؟

– انظر؟ قال محتدّاً (بعد ان اوقفنا عن السير) واضاف وهو يكاد ان يهزّ علياً:

– انظر؟ كيف ينهشان الاكل وحدهما؟

كنت ارى انفعالته «الأكليّة»، هذه، تمشي، مثل سمّ الافعى، تحت جلده الذي اخضَرَّ من الامتعاض. ولكن أنّى له ان يجرؤ على ابلاغهما ما يعتمل في قلبه؟ ماذا بامكانه أن يفعل، إذن، غير ان يُزيّف ما يملأ نفسه من غثيان؟ غير ان يتساءم دونهما وهو يتلوّع من سَوْرة الغيظ؟

كان القرف يتجلّى واضحاً في هيئة عثمان وقسماته. كان يريد، لو يستطيع، الانقضاض على ايديهما لنهب ما كانت تمتلىء به. ولكن كيف؟ كنت ارى، بوضوح مخيف، مدى العدائية التي لم تعد تبحث عن مخبأ لها في عينيه. أيكون المرء جديراً بمثل هذا الحقد منذ ان يتهدد «أمن بطنه»؟ كان يتمتم مستاء وهو يدور في مكانه، مثل حصان مشدود العنان، ومهمل:

– كل هذا التَخابُؤ، والتسارع في الطرقات، من اجل أن يأكلا قبلنا بلحظات، أويصيبا اكثر منا قليلاً؟

كانت حال من الهذيان الطاغي تستبد به. هذيان الحقد الذي لا يُروى؟ لا لم اعد مقتنعاً بما يُبْدي، أيكون في الامر ذريعة اخرى؟ ام ان للناس مذاهب ومتاهات لا يمكن الامساك بها على الدوام، وبخاصة عند مَنْ يبدون لنا بلا اهواء!

ووجدتني أهمس في أُذن عَلي: كنتُ احسبه مخلصاً لهما! وقبل ان يسمع ما

قلت، وكأنه كان على علم مسبق بمشاعري (وهو ما صار يثير حنقي)، قال عَلِي بهدوء، ولكن بثقة لا تتزعزع: «عثمان لا يعرف الا اخلاصا واحداً، هو إخلاصه لنفسه»؟

– تعالوا. تعالوا.

كان عمر يشير الينا هاشّاً، باشّاً. يشير لنجلس حولهما كالعصافير. كان الحبور بادياً في عينيه. حبور مَن التقى، اخيرا، بكائنات يحب ان يرويها بعد ان ارتوى هو من قبل. وان يطعمها بعد ان أكَلَ ما كان يرغب فيه.

وبدلا من ان امشي مثلهم نحو الصحون التي كانت تتبارَق في الضوء الدمشقي الآسر، توقفت في مكاني كالحَرْدان بلاسبب. توقفت لألُمَّ أشتات ذاتي التي غدت كالخِرْقَة البالية من شدّة الجوع. لا، لم يكن جوعاً ما هَدَّ قواي، ذلك اليوم، بل نوع من التضاؤل القديم الذي كان كثيراً ما يداهمني على غير موعد، مُحوِّلاً سعاداتي الصغيرة (إنْ صَدَفَتْ ذات يوم) الى تعاسات لا تحتمل.

تَبَدَّلَتْ أسارير عثمان الى نقيضها، فوراً (وهو ما إثار دهشتي) منذ ان رأى الصحون تبرق امام عينيه النهمتين.

صحون ملأى بما لَذَّ وغاب؟ اما علي فقد قال بلين (لم يسمعه احد سواي)، ولكن بحقد: «تأكل الأسود، وتلحس الثعالب»؟ ولكي يتخلّص، ربما، من تلك الرؤية الأُحادية المسطّحة التي كانت تسيطر على الجو: رؤية الجائع لصحون غدت فارغة دون ان يمسها، ولكي يخلق لنفسه رؤية اخرى اقوى من الجوع وألَذّ من الشبع، امتنع علي عن الاكل (مؤقتا) وهو يجالس الريح.

وَلَغ عثمان، منذ ان جلس، في الصحون التي كانت نصف فارغة، وهو يقول بصوت ملتبس:

– نسيتمونا؟ نسيتمونا؟

كان يأكل ويعاتب بنوع من التأنيب اللَذّي المضمر وكأنه هو الذي اخطأ.

– نسيناكم؟؟

قال عمر متعجبا من مقولة عثمان الذي لم يكن ليتوقف عن الاكل، وكأنه كان

يريد ان يُعَوِّض كل ما فاته من أكْلَةِ ذلك الصباح. ولمّا ظل ساكتاً لا يجيب، اشار عمر بأصبعه الى الرجل المحتسب واقفاً:

- صَلِّح الصحون، يا رجل؟

- صَلِّح الصحون؟؟

احتَجَّ عَلِيّ بشدّة وهو يصحح مقال عمر:

- هات لنا صحوناً جديدة، يا أخي.

تطلّع بكر الى عمر باستياء كبير، وكأنه يُؤنّبه على تلك الهَفْوَة التي سمحت لعلي بالتدخل في شأن جديد، لم يكن يتدخل فيه من قبل.

حسبت انه يريد ان يقول لعمر شيئا لا يريدنا ان نسمعه، لكن الحركة المستمرة ليد عثمان شَلَّت القلب واللسان. ومع ذلك، قال بكر بنوع من التَرفُّع والتسامح، وكأنه اراد ان ينتهي حديث الطعام عند هذا الحد:

- الكريم مَنْ أكرَم غيره، يا عمر.

قال ذلك دون ان ينظر الى أحد منهم، أو يتوَجّه بالحديث اليه.

إنهمكَ عثمان في إلتِهام الطعام الذي جاء به الرجل على الفور. لكأنه لم يكن معنيّاً بما دار حوله من حديث. كنت احس به وكأنه يريد ان يلتهم عشرات الاطباق دفعة واحدة. ان يلتهمها كما يلتهم طفل محتويات صحنه احتجاجاً على أبويه. وقبل ان ألُمَّ بما كان يدفعه الى فعل ذلك، همس لي علي، وكأنه يهمس لحاله: «يريد ان ينتقم منهما». وأكّد فكرته هذه على الفور، قائلاً: «فالانتقام عنده شأن بطنيّ»؟

لم افهم، تماما، ما اراده علي بقوله، هذا، مع ان كلماته كانت بسيطة ومفهومة. كانت الُحمولَة النفسية التي ملأت تلك الكلمات بتوتر لا يُدرَك هي التي جعلت الفهم يضطرب في رأسي. اكتفيتُ، إذن، بأن ابتسمتُ له ابتسامة بلهاء بلا محتوى. ابتسامة ماتت على شفتَيَّ قبل أن تصل اليه.

اكتشفتُ، بعد لأي، انني لمْ أمد يدي الى الصحن الصغير الذي وُضِع امامي بلا مبالاة (ولم يكن ذلك يعني احداً منهم). وشجّعْتُ نفسي لكي اتناول منه

شيئاً، ولم افلح إلا بشكل ناقص وبليد.

كان نوع من الاضطراب الخفيّ، ولكن الشالّ، يركبني بمجرد حضوري لمجلسهم، مع انني لم انقطع عنه منذ زمن طويل. اضطراب يشوّش هيئتي وكياني. يُشوِّشهما الى حدّ التشويه المقروء على القسمات.

لم ينتبه أيّ منهم الى الخذلان الذي كان يملأ نفسي، ذلك النهار، باستثناء علي. كانت يده الثخينة تمتد، هي الأخرى بتردد ملحوظ، مثل يدي، لتلتقط بعض الطعام الذي صار، الآن، في حوزة الروح. طعام مبذول لكلينا، ولكن بلا شهية. أين غاصت تلك الرغبة العارمة بطعام لم يكن منظوراً، بعد؟ طعام كنت احسب انني سألتهمه إلْتِهاماً منذ ان تقع عليه عيناي.

ووجدتني، لاول مرة، أتساءل: في أيّ نحو من انحاء الكيان تولد الرغبة، وفي أيّ ركن منه تختفي؟ واحسست انني لم اكن ارغب، آنذاك، بأي إجابة تأتي من احد آخر. كنت اريدها ان تجيبني هي: حَواسّـي. حواسي التي كنت ألُـمُّـها برقّة بين جانحَـيّ. وكانت تلك اول مرة يخترقني فيها شعور واجِـف، كهذا؟

وقبل ان احسم ترddاتي، سمعتُ علياً يَنْـهَتُ وهو يناول احدا آخر صحنه الذي بين يديه:

- خُـذْ. خُـذْ؟

لكن الرجل الذي كان يقبع في مواجهتنا ظل جاثماً بلا حراك. لكأنه لم يعد يملك من امر نفسه الا العيون التي كانت تستدير في محاجرها بلا مبالاة.

- «تـنْـبَـل» آخر من تنابل دمشق يدلله علي؟

قال عثمان ساخطاً وهو يكاد ان يسترد الصحن منه (مذكِّراً، قصداً، بصعاليك دمشق وهُمّالها، كما كان يحلو له ان يسميهم). وبلا مراعاة لشعور الرجل (ولا لشعورهم، ايضا) اشارهازئاً الى رأسه، راسِـماً علامة القبعة التي لم تكن لتفارق ذلك الرجل؟ قبعة هي ملجؤه الوحيد لحماية نفسه منَ حـمَـأة شمس دمشق التي لا ترحم.

بلا حماس تناول «الرجل - الجثة» الصحن الذي قَـدَّمه له علي باصرار. تناوله

دون ان يغيّر من جثوته على القاع. وبلا حرج بدأ يلتهم محتوياته التي لم تصمد الا ثواني. وبعد ان مسح لحيته الكثّة الغريبة الشكل، أعاد الصحن الى مكانه، وهو يُسبِّح: «سبحان مَنْ أطعمني مِنْ حيث لا احتسب»؟ وسمعتُ عثمان يتمتم بصوت لئيم: «يكذب حتى على ربه»؟ ويضيف بازدراء: «ذلك هو شأن العامة، دائماً: تمنحهم فيطمعون. وتمنعهم فيقنعون».

تململ بكر بعنف هز الحضور، جميعاً. وبدا الكرسي الهزيل المصنوع من القش اليابس وكأنه سيتكسّر تحت ثقله. كانت انظاره الحانية تحُطُّ بلطف على وجه الرجل، وكأنه يعتذر له عمّا بدر من عثمان.

اما عمر فقد اكتست قسماته بُصفْرَة مفاجئة، وكأنه هو الذي قال ما قيل، لا عثمان.

بَدَّل علي من جلسته حتى صار وجهه في وجه الرجل الذي التَهَم الصحن منذ ثوان، وهو يبتسم له ابتسامة ذات مغزى، مردداً: «قد قيل ما قيل إنْ صدقاً وإنْ كذباً / فما اعتذارك عن قول اذا قيل»!

تحرك الرجل الجثة (الذي كنت احسبه مقعدا) بهِمّة، ليقعي بأدب بالقرب من علي، مُتَمْتِماً له بكلمات لم اسمع منها شيئا. سمعي كان يلاحق، منذهلاً، كلمات التوبيخ التي انطلقت من فم بكر: «ويل لأمة يتولّى امرها هذا، يا عمر»! مشيرا الى عثمان الذي انشغل، فجأة، مع بعض المارة، والدابرين.

اكتفى عمر بأن هزَّ رأسه هزّة صغيرة تكاد لا تُرى. اما علي فقد استغرق في الحديث مع الرجل ذي الأصابع البنية والثوب المُرَقَّط من القيح. كان الرجل يضحك بكثير من الحشمة والاعتداد بالذات. ولقد أثار اهتمامي ذلك التبدّل المريح الذي كسى وجهه، مُحَوِّلاً قسماته المظلمة الى اخرى غيرها. الى قسمات مضيئة سهلة الولوج. لكأنه صار كائنا آخر. أهكذا تتبدل ألواح الكائن بتبدّل القَرين؟ أيكفي أن نهتم قليلاً بأحد من الناس حتى يصير جديراً بنفسه، لا بنا فحسب؟ كنت أتساءل متعجباً، دون ان انتظر اجابة، هذه المرة، من احد.

ولكن، ماذا قال علي لذلك الرجل الذي كان جثة فدَبَّت الحياة فيه؟ كيف لي ان

اطمأنَّ، بعد الآن، الى ما أرى؟ أيّ الناس هو الاقوى، وأيهم الاضعف؟ هل هو عثمان المتحفّز، دوما، ام هو ذلك الرجل الذي انتعظ، فجأة، كالعشب المَمْطور؟ اسئلة كثيرة كانت تعبر رأسي كالبروق دون ان املك اجابة عليها. و هل كنت اريد؟

وفجأة، حَفَزَ بكر واقفاً. ومعه وقف، على الفور، عمر. وأشار علي إليّ يحرضني على النهوض. الا انني تشاغلت ريثما يقف عثمان الذي عاد من غيبته متخلخلاً، حتى كاد ان يغفو في ذلك الصبح المتهيّء للشرور. كان بكر يتمتم حاقداً، بعد ان وقف على قدميه، وكأنه يلوم احداً، لا يستحق منه إلاّ اللوم، مكررا سؤاله السابق ولكن بوجه جديد:

- ما هو مشروعنا اليوم، ياعمر؟

لكأن المشروع الذي بدأ به الحديث انتهى، وهو يبحث الآن عن مشروع جديد. وعمر يحاول ان يعيده الى جادة الهدوء:

- الاسواق، يابكر؟

وكان عثمان هو الذي احتجّ على عمر (وكأنه يقرأ سريرة بكر):

- اسواق دمشق القديمة، مرة اخرى؟

كان لخراب غفوته (وبخاصة عندما لا يأكل كما يشتهي) تأثير فتّاك على انفعالاته. كنت اعرف ذلك من الهَزَز المتراكم في شفتيه. حتى إنه، احيانا، يعجز عن التحَكّم في قيافته واقواله، كما حدث، هذا النهار، ايضاً.

حاولتُ ان اسأل عليا عمّا كان يشغل قلبي (وقد كان مفعماً بكثير من الأمور)، الا انني اكتفيت بان أصختُ السمع إلى نفسي؟ كنت كمن يكتشف نعمة النظر، فجأة، بعد ان حرم منها طويلاً. ولاول مرة، كنت احسني أُحيط بما كان يحيط بي، دون حاجة الى معونة الآخرين. ولست ادري لم ملأني، آنذاك، احساس غريب بالخوف الذي تجلّى ارتجافاً بلا قرار لديّ؟

وهل كان ان بامكاني ان اسأله شيئاً وهو يتمتم محموماً بالقرب مني (وكأنه يحكي في اذنه. في اذن ذلك الرجل الهزيل): «لُؤماء كُثُر يواجهونك؟ لُؤماء لا

يرحمون. وهزيمتك، في هذه الحال، لا بد منها. إخْتَرْ هزيمتك، إذن. إختَرْها قبل ان يفرضها عليك الآخرون».

لمن كان يحكي، في رهبة الصبح علي؟ والى من كان يسدد الانظار وهو يلقي بخطبته المجيدة، تلك؟ أي الاشياء أشبه بالموت اكثر من الخيبة التي لا مفر منها؟ ولِمَ كان يبدو عليه وكأنه يجيب أحداً ألَحّ بالسؤال. يجيبه بسرور وبلاضغينة.

هل سألته أنا شيئاً؟ وما كان بامكاني ان اسأله وانا أُتابع، باندهال، كلماته التي كانت تتناثر، حولي، من فمه المُلَوَّث باللوم؟

بلى؟ أوَ لمْ اسأله عن سرّ إبتهاج ذلك الوجه المعتم الذي شاع في ضُحى النهار؟ وجه الرجل – الجثة، وقد حاباه قليلاً. وكأنه لم يكن يجيبني بل يجيب نفسه التي امتلأت بالاضطراب، قال، بمودة: «عندما يتكلم المرء من قلبه فان العالم يضيء».

[٤]

– انتم تعرفون ان علينا أن نتخلّص من قبضة الجهل والتقاليد، وان نتجنب القمع والظلم. لكنكم تفعلون العكس. كيف تريدوننا ان نتقدم وسط هذا العَماء؟

قال علي محتدا، وهو يتحرك في مكانه. لكأنه يريد ان يطير ولا يقدر. كانت عيونه ترقى ظلمة المساء الدمشقي البادئة بالانتشار، صاعدة نحو قمة الجبل الهادىء: قاسيون.

– التقاليد ليست سيئة، دوماً، ياعلي. والخلاص منها ليس امراً محمودا، دائماً. ألا تريد ان تفهم ان الحياة لا يمكن ان تقاس بمقياس واحد، فقط؟

قال عثمان متسرِّعاً، وكأنه اراد ان يعطي الفرصة للآخَرَيْن لتهيئة اقوالهما، اذا ما ارادا ان يقولا شيئاً.

– التقاليد؟ حسناً؟ والجهل؟والقمع والظلم؟ ام تريدونني ان أُعدِّد المساويء الأخرى، ياعمر؟

ردَّ علي فوراً وهو لا ينظر الى عثمان وانما الى الفضاء البعيد المرتسم غماماً

فوق رأسه.

بعده حلّ صمت حزين قطعه صوت عمر المتسائل:

– ولِمَ ذلك ياعلي؟

قال عمر وبه رغبة حقيقية (كما بدا لي) لمعرفة ما كان يدور في خلده. وإنْ لمْ اكن أَلُـمَّ، بعد، باسباب ذلك الحديث الذي بدا متفجّراً، ذلك لنهار.

كنت عندما بدأ مشغولاً، كالعادة، بامور تافهة تقتضي، هي الاخرى، وقتاً وجهداً. أُمور كانت، غالباً، ما تسدُّ في وجهي الطرق المفتوحة للادراك. لكأن الانتقال الُصدْفَوي الذي جاء بي من الصحراء الى دمشق لم يترك لي امكانيات اخرى لتطوير نفسي (وتثويرها) غير امكانية التصَنُّت والاحتيال؟

كنت اعاني بسبب ذلك (وربما لاسباب كثيرة اخرى اجهلها) من ارتباك شديد في علاقتي مع الناس، وكذلك مع نفسي. كنت احسب (بسبب ذلك ايضا؟) ان التدخل الفعّال في شئون الحياة، بما فيها حياتي الخاصة، من حق الآخرين وحدهم. وكان ذلك الشعور الطاغي من الخنوع هو المسئول (كما احسب الآن) عن الشلل الذي كنت اعيشه، برغم الارادة الصلبة التي كانت تغذيني للخلاص منه.

قطع استرسالي الداخلي صوت علي وهويقول متعجِّباً:

– لِمَ ذلك؟؟ انت مَنْ يسأل هذا ياعمر، وانت ادرانا بما يشغل الناس، ويضنيهم؟

وبعد ان تلملم، وكأنه يتهيأ لتحاشي صدمة قاسية كان يحسبها آتية ولاريب، اضاف:

– عندما تأهبنا لخدمتهم كانت تملؤنا (وتملؤهم) آمال واحلام. كنا مهيئين لتحقيق ما كنا نحلم به، وكانوا مستعدين لتحمّله. وشيئا فشيئا تبيّن الخيط الابيض من الخيط الاسود، ولم يبقَ لهم، الآن، من ذلك، كله، الا صلافة التسلّط والقمع الذي يتحملونه كل يوم.

وكأنه احس بحاجة الى الصمت، سكت، فجأة، وهو لا ينظر احداً. سكت، لا

ليكُفّ عن الكلام نهائيّاً، بل ليقول شيئاً أبعد مما قال. ليقول مالم يقله احد آخر غيره، كما تصورت مرعوبا. كنت احسب ان للكلام اجنحة، وبه براكين (ولم أكن في حسباني، هذه المرة، على خطأ)؟ وفعلاً، أضاف:

– لقد صار الخلق يخشون لا ما نفعله الآن، فحسب، بل ما سنفعله مستقبلاً، ايضا. لكأن حياتهم غدت دَوْرة من جحيم؟

كان يريد ان يضيف شيئاً آخر، كما توقعت. شيء اكثر تَفَلُّتاً واحتداماً (فمن يدوس الجمر بقدميه لايخشى اللهب الهائف، كما يقول ابن الوراق) الا انه سكت. سكت، من جديد، وكأنه لم يكن قد تكلّم، ابداً؟ ولكن، لماذا سكت علي؟ صرت أتساءل، ولا من مجيب.

عثمان هو الذي تدخل، (وأكاد آقول، تدخّل عن عمد، واصرار) إذْ قال لائماً:

– نزعة التنازل للناس، او النزول عند رغباتهم، هو الذي يسمم الجو بيننا، ياعلي.

وبعد ان تطلع من طرف خفي اليهما، اضاف، معتنياً بكل كلمة يقولها:

– ألا تريد ان تفهم ان البدء، مجرد البدء، بتحقيق بعض مطالبهم سيتحوّل الى التخلّي، نهائيّاً، عن مطالبنا.

– كيف تريدوننا ان نسوسهم، إذن؟ ولِمَ وكّلْنا انفسنا بمصالحهم، ياعمر؟

– كيف تريدوننا ان ندوسهم؟!

قال عثمان متسرعاً وقد لقط الكلمة محرفة من فم علي. وعبّر علي عن استيائه الشديد، فوراً، ولكن دون جدوى. لأن عثمان اصرّ على تحريفه، مؤكداً له (لهما بالاحرى) ان تلك «الزلّة» لم تكن الاولى، ولن تكون الاخيرة (على حد زعمه).

ابتسم عمر بتحفظ شديد ازاءاصرار عثمان على «إدعائه»، وظلّ بكر صامتا لا يقيم. وكرر السؤال علي وهو يتميّز غيظا:

– انا قلت هذا؟ لِمَ لا تقول الحقيقة، يا عثمان؟؟

ولم يسكت عثمان عنه، إذْ قال بتوتّر لا يخفى على النظر: – ولِمَ تراني مطالباً بأن اقول الحقيقة؟ واية حقيقة تريدني ان اقولها، ياعلي؟ وأضاف بنوع من

التَبهْوُر المزعج: ولمن يتوجب علَيَّ قولها؟

إنكَمَشَ عَلِيّ بقوة. وتبدّل وجهه من الاحمر الى الاصفر، وكأنه أُصيب بنازلة لا تُحتَمَل. وبلوعة شديدة، قال:

– انت لا تحب احدا، يا عثمان؟ وَمنْ لا يحب الناس ليس للناس حَقّ عليه.

وبعد ان هدأً من غضبه الجامح، اضاف بيأس كبير:

– صحيح؟ مَنْ لا يحب الناس لا يحب الله. ومن لا يحب الله لا يعرف معنى الحقيقة.

بعد ان قال ذلك سكت علي. سكت عميقاً وكأن شللاً آسراً تسلّط، فجأة، على عينيه وشفتيه. كانت الَجمْدَة تتلبس انحاءه واركانه، حتى بدا وكأنه لم يكن حَيّاً منذ قليل.

كان سكوته المريب، ذلك النهار، علامة جديدة على القطيعة. القطيعة التي كانت تُحاك في الخفاء. في خفاء ذلك الواقع المليء بالمتناقضات. ولكن من يرى ما لا يُرى؟

ضوء «مريب» كان يتراءى، برغم ذلك كله، على قسماته. ضوء مرفوق بخدوش. خُدوش لا يحسّها الا القاصد رؤيتها ولقاها. كان يبكي! يبكي بلا دمع ولا شفاعة؟ ولكن لِمَ كان يبكي، في ضوء النهار الدمشقيّ، عَلِيّ؟ ومن أوحى لي بذلك، كله، إنْ لَمْ يكن هو الظمأ المفاجيء الذي بدأ ينهش احشائي بوقاحة؟ ظمأ الحَماد الهمجي الذي طالما لَوَّع احشاء اهل «الذُرو» الغاطس في السراب. بين «شيحه وقَيْصومه» كنت اختل كالجرادة حتى تميل الشمس، حتى اشرب، شَهَقاً، فيأها ونُؤاها.

كدت ألمسه. ولم افعل، خشية من سقوطه على القاع. القاع التي لم يكن يريد ان يمسّها الا مرحاً وسعيداً. كم مرة رأيته يَتَمَرْغَل فوقها، مُصاباً يديه وقدميه، متطلّعاً بشغف الى السماء؟ شغف الصمت الذي يَنُمُّ عن الكلام. كلام القلب الذي أخطأ هدفه، مع أنه أصاب.

وكأنما أصابه مَسّ مفاجيء، رأيته يسحب نفسه من الموت الذي تسلّط عليه،

ويركض. يركض، ملهوفاً، باتجاه رجل عابر. رجل لم اره، ابدا، من قبل. بشوق كبير حَضَنَه، وهو يردد: اخيراً، رأيتك، يارجل!والرجل يتأفّف من الحضْنَة والقول. أيّ رجل هو هذا حتى يركض علي من اجله ساحباً، خَلْفه، ثقله الباهظ؟ ولِمَ كانت كلماته مملوءة بالرفق والحنين؟

كان الرجل يشبه الغراب. يشبهه الى حد العجب؟ رجل أسحَم الوجه. جلده مُلَوَّح بالشمس التي تحرق النور وهي تعطيه. أنفه أعقف مثل منقار طير جارح. عيناه ضيقتان مرميتان في نُقْرَتين بلا أكاليل. وجنتاه بهما حُفَر وتضاريس. هيكله نحيل وكأنه لُحِس بألْسنة لا تُحصى؟ قدماه حافيتان الا من جلدهما الذي غدا سميكاً مثل جلد النعل المدبوغ. يَلُفُّ نفسه بأربطة من أقمشة غُبْر ومن مصارين؟ جلود وخيوط وقشور واستعارات شتّى، تشكّل كيانه. كيانه الذي بلا حميّة او يقين.

بدا الرجل – الغراب وكأنه أخرس. لم يقل شيئا لعلي، مع ان عليا لم يكن ليكف عن الكلام! أكان يكلِّم نفسه علي؟ نفسه الأسيفة التي بدت، هذه المرة، بلا أفق. مَنْ كان ذلك الرجل الذي أشعل الشوق في نفس علي وعينيه؟ شوق بَلْبَل كل شيء. كل شيء كنت احسبه مستقرّاً.

بطاقتي، كلها، مسحته. مسحت الرجل الخاتل تحت هيكل علي. لا، ليس فيه اية علامة من علامات الحياة التي اعرفها، انا. لا فرح. لا اكتئاب. لا مسرة. لا خيبة. لا اندهاش؟ وجه تعابيره لا تعْبُرُني. وهيكل علاماته تأبى على إدراكي. ماذا اريد منه، بعد هذا، كله؟ ولمَ اخشاه؟ لِمَ تراني اخشى احدا لا اعرف عنه شيئا، ولا ادري، حتى، من اين جاء؟

أيكون حرماني المزمن من كل شيء هو الذي يخَرِّب، باستمرار، وبلا سبب معقول، علاقاتي مع الناس الذين يقاطع دربهم دربي؟ ألا أريد أن أكبر؟ أن أقفز فوق هذا البؤس الذي لا خلاص منه الا بالخلاص من الحياة؟ صرت اردد مُعاتباً نفسي. نفسي التي بدت لي كخروف القطيع المكروه، مرميّة بلا رُبوع. نفس محشوة بنفاياتها، حتى لم تعد تتسع للنظر الحصيف.

كان الرجل الغراب يَتَفَلَّتُ من أذرع علي، وهو يتمتم بصوت لا يكاد ان يسمع: اريد ان امشي. وعلي يتعجّب: منذ عرفتك وانت تمشي؟ وتهيّأ الرجل ليمشي. ومشى، فعلاً. مشى دون ان يهتَمّ بحيرة علي وباصراره. وظلّ علي وحيداً، يبحث عن أحد لا وجود له في ذلك الفضاء الممتلىء بالسائرين.

ورأيته يتشبث به، وهو يسأله بإلحاح: ألا تريد أن تصيب معنا اليوم شيئاً؟ لكن الغراب اخذ يبتعد وهو يقول بصوت كنت اسمعه، هذه المرة، بوضوح: ما جدوى أن أُصيب اليوم شيئا لا أُصيبه كل يوم.

أثار جوابه البسيط ارتباك عقلي السريع الحيرة. وكأنني أردت أن أعاقب نفسي (مرة اخرى) على بلادتها، انهمر سيل شتائمي الذاتية للذات.

لم أكن اعرف، آنذاك، لِـمَ كنتُ احسب انني افتقد القدرة على الإدراك، وعلى العمل. ولا، لِـمَ كنت احتقر طاقتي على الفهم، وأُجِلُّ، عفويا، طاقات الآخرين؟ والى الآن، ظلّ يُـلازمني ذلك السؤال المخيف المتضمّن جوابه الاكثر رعباً: مَنْ حَقَنني بسـمّ احتقارالذات وتسفيهها، الى ذلك الحد، الى الحد المَرَضي الذي كنت أُعانيه بلا ذنب ظاهر على الأقل؟

وعندما عرف «ابن الوراق» مني ذلك، ابتسم بلؤم، وهو يردد: «أعظم الذنوب هو أكثرها خِبْأة» و لَكَمْ كنت اخشى أن يكون على حق فيما قال. وقد كان فعلاً!

كانت خيبة علي كبيرة بعد ان خذله الغراب. إذْ رأيته يتجالس، سانداً حاله بحاله، لئلا يسقط، أسفاً، على القاع. كنت ارى، لاول مرة، قلقاً غريباً يرتسم على وجهه. قلق لا شأن له بأحاديثهم وتناحراتهم.

لكأن حواراتهم المتفجرة لم تكن تزيده إلا اطمئناناً، وثقة بالذات، عكس ما فعل فيه الغراب «برفضه البسيط» لدعوته الصادقة.

لقد تحَوَّل اطمئنانه الغامر الى قلق وغبار. ومع ذلك، لم يكن يريد ان يعترف بهزيمته. هزيمته التي لا بد منها، كما كان يقول «ابن الوراق» الذي كان يضيف: «ماذا بامكان الكائن ان يفعل عندما يُـخذَل غير ان ينسى وأن يتذكر؟أن ينسى كل شيء، وأن يتذكر شيئا واحدا فقط، هو هزيمته الآتية»؟

ووجدتني احقد في سرّي على ذلك الرجل، حتى قبل ان اعرف عنه شيئا، شيئا محددا بالذات. لقد بدا لي منذ إن رأيته، لاول مرة، مثيرا للريبة والخوف. كان يمشي في المدينة وكأنه يمشي في صحراء بلا أُفق. لا ينظر الناس، وإنما يتناظر وإيّاهم. ليس على محياه امارات الكره او الحقد. ولا الحب او التعاطف. وإنما الخيبة. الخيبة الممزوجة بالاستياء: خيبة رجل تخلّى بشكل جذري عن محيطه. وتخلى محيطه عنه. رجل لم يعد يؤمن بالرفق ولا بالاصلاح.

تطلَّعْتُ، خلسة،الى وجه عثمان الذي شغل نفسه (قصدا) بإطعام كلب ضَوَى بالقرب منه. إطعامه بعض فتات الطعام الذي فاض عن حاجته، بكثير من التَعطُّف والرفق.

تطلّعت اليه علّني استطلع الامر منه. ولكن عبثا، كنت اتطلّع. كان منهمكاً باطعام الكلب، وكأنه لم يلحظ وجود ذلك الرجل الغريب بالقرب منا؟ وكان ذلك، وحده، كافياً لإشاعة القلق العميق في نفسي. نفسي التي لم تعد قادرة على الحركة ولا على الابتكار.

وحسبتني ارى الابتسامات السرية تتقاطر من شفتيه وهو يَزتُّ الفُتات لذلك الكلب (الاجرب) الذي لم يكن ليتوقف عن هَزّ ذيله كلما ألْقَمَه عثمان لُقْمة. ابتسامات غدت ضحكا خبيثاً، عندما سأل بكر بصوت خافت:

– مَنْ هو هذا الرجل ياعمر؟

وأجاب عمر بحيرة صادقة:

– وأنّى لي أن أعرف، يابكر؟ إنه أحد اصحاب علي، ولا بد؟

– السرّيين.

أضاف عثمان بصوت لا يكاد أن يُسمَع. وكأن بكرا تجاهَلَ، عمداً، ما قاله عثمان، تابع بهدوء:

– أحد أصحاب علي وهو في مثل هذه الحال؟؟

واستدار عنهم، وهو يضيف بارتباكٍ (وكأنه لم يكن يريد ان يسمعه احد منهم): هذا الكائن الغريب صاحب له؟

كان تعجّب بكر وقلقه في محلهما. فمن لمَ يـرَ ذلك الرجل لا يمكنه ان يفهم ماذا تعني كلمة «كائن غريب».

ولفترة طويلة لم تترك عيونُ بكر عيونَ عمر الذي بدا وكأنما َمسّـه قلق غريب. قلق بدا واضحا في ارتجاف شفتيه المتهدّلتين بتَـوْق.

كانت عتمة الحيْرَة التي ملأت نفسي، فجأة، لا ضوء فيها. كان جو دمشق الملتهب، آنذاك، يلتهم السِمات. سِمات الناس والاشياء. لا، لم يكن ثمّـة ما هو قابل للفهم باستثناء نور الشمس الساطع الذي ملأ الفضاء.

صِرْتُ أتساءل في سِرّي، إذْ لمْ أكن قادراً على طرح السؤال على َمـنْ هو قادر على الإجابة عليه (وكانت حالتي، تلك، إحدى العقبات الأساسية التي تحول دون تفكيك الأربطة التي ظَلَّـتْ تُكَتِّفُني مثل خروف مُعَـدّ للتضحية به عند اللزوم) صرتُ أتساءل في سرّي، إذن: إنْ كان لكل ما سمعت، وما عايشتُ من معنى؟ من معنى قابل للفهم، وجدير بالتبنّي والاعتبار. وإنْ لمْ تكن المقولات الكثيرة التي سمعتها منهم ومنه غير َلـغْـو، غير َلـغْـو ضارب في عنجهيته وثُبوره؟؟

ولاول مرة، احسست انني كائن بلا حول؟ هل كانت المرات الاخرى التي عذبتني، مجرد أكاذيب، إذن؟ أكاذيب كنت بحاجة الى اعلان حاجتي لها؟ لا، انني اكذب الآن، ايضا. فانا كائن مَـجْبول من الكذب والزيف؟ كما صرت اعرف الآن، (الآن فقط)؟

قَـطَـع استرسالي السِـرّي، هذا، صوت بكر وهو يتعجّب، من جديد:

– رجل حرقته الشمس وأضناه الجوع ولم نسمع به، عجباً ياعمر؟

– لوسمعتم بكل الجَـوْعَى، ورأيتم كل المحرومين لما هنأ لكم عيش.

قال علي وهو َيْحرف وجهه عنهم. لكأنه اراد أن يسمعوا ما قاله، وألاّ يسمعوه، في الوقت نفسه. كان نوع من الاشمئزاز العميق ُيلَـوِّث حواسه، كلها. يُلوثها الى حد القَرَف والخوف.

كان «إنحرافه» عنهم انحراف كائن َيكُنُّ ضغينة عميقة لكل الناس (او لأكثرهم على الأقل). ولأنها لهم كلهم فهو لا يستطيع ان يفعل ضدهم شيئا. ولقد

بدا هذا الموقف الملتبس عنده، وغير القابل للفهم (بالنسبة لي) معضلاً جديداً سيعذبني طويلاً. وسيكون َعلَيَّ أن اتعوّد على احتماله والتعامل معه بحِذر شديد، رغم انني لم اكن ألُمُّ بدوافعه ومبرراته.

ولأنني لم أكن عليماً بالوقائع، ولا بأسبابها كان عَلَيّ أن أُحيط ببعض منها (ولو بشكل ناقص) وهو ماكان يتطلّب مني جهداً يفوق طاقتي، في اكثرالاحيان. إذْ لمْ أكن قد توصّلْتُ، بعد، الى استخراج احداهما من الاخرى. ولا الى إدراك أنهما شيء واحد، لا غير.

كنت، إذن، بحاجة الى اقتراف الكثير من الاخطاء، وتحمّل الكبير من المشقة، لأتعَلّم ما يتعلّمه الآخرون بلا جهد. ومع ذلك، كان على ان احاول. ان احاول بلا زيف، وبطاقتي كلها، لاعرف شيئا لم اكن اعرفه، من قبل. ذلك، وحده، جدير بتبرير الحياة البائسة التي كانت حياتي، كما كان يقول. يقول وهو يُصَوِّب نظرته الى الغيم. نظرته الغامضة المليئة بالمكر والانصات.

ألذا، صرتُ أتساءل بصمت وحذر، عن سر تبختر الرجل الغُراب، ذلك اليوم؟ تبختره البديع رغم هُزاله المريع (وكأن الُهزال عيب، كما في حالتي)؟

أتساءل، مكتفياً بخواطري، وكأن التساؤل الساذج، وحده، يشطب الجهل. لكأن رؤية الشيء تعفينا من ادراك خصائصه؟ لا، لم أكن قد قفزت، بعد، من فوق حاجز السؤال والجواب الى «حقل الرؤية النقدية» الشاسع حيث التفاسير، كلها، تعابير بلا قيمة. بلا قيمة تاريخية إنْ لَمْ تحرر «وعي الكائن من الابتذال»، على حد قوله.

أتساءل؟ أتساءل بغباء (من جديد) وكأنني نسيتُ قول «ابن الوراق» العتيد، وهو يهزُّ عظامي: «لِمَ يتبَخْتَر الكائن إنْ لمْ يكن قد أدرك قوة نفسه؟ نفسه التي وَعَت، اخيراً، مصيرها، والتي لم تعد تخضع لأحد حتى ولا له، هو، بالذات»؟ ولا بد انه كان على حق فيما قال. فكرت، وانا أُتابع الاختلاطات حولي.

[٥]

بدأ الضُحى الدمشقي يتخلّي عن برودته فاسحاً لِلَهَب الحر فضاءه البهيج. كانت الشمس بحاجة الى ساعات لترقى الدور العتيقة المتلاصقة المحيطة بالاسواق. دور تتعانق وهي تتلاقى وكأنها تريد ان تحمي بعضها من خطر رهيب؟

كانت اجمل الجلسات وأرطبها هي التي تتخذ مساطب الواجهات، وافنية المطاعم، ومداخل البنايات، أماكن لها. أماكن يحوم حولها الضوء دون ان ينفذ اليها. ولكي يَثْبت غبارها في الارض، ولا يعود قادرا على الطيران، سَتُرَشُّ أرضية هذه المجالس، بين الفينة والفينة، بماء الفيجة البارد كالسُمّاق.

كانت الجادات الصغيرة المتقاطعة من كثْرَة تَلَوّيها، قد بدأت تغصُّ بالخَلْق. الخَلْق الذي استَوى ماشياً وجالساً. ضاحكاً وعابساً. وأول الخَلْق الدمشقي: النساء؟

النساء الخُنَّس، نساء دمشق البهيّات اللواتي يمشين، خلسة، وكأنهن ذاهبات الى الغرام. كنت لا ادرك، بعد، أهمية تلك المشية المتثاقلة المحبوسة في الجسد الرطيب.

الجسد الذي يريد ان يتخلّص منها ولا يقدر! مشية تجعل العين تشتهي، وتُعَطِّر الروح بالغمام. بغمام حِسّي يتقَطَّر من أجسادهن المتمايلة إغراء. لكأنهن يعبرن رجالا بلا قلوب. رجال ليس لهم في رحابهن مكان. لكن فكرتي الحمقاء، تلك، سرعان ماكانت تتلاشى امام اعينهن السود المملوءة برغبات لا تُحصى.

كانت الخِمارات الرقيقة الملفوفة على الاجساد لا تثير في الانفس الا الرغبة في الكشف. في كشف المستور وهتكه.

كان عثمان يلاحقهن بعيون جريئة. عيون تكاد ان تقول: «تعالي». وعلي يُغضّ الطرف عنه «مضطراً» لئلا يتحاجج وإياه. كنت احسبه قد سئم من تلك المُلاسنات العقيمة التي لا تجدي نفعاً. « فخصائص الكائن لا تُعدَّل بسهولة، ولا تُبَدَّل عفواً. وحدها، ثورة حقيقية، قد تغير فيها شيئا »! كما كان ابن « ابن الوراق»

يقول، ضارباً أمثلة لا تحصى على الخبث المعمم، وشارحاً باسهاب نظريته المملة حول ألاعيب الذات، ومكرها الذي لا يُغلَب.

ولكن، لِمَ كنت أحسُّ أحاسيس الآخرين ولا أحسّ أحاسيسي؟ سؤال كهذا لم يكن يخطر لي آنذاك على البال. وفهمت، فيما بعد، أن ذلك التجاهل، اوالجهل المخيف (اقصد جهلي) لرغائب الذات (التي هي ذاتي) ناجم عن احتقارشديد لها. احتقار مترافق باحباط عتيق ومستمر.

ولم يكن غياب «السؤال» إلا دليلاً قاطعاً على الاستلاب العميق الذي كنت اعيشه. وهو ما يفسر، ولا شك، خصائصي المبنية على التسامح الكاذب، والعِفّة المزيّفة، والنفاق الخفيّ.

كنت، في الحقيقة، ألْتَهبُ لمرأى النساء اللواتي يمشين بهيبة ونزق. نساء تملأ أنفسهن الشهوة التي كانت تتجلّى بهجومها المباشر علينا. علينا جميعا. الا انني كنت اطفيء اللهب قبل ان يحترق به قلبي.

صار عثمان يتفقد، عند مرورهن، انحاءه وكأنه يخشى ان ينقص َنحْوٌ منها. يتفقدها متلمّظاً: «أكلات الرجال»؟ وهو يتطلّع، خلسة، الى وجه بكر. يتطلّع اليه باحثاً فيه عن علامات الرضى (او عن علامات الاستياء). لكن وجه بكر الذي تعكّر، كفاية، ذلك اليوم، لم يعد يبدو عليه سوى القلق. قلق رصين مترافق برغبة ملحّة في مغادرة المكان. في مغادرته على الفور.

تجاهل عثمان ذلك الشعور الطاغي عند بكر (وكانت تلك اول مرة يجسر فيها علي فعل كهذا)، إذتابع (بلا مبالاة) إطعام الكلب الذي ضوى أمامه من بقايا الاطعمة المتناثرة حول صحنه، ناظراً، في الوقت نفسه، بشهيّة، الى المرور.

بدا الكلب وكأنه ألِفهُ بشكل أكيد. «لكأن الكلاب تعرف طاعميها»! فكرت، متعجباً، وانا أُلاحق المرأة بعيوني. المرأة التي مرت منهمرة في ذلك الضحى الجيّاش.

ضحى دمشق المليء بالمفاجآت، حيث الصمت العميق، صمت الحركة المستمرة، يهيمن، بقسوة، على الفضاء. وكان عمر هو الذي فَكَّ قيود ذلك

الصمت الذي ران للحظات طويلة على المكان. صمت بليد بلا بنية، ولا مشروع، فقال متودداً:

- نصحبه معنا؟

وكأن عثمان قد هيّأ الجواب من قبل، قال بلافاصلة:

- أربعة وخامسهم كلبهم؟

ولما رآني استمع بدهشة عميقة الى العدد، كاد ان يضحك. الا ان تجهّم عمر المفاجيء لَجَمَهُ على الفور. وبدلا من ان يستمر في إطعام الكلب صار يقذفه بالحصى المنثور على القاع. واكتفى الكلب الذي أُلِّفَ بأن صار يَهُرُّ هَريراً خافتاً وهو يهزُّ ذيله النحيف بامتنان.

استغلَّ عمر فترة الصمت الجديد، وانشغال علي الآني، ليقول متذكراً ذلك الرجل الغريب الذي رفض دعوته:

- تقولون انه صديقه؟ لكن علياً وهذا (يقصد الرجل - الغراب) لا يلتقيان في امر، لا في صيغة ولا في مفهوم.

ولما لم يعلّق أيّ منهم على كلامه الذي مربلا اعتراض، اضاف مستطرداً:

- احسبه، على العكس، احد اصحاب «ابن الوراق» النِمَّة. وحتى هذه لا تستقيم. قال نافياً.

وبعد ان فكر قليلاً، وكله وقار (على العكس من عثمان الذي يلتهب احتقاراً عندما يتعلق الامر بواحد من هؤلاء، حتى ولوكان يريد التعريف به واعطاءه حقه كما يزعم) أضاف بانشغال عميق، وكأنه يريد ان يعرف الفرق بينهما، حقاً، لا ان يجمعهما قسراً (كما يفعل الآخر) فقال:

- «ابن الوراق» يبحث عن العدل التام كما يدّعي، وهذا لا يبحث الا عما يسدّ به الرَمَق.

وبعد ان نظر في وجوههم باحثاً فيها عما يمكن ان يدلّه على الحقيقة، اكمل (وكان علي قد انتهى من انشغاله الآني، وعاد الينا بعد ابتعاده عنا) وكأنه يعرف كل شيء عنهما، ولا يعرفه، في الوقت نفسه:

- ذاك، (يقصد ابن الوراق) لا يهتمُّ الا بالمطلق، وهذا (يقصد الرجل - الغراب) لا يهتمّ الا بالكيفية التي تُوفّر له ما يحتاجه آنياً.

وكأنما كان هو المقصود بما قيل، وبما لم يقل، فَزَّ من مَكْمنه علِيّ (وكان قد جلس للتو) وهو يتصاعد تساؤلاً:

- وأي فرق بينهما، يا عمر؟

قال ذلك بخِشْنَة مباغتة، وكأنه غِرٌّ يدافع عما يؤمن به. ولقد بدا (لي) سياق قوله منافيا لبهجة ذلك الُضحى الدمشقي الذي بدأ يغطى بنوره الفائر الكون. كون المدينة القديمة، ونواهيها.

- الفرق كبير يا علي.

قال عمر مستاء وكأنه أُرغِم على الكلام. واضاف بعد ان تنفس من انفه الرخيم:

- العدل التام يتطلّب َقلباً كاملاً للوضع، و...

- وتوفير الحاجات الأساسية للناس يتطلّب القلب، نفسه.

قاطعه علي وكأنه يخشى ان تفر الكلمات منه قبل ان يوصلها اليه (واليهم). قاطعه بأدب تجلّى في هيئته وفي كلماته. لكأنه كان يتكلم من قلبه، لا من لسانه، هذه المرة.

استغلَّ عثمان «مقال» علي، وطوّره بسرعة لاستكمال استعداده من اجل «كسب المعركة»، كماكان يقول. فكل علاقة مع الناس (مهما كانوا) هي حرب، بالنسبة اليه. حرب معلنة او خفيّة لا فرق، كما كان يؤكد.

كانت تلك المقولة «العثمانية» تثير في نفسي بعض النفور. وتثير فيها، ايضا، (كما يمكن للجهل بالأمور ان يثير) كثيراً من التَهيّب والاضطراب. ومع ذلك، كنت مستعداً لقبول اللعبة: لعبة سماع ما نكره بانتظار الاصغاء الى ما نحب.

كنت قد عوّدْتُ نفسي، مع الزمن، على ألاّ ترى في الأمور عيوبها وإنما مزاياها. مزاياها، فقط. ولا بد ان ذلك «التسامح الكاذب» هو الذي كان يمدّني بذلك «الخضوع الارادي» الذي كان يشلّ طاقة التوتر الفَعّال عندي. كنت مُجْبَراً،

في الواقع، على النظر برضى الى كل ما يحيط بي، حتى ولو كنت أكرهه واستاء منه.

«كنتُ مُجْبَراً»؟! كدتُ اضحك من حالي ومن الحياة. من الحياة التي تبدو بلا معنى. بلا معنى محدد في أغلب الاحيان. ولكنَ مَنْ يستطيع أن يضحك في ذلك الضُحى الدمشقي المليء بالبشر المتماوج كالغربان؟

احسستني اريد ان ابكي. وبقسوة صرت احرّض نفسي: تريد ان تبكي؟ إبكِ. ولكن مافائدة ذلك؟ ما فائدة بكاء لا تفجّره المتعة، كما يقول؟

وفجأة، داهمنا صوت عثمان الذي بدأ يتكلّم بصلافة. لكأنه ندم على سكوته «الطويل»، الذي لَمْ يَدُمْ سوى لحظات. كان يتحدث بطلاقة وبلا مبالاة، وكأنه يتحدث في موضوع حفظه عن ظهر قلب. طلاقة لم تزد نفسي إلاّ بهْمَة. نفسي التي انشغلت بالشهوات الطافحة في النور.

كنت اسمع، ولا اسمع مما كان يقول شيئاً، ومع ذلك، كنت أتصَيَّد الكلمات التي كانت تنبثق بقوة من شفتيه، وهو يقول مُحاجِجاً:

– توفير الحاجات الأولية (ولم يقل الاساسية) للعامة، ولم يقل (للناس) سيرضيها وسيغريها بالسكوت، حقاً. وقد يدفعها الى المداهنة، ريثما تستتب لنا الامور.

وبعد ان تنفس بسرعة، وكأنه يُسابق الهواء، أكمل:

– ونحن نأمل منه، من التوفير المفترض، هذا، (حتى ولو كان ناقصاً، أوضح بسرعة) ان يجرّها الى مناصرة الوضع القائم، بدلاً من العمل اللئيم للخلاص منه، والانقلاب عليه.

وبعد ان استراح، قليلاً، من حَمْل كلماته التي ألْقى بها في وجوههم، كما يُلقي المقاتل بسلاحه الثقيل، بعد معركة لا يأمل النصر فيها، اضاف:

– لكن هذا «التوفير» للحاجات (إن حصل فعلاً) جدير بأن يفتح أفواه العامة، اكثر مما هي مفتوحة. يفتحها للمطالبة «بحاجات» جديدة اخرى. حاجات هي نفسها بحاجة الى حاجات غيرها لتكتمل، وهكذا.. الى ان تقع الواقعة: واقعة

القطيعة بينها وبين من يحكمونها.

وقبل ان يعطي الفرصة ليرد عليه احد منهم، او ليعلّق على ماقال، أكمل:

- وانتم تعرفون، مثلي، ان العامة مستعدة لدفع حياتها من اجل الحصول على ما تحتاجه.

وكأن ماقاله للتوّ لم يكن يكفي لشرح مقولته اللعينة، تلك، تابع موضحاً:

- إنها مستعدة للموت من اجل البقاء على قيد الحياة؟ وخلاصنا الوحيد من نَقّها وَبقّها هو في جعلها تظل تأمل الخلاص مما تعانيه. خلاص لا يتحقق بالطبع؟

استعاد علي هدوءه الذي كاد ان يتطاير من سَوْرَة الغيظ، قبل ان يقول مؤنباً:

- ألا تخشون هَيّة الناس وتمردهم إن امعنتم في مسلككم هذا؟!

قال ذلك وهو يتطلّع في وجوه الخلق المتكاثر ذلك النهار (محذِّراً)، ومن ورائهم الى الجبل الراسي فوق هامة دمشق الجليلة، وهو يضيف:

- اذا كانت الأمور مستتبة لنا الآن، فليس معنى ذلك انها ستظل هكذا الأبد، وعندها..

وقاطعه عثمان قبل ان يخلص الى الاستنتاج (الذي كنت انتظره بفارغ الصبر) قائلاً:

- ألا زلتَ تحلم، يا علي؟؟

كانت تلك اول مرة احسه ينطق الاسم فيها بلا مهابة (وحتى بلاضغينة). لكأنه فرّغ سمومه دفعة واحدة قبل قليل. وبعد ان استعاد نظره الذي كان يلاحق انظار علي وهي تنتشر في الفضاء المحيط بنا (تنتشر ملاحقة وجوه الناس، وكأنه يريد تحريضهم على التمرّد الفوري) أكمل عثمان (حتى انني حسبته على علم بما كان يفكر به علي) إذْ قال، بلا مبالاة:

- الكائنات مهيئة بطبيعتها للخضوع، وليس التمرد إلاّ إستثناء في حياتها.

- وَمنْ يجبر الكائن على الخضوع غير الذين يتولّون أمره؟

ردَّ علي محتَدّاً، قبل ان يتابع بصوت هادىء ورصين، (وكأنه يريد، هذه المرة،

ان يؤكد ما سيقوله لنفسه، قبل الآخرين):

- لا! طبيعة الكائن هي التمرد على ما لا يرضاه، وخضوعه هو الاستثناء.

- إستثناء طال أمده حتى صار هو القاعدة.

قال عثمان بخفّة، حتى انني كدت ألمح شبح ابتسامةساخرة تعبر شفتيه.

وبعد فترة من الصمت المضطرب، الصمت الذي بدا ضرورياً لكليهما من اجل الإلمام بما قيل، وخاصة، بما لمْ يُقَل، خطف عثمان الحديث بحماس (وكأنه مُوكل بمهمة حيوية عليه ان ينجزها على احسن وجه، وعلى الفور) متذكراً ما سبق من الحديث، وكأنه لم يشبع من الحكي، ولم يقنع هو نفسه بما قدم من حجج، فأراد ان يأتي بأخرى غيرها، إذْ قال بتصميم:

- ما نخشاه هو التجرّؤ على مناهضة «القمع الناقص»، اما المطالبة «بالعدل التام»، كما يحلو لبعضهم أن يتشدّقوا، فلن يضير احداً؟ لماذا؟ سأل نفسه وأجاب: لأنه، ببساطة، لن يتحقق. وما لن يتحقق لا يهمنا أمره.

وكأنه فتح، اخيراً، ثغرة في «مكونات» الحصار المحيط بالسلطة التي كان كل همه منصب على حمايتها، ثغرة تتنفس منها حتى لا تموت خنقاً، كما كان «ابن الوراق» يردد، قال وهو على فرح كبير:

- وهي الى ذلك (يقصد المطالبة بالعدل التام) ستبقى من اختصاص اهل الاختصاص. اختصاص الذين لا اختصاص لهم سوى التحريض. اقصد: «أهل النَقْمَة»؟

- «اهل النقمة»؟؟

احتجّ علي بقوة، وهو يحاول العثور على عيون بكر وعمر، دون جدوى. كان يريد ان يرى فيهما ما يجعله يطمئن على اعتراضه الصارخ، اوما يجعله يقلق على نفسه. ولما يئس منهما اضاف بقوة اكثر صَدْعاً، وكأن «اليأس، فعلاً، إحدى القوتين»:

- تُسَمّي المدافعين عن الحق «اهل النقمة»؟ والذي نفسي بيده، لولا هؤلاء النفَر لما كان لهذه الحياة معنى.

لم يعلّق أيّ منهم على اقواله مع انها كانت بمثابة «إعلان حرب» تكاد ان تندلعِ بينهم، وهم قُعود؟

اكتفى َعليّ، ازاء ذلك التجاهل العَمْد، بهزّة الرأس الأثيرة عنده، وهو يفكر فيما سيأتي من المواثيق. وقد وجد نفسه (كما حسبت) في وضع صار لزاماً عليه ان يكون فيه اكثر وضوحاً وحزماً: ان يقول الجوهري بدلاً من الدَوَران حوله، باستمرار. ولان «لكل كلام جوهر. وعلى العاقل البحث عنه قبل ان يستطرد في الحديث» كما يقول «ابن الوراق»، تهيّأ علي لذلك، قبل ان يستعيد الكلام. وبالفعل سمعته يقول باستياء اراد له ان يكون ظاهراً في كلماته، وفي حركاته، اكثر من ذي قبل:

- «اهل النقمة»؟ بلى؟ هم كذلك، فعلاً، هؤلاء النَفَر المجيدون، ولكن في مواجهة «أهل النعمة».

وكأن عثمان أحس بأن علياً وقع، أخيرا، وبلا حذر، في الفخ الذي نصبه له، وفي حضورهما، قال متعجّلاً قبل ان يَفْلت منه:

- وانت منهم. من اهل النعمة التي تنكرها عليهم.

لكن عليا لم يأبه لمقولة عثمان التي كانت تثير النفور قبل ان تثير الشك، إذْ قال بنوع من التحدي الآسر:

- بلى؟ انا منهم بغير إرادة مني. اما انا بإرادتي فمن اولئك الذين لا يستحقون منك الا الاحتقار.

وبعد ان تطلع الى الارض بين قدميه اللتين بدأتا ترتجفان، اضاف:

- ولا يعيب المرء ان يولَد احداً، وأن يصير بوعيه أحداً آخر.

[٦]

عندما حكيتُ «لابن الوراق» عما دار بينهم في «المَرْجة»، ذلك النهار، اخذه العجب. عجب بدا لي في غير محله. صحيح، إنني كنت أشكُّ في الامور دون ان ادرك لها كُنْهاً، لكن ذلك الشكّ كان كافياً لحمايتي من السقوط النهائي في «وحل

الجهل» الذي لا يزول.

وبدلاً من ان يسألني عن ارتقاءاتهم وإنخفاضاتهم صار يردد مأخوذاً: «الكلب؟ الكلب؟ ولكن لماذا ذلك الكلب بالذات»؟

وتهيأ لي أنه لم يكن مشغولاً بهم، ولا بما كانوا يخططون، بقدر إنشغاله بذلك الكلب الذي حسبت أن عثمان التقى به صدفة، كما تركه صدفة ايضا.

وفعلا، صار يسألني باهتمام أثار فضولي (الذي لم يكن ليثار بسهولة) عن لونه وحجمه. عن العلامات الفارقة في خطمه وقائمتيه الأماميتين. وعن الكيفية التي أقْعى بها بالقرب من عثمان.

واخيراً صار يَلحُّ متسائلاً إنْ كنتُ رأيته من قبل. او إنْ كان يحمل جرساً في عنقه؟ ورأيته يكاد ان يتهاوى على القاع وهو يستعيد الكيفية التي أطعمه بها عثمان.

كاد السؤال عن جرس معلّق في حلق كلب داشرٍ أن يضحكني، إلاّ إنني امسكت بخناق وجهي لئلاّ أنفجر أمام عينيه.

وعندما استأنس الى شرحي له أصرّ علَيَّ لكي أصفه له من جديد. أن أصفه «بدقة علمية» تتمتّع «بمشروعية معرفية» لا تدحض، كما قال. ولمّا سألته عن قصده أجاب موَضِّحاً: وصف دقيق وحيادي لما رأيت، تماماً، مثل دِقّة عالِم الحشرات المُشَرِّح لها وحياديّته.

وبعد ان استرد انفاسه الصغيرة التي كانت تتهارب سارحة في فضاء المساء الدمشقي الذي ضمّنا ذلك اليوم، تابع بانهماك: هذا الحياد الايجابي، وحده، جدير بان يدفعنا خطوة اخرى على طريق الإحاطة الناجعة بسرّ ذلك الكلب؟ قال ذلك بلَوْعَة. لَوْعَة تشبه، الى حد بعيد، لوعةَ مَنْ يكتشف فجأة (وبلا سبب معقول) ان الدنيا مليئة بما يجهل، وأنه لم يكن يعرف عنه شيئا قبل الذي عرفه الآن!

أية خسارة.

ذلك، كله، زاد نفسي اضطراباً وهي المضطربة بشكل عفوي (انا الذي كنت أعاني من ارتباك غامض يشلّني، دون ان اعرف لذلك سبباً). لكن «ابن الورّاق»

الذي لمْ يبْدِ أمامي ارتباكاً، قط، لِمَ تراه امتلأ حيرة واضطراباً؟

لقد بدا مشتعلاً بوَجْد لم أكن اعرف له علّة أو مقاماً. لا، ليس الكلب الذي ألِفَ عثمان بسهولة (مَرَضيّة) هو، وحده، السبب. لابد ان يكون للامر وجه آخر. وجه لا زلت بعيداً عن تصوره ولُقْياه.

ما الذي ملأ نفسه الأريبة بذلك الشعور الطاغي من التوتر المجهول؟ أيّ شيء كان وراء تلك الابتسامات الغامضة، وذلك الجَنَف النفسي الجامح؟ ولِمَ تراه صار يردد بنوع خفي من الانتصار، من انتصار غير معلن، مع انه أكيد: «كلب تطعمه لن يعضك حتى ولو ضربته بقدميك». كيف لي أن أعرف شيئاً من شيء، وأنا في مثل تلك الحالة من البؤس. من بؤس الذات المتّسمة بالجهل. بجهل بلا أُفُق؟

كدت اسأله التوضيح، كالعادة، لكنني تذكرت مقولته التي لا يكفّ عن ترددها: «لسان المرء كاشِفُ قلبه» والتي كان يلذّ له أن يضيف اليها: «دعهم يتخلصون ممّا يعذبهم»، فسكتُّ. مَن المقصود «بدعهم يتخلصون..»، ومن..؟ اشياء كثيرة كانت تفور في اعماقي مثل قدْر مليء بالمصارين. كان الاستياء منه (مني) بدأ يستولي بالحاح عليّ: لِمَ لَمْ يتوجّه بالكلام إلي، ولم ينظرني وهو يخاطب الريح؟ ولِمَ كان يُلاحق العابرين بعيون ملؤها الشؤم مثل عيون حدأة تخلصت للتوّ من صيّاد؟

كدت اراه يركض (كما فعل من قبل علي) متعلّقاً بأحد الناس الذين كانوا يمرون حولنا بلا توقف. رجل غريب الهيئة والاطوار، ذكرني بالرجل – الغراب. الا انه احجم في اللحظة الأخيرة عن الركض. لكأنه ادرك، فجأة، عبث التسرع والنكوص. عبث تلك الحركة الآيلة الى العدم.

حيث تقودنا الخُطى العمياء فيها الى الحضيض. حضيض الوجود الذي لا خلاص للكائن منه الا «بالتماسك». تماسك كان شديد الاصرار على التعلّق به، وإن لم أُحِطْ بابعاده عنده، ابدا.

ولكن، من هو ذلك الرجل الذي نوى «ابن الوراق» اللحاق به؟ ولمَ تراه لَمْ يَتُفَّهُ من رِدْنه، كما هي عادته، عندما يلتقي بمن «يحبهم»؟ حاولت ان ادرك شيئا، أي

شيء، يتعلّق بعلاقته الغامضة بهم وبي وبذلك الرجل البئيس، ولم أفلح. كنت اعرف مدى قصوري في هذا المجال، ومع ذلك، كان يلذُّ لي أن أُحاول. وأن أحاول من جديد.

وفجأة، خطرت لي فكرة لم تخطر لي من قبل. فكرة حاولت أن أخفيها عنه ريثما تنضج معطياتها في رأسي. هكذا اغمضت عليها نفسي وعينيّ مستعملاً أكثر الطرق سرية في التفكير.وعندما فتحتهما كدتُ أشهق من الرعب: كان «ابن الوراق» يتخلل دماغي بعينيه الشيطانيتين، وكأنه يريد ان يمسك بتلك الفكرة قبل ان تصير!

ولكي لاأُلَوِّث كل شيء حولي، مضغتُ السؤال الذي كان يتراقص في فمي: لِمَ احجمتَ عن اللحاق بذلك الرجل اليسوع؟ مضغته قبل ان ينبثق اللفظ من اللسان.

كنت اعرف جوابه العتيد: «ألمْ أقل لكَ انك لن تفقه امرأً»؟ ماذا فعلتُ؟ تراجعت خطوة عنه، وانا أتمتم لنفسي بكلمات. ورأيته يتأمّل وجهي الذي اصفَرّ من شدّة المقت، من مقت الذات التي لا تستطيع حتى فهم أبسط الأمور.

وفجأة، صار يهذي: لا يعذبني شيء بقدر ما يعذّبني خوفي على... كانت عيونه تتلامع تحت ضوء المساء الدمشقي المليء بالبهجة، حتى بدا لي وكأنه كان يفتعل ذلك القلق الذي لا أفق له. قلق من زبدة ومن مرجان! كان يتكلم متنَفّساً بعمق وهو يُمَرِّخ جذعه الهش. لكأنه يريد ان يزيح حِمْلاً ثقيلاًعن ظهره الهازل. حِمْل يرزح تحت ثقله الباهظ منذ سنين.

كانت ملامحه توحي بالغربة العميقة وباليأس. لكأن الحِمْل المتخيّل، لم يكن مُتخَيّلاً، تماماً. لكأنه كان موجوداً مثل غيره من الموجودات. ولكن مَنْ يستطيع أن يحسب الأثقال التي ترزح تحتها الظُهورالمُتراكِضة، كل يوم (على حدّ قوله هو، نفسه)؟ اكتفيت بأن تنائيتُ عنه، غارقاً في فضاء دمشق الذي بدأ يلتهمه نور الغروب المُوَشَّح بالصُفْرة، آملاً ان يثمر الصبر ذات يوم.

كنت صبوراً «بقوّة الوضع» الذي لم اكن املك الحق فيه (ولا القدرة) على النزَق. الآن، صرت ادرك أن ذلك «الصبر» الذي كنت أتمتّع به لم يكن إلاّ الخضوع

ُمقنَّعاً. ولكن لِمَ كان يرد د على مسامعي، عندما يعجبه الامر: «انه قوة العقل على تجاوز معضلاته بهدوء». وكان يضيف، من آن لآخر (وكأنه يغريني): «وهو، بهذا المعنى، احد محاور الثورة الآتية، بلا ريب». وكنت، يومها، اصدق؟ كان رأسي محشوّاً بالنفايات، بنفايات الآخرين وتفاهاتهم، وكنت احسبني متطرفاً. الآن، صرتُ اعرف ان التطرّف ليس نفياً (ولا قبولاً)، وإنما معرفة. معرفة وسلوك. وكنت جاهلاً وشديد الخشية.

الفصل الثالث

[١]

عندما التقينا، من جديد، كان علي يحرك جسده الضخم (الذي كنت اشفق عليه من حمله) بخفّة ودعابة. لكأنه غدا، منذ البارحة، كائناً آخر، وجسده الهائل غدا جسداً بلا وزن؟

كنت أحسه عندما يغضب يسند ذلك الجسد - المشكلة بطاقته، كلها، لئلا يسقط على القاع. لئلاّ يتبدد شذراً وكسارات. لكنه بعد ان قال، بالامس، ما كان يريد ان يقوله منذ سنين، صار شخصاً آخر، شخصاً لم اكن اعرفه (ولم أكن أتوقعه) من قبل.

ولَكَمْ بدا لي ان «ابن الوراق» على حق عندما يؤكد: «جسد الكائن هو بيته الحقيقي. والبيت الذي لا يُعتنى به لا تطيب السُكنى فيه». والذي كان يضيف، مستمتعاً باقواله: «وكيف يعتنى الكائن بجسده إنْ لمْ يكن بالخلاص الواعي مما يعذب الروح من اوهام، وما يُبَلِّـهها من احلام»؟

ومع ذلك، كنت دائم التعجّب من علاقته الغريبة بجسده! إذْ غالباً ما رأيته يختبيء فيه وكأنه يخشى من مجرد النظر اليه. وكثيراً ما كنت اتساءل في سري: هذا ليس جسداً وإنما ماء. ماءلا علامة فيه، ولا رسم. لا موجة تعبره ولا كَسْـم.

كانت علاقة «ابن الوراق» بجسده علاقة خائبة فعلاً، وهو الذي يكنّيه: «بحامل الذات»! و«المحمول من الحامل» كان يضيف، باحثاً في المحيط عن النظرات. عن النظرات التي لم تكن لتحط عليه، على ذلك الهيكل المليء بالتناقض والوجد.

لم تكن علاقةَ علِي بجسده مثل هذه العلاقةالمريبة «بحامل ذاته». َعلِي لا يهاب جسده، وان كان في صراع دائم معه. ولَكَمْ رددتُ في نفسي المليئة بالاضطراب: جسد، كهذا، يحتاج الى كائنين ليحملاه، وليعتنيا به. كيف بعلي، وحده، يتَحمّل عبْءَ هذا الجسد؟

وكأني سمعته يردد هامساً بحياء: انا اثنان لا واحد، ألمْ تدرك، ذلك، بعد؟ ولما كنت سابتسم بخجل، كان سيعيد عليَّ كلماته التي لم أكن أملّ من سماعها، قائلاً: انا واحد من هؤلاء (مشيرا الى مجموعتنا باستياء ظاهر)، وواحد من اولئك، وهو الأهم (يشير مؤكدا) الى الخلق المتراكض في الطرقات.

كانت اصبعه ستتعدد وتستطيل وهي تشير اليهم: الى الحمّالين، والحذّائين، والحدادين، والصبّاغين، ودبّاغي الجلود، وباعة المرْجَة الجوّالين الذين بُحّتْ اصواتهم من النداء على ما لايستحق حتى النداء عليه.

ومنهم، من «اولئك»، كانت الاصبع الوَدود ستركض لتحطّ على المشّائين الذين لا يكفوّن عن السير طيلة النهار. نهار دمشق الملتهب من شدة القيظ.

ولمَ لا يتوقفون؟ كنت سأسأل بحماقة؟ لانهم ببساطة بلا امكنة تقيهم سطوة الشمس وقسوتها، كان سيرد، هازّاً رأسه، بأسف، وهو ينظر الى وجهي المحتقن بالكيد.

كان الرجال السِمان، الممتلئون بهرجاً وحَفيفاً، يقعون بعدائية في ظلال محلاتهم المنتشرة على الرصيف. وانتشارها عليه يعني، ببساطة، خضوعه لهم. وخضوعه يعني خضوع الظلال، ايضاً؟

كانوا يتربّعون امام تلك المحلات بعد ان يرشّوا غبارالظل بالماء، باحثين عن الشُراة. يتربّعون بأبهة تمنع لا الجلوس فيها (لمن هو غير ذلك)، فحسب، بل والمرورقربها حتى.

وكان «ابن الوراق» يردد وهو يحتقن بالغيظ: «من اين يستمد هؤلاء العُلوج الحق الذي يتمتعون به على الطريق؟ وبأي شرعية انسانية يفعلون ذلك إنْ لمْ تكن شرعية المال الظالمة»؟ ويصير يتمتم لصقي حاقداً، وكأنني المسئول عن كل سوء: «اين رأيت هذا»؟ ولم اكن قادراً إلاّ على الصمت.

وكأن عثمان أحس برائحة الحوار «المتفجّر»، الآتي، (حتى قبل ان يفكر الآخرون فيه) وأراد أن يقي بكرا وعمر شر مجادلة عقيمة لا تنفع احدا، وقد تضر بالجميع (كما يزعم دائما) قال، متوجها بالحديث الى علي، دون ان يصيبه:

- البارحة رأيت.

وصمت رأساً (وكأنه يريد ان يقرأ العلامات قبل ان تظهر على الرقيم) وبعد فترة من الصمت أضاف:

- رجلا من هؤلاء الداشرين يقتلع الاعلانات من على الحيطان ليلاً. يقتلعها بحمية، وكأنه مكلف بفعل ذلك. إن لم يكن مكلفا به، حقا؟

بعدها، سكت وكأنه اراد ان يستطلع الارتكاسات حوله. كان به جزع لا يُخفى (كما بدا لي). جزع لم اكن افهم مصدره، ولا فحواه. أتراه جزع لأن بكراً ظلّ صامتا، يتطلع الى المحيط البشري المتلاطم حوله دون ان يهتم بما قال؟ أم لأن عمر كان يتصنّع البحث عن ظل أوْفى بعدما بدأت الشمس هجومها على ظلالنا الصغيرة؟ أم لأن كلامه بدا للجميع لامبرر له اليوم؟

بدأ الحقد يرتسم على شفتي علي الكظتين، وهو يُداري انفعالا سينفجر عما قريب (كما كنت اتوقع). ماذا بقي لعثمان الذي ابتدأ الحديث، إذن، غير ان يتوغّل فيه من جديد؟ وفعلاً قال، حانقاً، وكأنه لم يتوقف عن الكلام إلاّ مرغماً:

- ووجدتني عاجزاً عن ان اقنع ذلك الرجل القِحَة، كما عجزتُ مع امثاله من قبل، ان ما اقتلعه بهمجية من على جدران المدينة.

وسكت من جديد، وكأنه يريد ان يبتلع بقية الحديث لسبب لا يعلمه احد غيره. وبعد لحظة، وقد تهيّأ له انه صار محط الاهتمام، عاود الكلام. عاوده بفتور وكأنه مجبر على الانتهاء منه، فقال:

- مع انني قلت له ان اقتلاعه للوحة الاعلانات الجميلة، تلك، انما هو، في الواقع، اقتلاع لكل العيون التي كانت مدعوة لمشاهدتها، والتمتع بها.

ولما ظلوا صامتين، قال بحدة وصرامة (تشبه صرامة الامر العسكري):

- كيف يؤتمن رجل مثل هذا؟

- لا يؤتمن َمنْ هو غير آمن؟

ردّ علي بهدوء وكأن الامر مفروغ منه، قبل ان يضيف موضحاً:

- وكيف يؤتمن المرء إنْ لمْ يجد مُطْعَماً يقويه، أو مسكنا يؤويه؟؟

كان علي يتطلع الى البعيد وهو يتكلم. الى حيث الظلال الكبيرة التي اخذت تتجمّع فوق أسطحة الدور المترامية على مرمى النظر. دور مغلقة وحصينة. منها تخرج اسراب النسوة والطيور. واليها يأوي الحمام كل مساء. دورٌ عظمى تتربّع فوق الواجهات التجارية المرمية في الضوء، حيث أقمشة «الدامِسْكو» الشهيرة تُزَيّن النوء والريح؟

ووجدتني أُلاحق عينيه بعيني. اريد ان ارى ما كان يرى. كنت قد بدأت ادرك أن للنظر اكثر من مجال ومن منظور. وان للكلام اكثر من مستمع ومن مآل. ولكن كيف لي ان احظى بما اريد، وها هو ذا قد غَيّر بؤرته وصباه؟ غَيّر كل شيء قبل ان ادرك شيئاً. لا،لم يعد يرضيني من نفسي ذلك الخمول القاتل. الخمول الذي جعلني أُلاحق «النفايات» المبثوثة حولي وكأنها آثار انسانية لا تُبلى!كنتُ كمن أُصيب بالعمى كل حياته، وفجأة صار يبصر لَحْساً. فهو، من فرط سعادته، يرى الاشياء غماماً فيحسبها الدِقَّة. و تبدو له الهيئات غموضاً فيعتبرها الوضوح.

كنت، في الواقع، بلا صاحب (كما صرت ادرك الآن). ولم يكن ذلك غريباً؟ «فمن لا يصاحب نفسه، لا تصاحبه الناس». كنت احاول (صرت بالاحرى) ان اجد لنفسي منفذاً تنفذ منه. ولا ينفذون إلاّ بمقدار. لذلك، صرت احثّهاعلى الولوج في متاهات الدنيا التي كانت شديدة الغِيَرِ والترتيب. «دنيا من الخلق المألوف ومن غيره»! ولأن الكائن المضغوط، مثلي، سينفجر انْ لَمْ يتنفس كما يشاء، كان عليَّ ان أتقدم فيما اقدَمْتُ عليه. ان أتقَدّم بلا مهابة او خوف.

لا، لم يعد ثمة مجال للتراجع الى ذلك «الكون النَيِّء» الذي انْطَلَقْتُ منه، قبل سنين. ومع ان لذلك الكون متعته الخاصة به ورَجْواه، الا ان الوعي الذي بدأتُ أحسه يتكوّن في اعماقي (ولو بشكل شديد الضآلة) هو الذي كان يدفع بي الى المجهول. وهو ما صار يملؤني بمتعة اخرى. متعة لم أتمتّع بها، ابدا، من قبل: متعة غريبة تشبه الى، حد بعيد، متعة الشهيد الذي يمشي الى حتفه بأرادة لا تقهر.

[٢]

ابتعد علي عنا، فجأة. كنت اراه، ولم اعد ارى منه طرفاً. حسبته اختفى خلف ذلك الحائط المهمل في قلب دمشق القديمة. حائط مُطِلّ على الهباء، يفصل باجنحته العالية مكان جلوسنا اليوم عن الشارع المقابل لنا. حائط مهمل بلا سبب، يُضَلِّلُ العالم الرابض خلفه، بلا اكتراث؟ فكرت، دون ان يسمع احد مني مَسْمَعاً.

ولكن لِمَ ذهب علي الى هناك؟ وعن أي شيء لا اعرفه راح يبحث؟ وكأن عثمان كان على علم بما دار في خلدي، قال لي بتمهّل، ولكن بعدائية واضحة: لا تقلق، سيرجع بعد قليل. وأضاف، وهو يحاول ان يجعل انظاره تلتقي وأنظارهما: نحن نعرف الى أي مدى يمكنه ان يذهب، وإلى أي نقطة، بعد ذلك، سيعود.

لاول مرة، احسست بنار نظراته تحرق أنفاسي. لكأنها اللهب المنبثق من الجحيم. أي شيء كان يدفعه الى إغراقي بنظرة لها مثل هذه الصلافة والعنف؟ عبثاً، حاولت ان ادرك مغزى ذلك. لا، لم أكن مهيّئاً، بعد، إلاّ لشيء واحد فقط: هو أن أستقبل الريح التي تهُبُّ عليَّ، من أي نحو هَبَّتْ، وبأيّ سبيل؟ أن أستقبلها بلا تذمر أو جنوح.

«وكيف يتذمّر الكائن الذي لمْ يمتلك طاقته النقدية، بعد»؟ كما كان «ابن الوراق» يقول.

كنت اخاف من عثمان، فعلاً. اخاف من نظراته الآكلة. اخاف ان يفلت زمام نفسي مني، وان ابدو، بتأثير نظراته التي لا ترحم، هيكلاً فارغاً من دون لُبّ؟ لا، ما كنت اخاف التعب ولا الارهاق، ولم أكن اخشى الجوع أو اللوع. هذا، كله، ما كان يخيفني بقدر ما يخيفني: الكشف. كشف عيوب ذاتي على الآخرين.

ولم أكن (حتى) أتساءل: لِمَ كانت ذاتي مليئة بالعيوب، بالعيوب، فقط؟ ولا، لِمَ، كنت احسبني دَنّاً يملؤه الغباء والابتذال! وَلَكَمْ كنتُ اخشى ان ينكسرالدَنُّ، هذا، ذات يوم، ويفيض ما يحتويه على القاع؟

قطعَ توتراتي السخيفة، هذه (أو التي سأراها هكذا فيما بعد) صوت عمر،

وهو يحرض عثمان قائلاً:

– ألا تقوم؟

– لا حاجة بي لأن أقوم كي اعرف ما يجري خلف حائط مهمل. حائط اعرفه وكأنني بنيته بيدي.

قال عثمان متبجِّحاً، وهو يتابع افواج الناس التي لم تكن لتتوقف عن المرور. افواج غير عابئة بما كان يملأ انفسنا من خمج ومن لَعَيان.

وفجأة، تململ بكر وهو ينادي بصوت جاهر، وكأنه الامر النازل من الغيم:

– عمر؟

ولم يرد، على الفور، عمر. لم يستجب للنداء المعلن، آنذاك. لم يرد لسبب لا زلت اجهله. كان قد تشاغل بمتابعة الحركات الغريبة لبعض المارة الذين بدوا وكأنهم اكتشفوا، عبر وجودنا، أهمية ان يكونوا مختلفين؟ هذا ما فهمته من برق العيون المستريبة المملوءة بالظنون.

عثمان هو الذي تحرك ببهلوانية وكأن الصوت كان موجهاً اليه. وبحركة صغيرة قام بها صار واقفاً في وجه بكر، بعد ان كان جاثياً علي ركبتيه. وليؤكد ما كان يعرفه من قبل (كما أوْحى لنا) قال بتعالٍ واضح:

– ها هو ذا عاد.

عاد علي، فعلاً. عاد يمشي بهدوء وكأنه تخلَّص، اخيراً، من امر ألَحّ عليه طويلاً فاستراح بعد ان قضاه. وقبل ان يقعد بادره عثمان:

– وجدتها؟

كاد عمر أن يضحك. وَتَنَهَّت بكر بصمت. وتشاغل علي بتهيئة المكان الذي سيجلس فيه وهو يقاوم رغبته العنيفة بالصدام. وما إن استتبَّ جالساً حتى قال بفَزَع يُقارب اليأس:

– الوضع سيّء؟

وبعد ان اطمأنّ الى قعدته، اضاف:

– كان سيّئا من قبل، لكنه صار، الآن، اكثر سوءاً.

قال ذلك دون ان ينظر الى احد، او الى جهة محددة بالذات. ولاول مرة، احسست انه لم يكن ينتظر (ولم يعد يأمل حتى) جواباً شافياً من أيّ احد كان.

لكأنه أيقنَ، للتوّ، أن ما يحدث يتجاوز كل احتمال. يتجاوز، بخطورته، مجال القول والفعل معاً. ولقد تَجَذّر حتى صار من المتعذر استئصاله. وأضعف ما يواجَه به (أو ما يُوَجَّهُ اليه): النقد. حتى ولو كان «نقداً ثورياً» بحق؟ مالعمل، إذن؟ يسكت؟ ولكن اية جدوى يمكن انتظارها من السكوت؟ من سكوت خانع ومقيت.

كان رأسه يتمايل يمنة ويسرة، وكأنه أُصيب بالضربة القاضية. كان يُتابِع ارتسامات الضوء الدمشقي الذي بدأ يتكاثف، الآن، وكأنه الماء. ضوء الشمس المشرقة منذ اول النهار. شمس لا تخبيء الرغبات، وانما تجلوها. تملأ النفوس بطاقة آسرة، وتدفعها، بلا حذر، الى ارتكاب المحظور (وبخاصة عندما لا يكون منظوراً)، على حد قوله.

وكأن الدَسَّ في تساؤله المغرض، قبل قليل: «وجدتَها» لم يكن كافياً، برغم انه أثار ابتساماتهم السرية التي كنت اراها تتجوّل في نور الشمس الدمشقية الحارقة، َعلّق عثمان، من جديد. عَلّق، قبل ان يتمكّن عَلِي من القاع كثيراً، موضحاً سؤاله «الخبيث»:

– المباول؟

وقبل ان يجيب علي، اضاف عثمان بصوت متهدّل، وكأنه يتمَلّق العطف منهما، ناظراً اليهما بانكسار:

– منذ أشهر قمنا بإصلاحها وتجديدها ومَدّها بالماء والكهرباء ليبول الخلق كما يجب.

لم يكن ثمة ما يدعو الى ذلك الانكسار المفاجيء في صوته وفي نظراته، كما خطر لي، آنذاك. لكن لعثمان اسباباً لا يعرفها الاّ هو بالذات. لكأنه اراد ان يشهدهما على تعنّت علي وتزمته.

وبعد ان سكت قليلاً، وكأنه يبحث عن الكلمات المناسبة لما سيقوله بعد نظرته المتواطئة، تلك، تابع بتذلل ولؤم:

- لكن العامة (ناظراً من طرف خفي الى علي) تُـدَمِّر ولا تُعمِّر؟

صرت احاول ان اعرف اتجاه الريح التي ستقود انفاس علي الحَرّى، ذلك النهار. ولمْ أرَ حولي غير البشر المتراكض في الطرقات. بشر الصيف الدمشقي الراكض بسحنته المطلية بالرماد. برماد لزج وعميق. الى اي الاتجاهات كان ذلك الخلق يتغالب؟ وبأي هدف يمتلىء؟ لكن صوت عثمان الحاقد لم يلبث ان رَنَّ، من جديد، في اصداغي:

- وبعضهم وجد في المباول التي جُدِّدت مكانا للراحة والاستظلال ولم يغادرها الا بالقوة، كما نُقل الينا.

- إلهذا رحتَ تتفقدها ياعلي؟

قال عمر مازحاً ومستنكراً، معا، وكأنه يريد تسخيف الامر، وتزييفه.

إلْتَمَّ علي على حاله صامتاً وكأنه مُتَّهم بعمل مشين لم يفعله، مع انه لا يستطيع تبرئة نفسه منه.

كان يطرق باصبعه طرف الطاولة العتيقة التي حُطَّتْ باهمال في ظلال الرصيف، حيث كنا نجلس منذ اول الُضحى الذيَ ولّى. لكأنه يعد اللحظات الباقية قبل ان تجيء العاصفة التي ستدمر كل شيء.

لم يمنع الاستياء المكتوم الذي كان يتراءي على قسمات بكر ذات الشحوب الواجف في الضوء، لم يمنعه من التساؤل الهازل، إذْ قال بدهشة غير معهودة منه وكأنه لم يكن يتوقع ما سمعه منهم:

- أويكون ذلك حقاً، يا عمر؟

ولمّا ظلَّ عمر ساكتا (وكأنه يريد ان يدرك جوهر السؤال الذي وُجّه اليه قبل ان يجيب،خشية ان يقول ما يكره)، قال علي بنوع من التعجّل، وقدرأى فم عثمان ينفتح ليقول شيئاً، خشي ان يزيد الامر سوءاً:

- لا، رحتُ ابحث عن صاحب لي حسبتني سألقاه هناك.

كان يتكلم بهدوء، وكأنه يريد ان يهدّيء توتّراً خفيّاً يُساورِ الأنفس بعنف. بعنف لا يعرفه الا هو، نفسه. عنف تعوّد عليه كلما عضّه الغضب. الغضب الذي

لا ضابط له الا قوةالنفس التي ادركت آلام المحنة التي تتقيها: محنة التهوّر.

– صاحب لك ولا نعرفه، يا علي؟

قال عمر باسترسال شديد اللطف وكأنه اراد، هو الآخر،ان يشاركه هدوءه ودعابته. ولست ادري لمَ بدا لي ذلك اللطف غير بريء القصد؟ ألأنه كان يتكلم وهو يدق بيده الكبيرة على الطاولة الهزيلة دقات توحي بشدة توتره وعمقه؟ أم لأن عثمان لم يكن ليكفّ عن التململ والتحفّز؟ ام..؟

ولا بد ان عليا كان يرى الامر خلاف مايرَوْن (وليس ذلك بغريب) إذْ قال بكثير من الحِكْمَة والهدوء:

– حداد قديم لا يعرف من الدنيا غير حديده.

– رجل مثل هذا جدير بالعِشْرَة، ياعلي؟ ألا..

قال عمر مستبقاً عثمان الذي هَمَّ ليتكلم. لكأنه اراد ان يخطف الكلام من فمه قصداً. ولست ادري لمَ احسست ان عثمان بدأ يتعرض (لاول مرة) الى رَدْعَة كنت احسبه يستحقها منذ زمن طويل.

وكأن عليا لم يكن ينتظر من عمر إلاّ هذا، قال بنوع من الأسف والحسرة:

– إنْ لقيته؟

وبعد ان مسح الارض بيمن قدمه اللِّينة، اكمل:

– اخشى ان يكون ضيق العيش قد دفع به الى الهجرة والشَرَد.

قال ذلك وهو يقاوم الانطفاء. لكأن طاقته على الاحتمال قد تفَتَّتْ، فجأة. أيكون ذلك بسبب ضياع صاحبه الحدّاد؟ ام أن لذلك اسباباً اخرى. اسباب كثيرة تجمّعتْ، يوماً بعد يوم، كالدمع في مقلتيه؟ مَنْ يدري؟

ذلك، كله، بدا لي فوق طاقة الكائن على الاحتمال! «ولِمَ يتحمّل الكائن ما يسوؤه إنْ لمْ يكن مسكوناً برغبة لا تقهر. رغبة الانتصارالأخير الحاسم: الانتصار على عجز الذات وتفاهتها»؟ كما كان «ابن الوراق» يردد.

قطع ذلك الحوار «غير الطبيعي» صوت بكر الذي تساءل باحتجاج:

– أوَحقاً صارالناس يفرّون من ضيقنا الى سِعَة غيرنا ياعمر!

قال ذلك دون ان يبدو عليه انه كان ينتظر جوابا من أحد منهم، وبخاصة من عثمان المتبجح. كان الغضب الخفي يفعم كل حاسة من حواسه (كما بدا لي). غضب مشوب بانفعال غامض لا يُفسَّر. غضب مثل غضب الأسد الجائم فوق ربوة «مفتقداً» صيداً وَلّى الى الأبد، وهو واثق ان غيره سيجيء. سيجيء حتى مخلبيه.

كانت كل حركة من حركاته تنضح بذلك الاستياءالعميق، من َهزّة الكتف «العُصابية»، الى طريقة نُطقِه للكلمات المشحونة (أو التي كان يصرّ على شحنها) بسيَلاناته النفسية الغزيرة.

وكأن عثمان الذي كان السبب في ذلك، كله، أحسّ بضرورة دفع الامور الى نقطتها النهائية علّه يشرح الامر لمن ظلّ غامضاً عليه، فقال بصرامة، متوجها، هذه المرة، صَراحة الى علي:

- انت سلطة، او بعض منها، وللسلطة حرمة ووقار. لِمَ تضع نفسك في اكثر المواضع إثارة للريبة والشك؟ ودون ان يتنفس، او يُفاصِل بين الجمل، او يتحسس مواقع كلماته، تابع بحماس وكأنه متأكد من مجرى اقواله، كما هو متأكد من مرساها:

- لِمَ تبعثر طاقتك بلا َرويّة؟ وتفرّط فيها بلا سبب؟ بلا سبب نعرفه، نحن، على الأقل.

كانت تلك اول مرة يتمادى فيها عثمان الى هذا الحد، وهو يتوجه بالحديث الى علي. وبدا عليه انه لم يكن ينتظر منه، هذه المرة، أية إجابة على «زُعوماته». لكأنه يعرف، سلفاً، إجابات علي، كلها، حتى تلك التي لم يقلها ولم يفكر فيها، بعد، وهو يرفضها جملة وتفصيلاً.

تَلَقّى علي «صدمة النقد» بشجاعة نادرة. تلَقّاها هادئاً، وإن بدا الغليان العميق عليه. لكأنه كان يهيّء الرد الملائم على ذلك التَهَجّم الذي بدا في غير محله، أخلاقياً، وتاريخياً، ايضاً. حتى بكر (المتحفّظ بشدة) صار يتلاطم مثل َيمّ يخترقه إعصار عنيف. كنت ارى «البراكين» تغلي في اعماقه التي كانت مرتعاً

للراحة، منذ قليل. وتحوّل، بفعل ذلك، فضاؤه المستور بالحيطة والسكون، الى فضاء عدائي مضطرب الأسارير.

من نظرات عمر الشاردة، لكن المركزة بشكل مقلق، ومن ُسكون مقلتيه، فهِمَ عثمان أن عليه ان يقول شيئا آخر ُيرضي بكراً، وعلى الفور. فتابع حديثه بهدوء وكأنه لمْ يقل ما قاله، قبل قليل، الا ليقول هذا الآن:

– اصحابك ياعلي لا يبحثون عن لقمة العيش، فقط، وإنما عن متعة العيش، ايضا؟

وبعد ان استرد انفاسه التي تصنّع ضياعها اضاف، وهو يتملّق بنظراته الآخَرَيْن:

– وهو امر يصعب تحقيقه في اكثر الاحيان.

وبرغم كل ما نحيطهم به من مودة وعطف، أكمل، فانهم لا يعدمون العثور على اسباب كثيرة للعداوة والهرب؟

– الهرب؟؟

قال علي متعجِّباً وهو يصرخ بعنف. يصرخ، وكأنه يصرخ في ملأ لا يسمعون. وبالعنف نفسه اضاف:

– أتُسمّي الخلاص من الموت قهراً وجوعاً هَرباً، يا عثمان؟؟

صار الكرسي البائس يهتَزُّ تحت ثقله الذي َتجمّع، كله، فوقه. لكأنه لم يكن يجلس، من قبل، عليه؟ كاد أن يتكَسّر. كان يقوم عنه ويقعد دون ان يرتفع إلاّ قليلاً، مع انه كان يريد ان يطير.

اما عثمان، الذي تمادى كثيراً، فقد أحسّ وكأن عليه ان يتمادى اكثر، لكي تتوضح الامور (كما فكرت) فقال ُمحاجِجاً:

– الجوع ياعلي، و خيرات الشام تفيض عن حاجة الدنيا باسرها؟!

قال مفنِّداً، واضاف بحدّة أكثر:

– أيّ جوع يشكون: جوع الطعام؟ أم جوع الكلام؟

– الجوع يا عثمان واحد. وجوع الكلام أقسى من جوع الطعام.

ردَّ علي بتصميم، ولكن باستياء لا يُخفى. وبعد ان تطلع الي الاخَرَيْن اللذين ظلاّ صامتين تحسّباً لكل طارئة (كما خطر لي) اضاف بشكل اكثر تحديداً:

– وكل ما يقوم به المرء لاشباع حاجة من حاجاته مشروع.

وكأنه اراد ان ينتهي مما يعذبه منذ سنين، قال، دون ان يهتم بما سيجري، او بما يمكن ان يجري، من بعد:

– مشروع، كله، بما فيه ما تسميه انت هرباً، وأسميه انا َتمرّداً.

ودون ان يتوقف عن الاهتزاز استياءً، تابع:

– وكل تمرد محمود؟ محمود حتى ولو رأيتم الامر خلاف ذلك.

ولأن عثمان لايسلِّم بهزيمة، ولايقبل بتراجع غير مفروض عليه بالقوة، قال، مستعملا آخر اسلحته وامضاها (كما كان يحسب):

– لماذا ارتَدّوا عنا، إذن؟

– ارتدّوا عنا الى َمنْ هم خير لهم منا.

قال علي بنوع من التحدي، قبل ان يضيف:

– ومَنْ يقول غير ذلك فهو كاذب. كاذب حتى ولو ثبت العكس.

كان علي يتكلم وهو يرسل انظاره في جموع الناس المتغالبة في الطرقات. لكأنه يبحث فيها عن سند ونصير، ولكن دون جدوى؟ كانت «الازوال» المتكالبة على الحياة، والتي لا تنقطع عن المرور امامه، وهي في اشد حالاتها بؤساً، مشغولة بماينقصها اليوم، فقط؟ لكأنها لا تدرك (هي الاخرى مثلي) بأن اليوم هو غد. وان ما ينقصها الآن سيظل ينقصها الى الأبد إن لمْ تُضحِّ بحياتها من اجله.

«ولكن َمنْ يجرؤ على التضحية بحياته من اجل لقمة العيش غير من أوتوا سعة من الادراك»؟ على حد قوله.

[٣]

لست ادري كيف تسلّط «ابن الوراق»، في تلك اللحظات الحرجة، عليٍّ؟ وهو ما جعلني ارتعد خوفاً، خوفاً من بلادتي التي لا تدرك حتى ابسط الامور، ومن هجوم

احكامه البالغة اليقين.

وَلَكَمْ زادت رهبتي عندما بدأ يحكي بلا مبالاة، وكأنه يريد ان يخلّص روحي الشقية من كوابيس ذلك الحوار المشئوم الذي كنت شاهدا عليه، فقال مُواسياً: «لا تأبه؟ ذلك ليس اكثر من جدل عقيم بينهم. جدل سيتكرر آلاف المرات دون جدوى».

وعندما رآني مرتبكاً وحزيناً، اضاف موضحاً: «إنه جدل بلا منظور تاريخي، لايؤدي الى قطيعة بينهم. كما انه بلا مشروع ناضج يجمعهم، ايضا».

وحسبتني اسمعه يعلّق على بعض مقولات علي، وبالخصوص، مقولته حول «البراءة والصدق»، وقد ادرك بخبثه التاريخي مدى استجابتي لتلك المقولة، إذْ قال بحيادية كاذبة: «احيانا تختلط الامور حتى على اكثر الناس اخلاصاً، وهنا تكمن اهمية الفكر النقدي الذي سيقوم بتنقية الكلمات من شوائبها، ومنح الافكار ابعاداً جديدة لم تكن تملكها من قبل»؟

وعندما رآني مكفهرّاً، لا احلم الا بالخلاص منه (ومن نفسي) صار يتكلم، من جديد، مع انني لم اكن فى حال تسمح لي بسماع المزيد من الاقوال. يتكلّم في صمتي الذي غدا بلا قرار.

كان يريد ان يستميلني، نهائياً، اليه، مُفَنّدا مزاعم علي بالهجوم على اطروحاته العزيزة على نفسي. فبعد ان قام بتسفيه احداها (البراءة و..)، قبل قليل، بدأ هجومه المتشنّج على اخرى غيرها (إنْ لَمْ تكن هي هي نفسها محرفة قليلاً)، وهي التي يسميها هو «مقولة الصدق المطلق»؟ مع انني لم المس ذلك من علي ولم اسمع منه ما يؤكد دعواه (إلا اذا كنت لا اسمع، ولا افهم إلا ما لا يتجاوز طاقتي بكثير).

ولأن هذه المقولة كانت تساوي (بالنسبة له): «صدق الفكرة، لا صدق الواقع»؟ وهو ما يعني عدم جدواها التاريخي (كما يقول)، أراد ان يقيم دليلا جديدا على هشاشتها وعلى «عدم التماسك» عند علي، إذْ قال: «استناده الذي لا يتزعزع على مفهوم «الصدق» دليل أكيد على «عقدة الصواب» التي يعاني منها».

وبعد ان حاول استطلاع العلامات في وجهي الأسحَم، اكمل ببراعة: «انه يخشى الخطأ خشيته من الإثْم. انه لم يدرك، بعد، ان الخطأ ليس سقطة وانما هومرحلة من مراحل الادراك». و بمتعة لا تُخفى، تابع: «ولكَ انت اقول، مكررا، مرة بعد اخرى، انكَ لن تمشي خطوة ابعد على درب الوعي الذي تنشده، قبل ان تتوصل الى القناعة بدور الخطأ الفعّال. قبل ان تتحرر نهائيا من عقدة الصواب البليدة، هذه»؟

كان يحكي، وكنت اتابع افواج الناس العابرين. الناس الذين لم يكن لهم هَمٌّ غير المرور بسلام، ذلك النهار.

ومع ذلك، كانت اسئلتي الغبية تتراكم في رأسي، وهو ما كان يزيد ارتباطي بها ُوثوقاً. لكنه ُوثوق بلا حياة؟ اسئلة لا تتغير رغم مرور السنين، رغم تغير كل شيء، حولها، لهى اسئلة ميتة، بلا رَيْب (كما كان ابن الوراق يردد)؟

ولكن َمنْ كان مهْتَمّاً بذلك غيري؟؟ ولِمَ كنت أتفَرّس في وجوه الناس حولي، وكأنني ابحث فيها عن مصيري؟ كنتُ أريد أن أرى فيها وجهاً بلا حُبوط. وجه كائن لم تلوّثه الحياة بنفاياتها؟ وكأنني سمعت قرقعة «ابن الوراق» خلفي، وهو يقهقه هازئاً: ها! ها؟ ها؟

لِمَ لا ابحث عن وجه علي، إذن، وقد غدا العالم، كله، بلا يقين؟ وعندما صاروجهه في وجهي، رأيت فيه، بلا مواربة، ذلك التصميم الكامل على الدفاع عن «صوابه». رأيته بوضوح، وكأنني اقرؤه مكتوباً على جبينه: «التمادي في الحق خير من الرجوع الى الباطل».

ولكنْ لِمَ لَمْ يكن يقرأ الاخرون ذلك؟

الفصل الرابع

[١]

في «بَكْداش» للمرطبات، قعدنا نحتمي من الحر، ذلك النهار. قطعنا سوق «الَحميديّة» كلها، تقريبا، لنحطّ الرحال، اخيراً، فيه.

ولكن ما هو «سوق الحميدية» هذا؟ وما مغزاه؟ إنْ لمْ يكن عالَماً مختلطاً من البشر والصَرير! عالَم متناظر وكسيح كالعصافير التي لم تعد تعرف كيف تطير؟

سوق؟؟ مجتمع كامل، بالاحرى. مجتمع بحكومة غير معلنة وهيئات. هيئات من الرُسُل والزَنابير.

هيئة تستقبل الشمس عندما تشرق، واخرى تستدبرها عندما تغيب. هيئة تكتفي من المكان بموضع الاصبع، واخرى تجتبيه مسيطرة عليه، ومُتَمَسِّكة به وكأنه لها وحدها، أوكأنها لن تفقده الى الابد؟ وللمكان أُسُس وعُهود.

وفي مثل هذه الحال، ماذا سينتظر ذلك السوق العريق من زيارتنا له سوى الدعابة؟ ولكن أية دعابة ممكنة في عالَم يسخر حتى من الشمس. من الشمس التي لا تكف، برغم ذلك، عن حقنه بالكَيْد.

في «بكْداش» للمرطبات، اجتمعنا، ذلك النهار القائظ حول طاولة عريضة من المرمر اللَوّاح. مرمر ابيض يعكس، بلا مشقة، نور الشمس الدمشقية. شمس احسستها ترغم الكون، كله، على الدُواخ. ترغم كل شيء فيه ماعدا ذلك المرمر الظليل. كيف التجأ المرمر الجميل الى الظل؟ الى ظلّ النساء العريضات الأجنحة اللواتي يتمايَلْنَ وهنَّ يمشَيْن نحو اعشاش اللذة الخاتِلَة في الاعماق. في اعماق الدور المتكاتفة ضد الهواجس والهمس.

في «سوق الحميدية» العريق، رأيت، للمرة الاولى، العالمين، معاً. رأيتهما؟ كدت ادركهما بالاحرى، إنْ كان بامكاني ان ادرك شيئا خارج كينونتي الممتلئة بالـهيْب؟

فيه، رأيت البشر المتغالب مثل الخراف «البريئة»، السائرة بحميّة نحو الموت. ورأيت الآخرين، المُخطِّطين لذلك الموت، نفسه، الذين يريدون له ان يكون أعْذَبَ ما يمكن، وهو شَرٌّ مستطير!

ولكن مَنْ هم اولئك؟ وَمنْ هُمْ هؤلاء؟ وكيف لي ان ادرك ما عجزت، دائما، عن ادراكه؟ أو أن أرى ماعييتُ، ابداً، عن رؤياه؟

كانت الحركة الاجتماعية تُمُرّ، كلها، امامي، في ذلك السوق «المخيف». الحركة التي اغرتني بتتبعها منذ اول يوم وطئت فيه قدماي أرصفة المدينة التي احببتُ. المدينة التي صرت اعرف حُجاجها وثقوبها، ولم اكن أعي، بعد، شيئاً. مدينة جعلتني أتلمّس اعضائي وكأني سأفقدها واحداً بعد آخر. فيها بدأت أعرف ان العالم ليس في داخلي وإنما هو هناك. وان عليَّ اذا ما اردت ان التقي بنفسي ان اخرج اليه.

في «بادية الشام» كنت ألْحَقُ الخراف الحرة وهي تركض، مستعيرة أرْجُل الريح، نحو القَليب. خراف تفكر بما افكر فيه، وتحيا كما أعيش. مثلي، تركض لتلعب. لتشرب. لتأكل. لتحيا. لا لتموت صمتاً، كما خراف الشام التي لا تكف عن المسير؟ لكن العالَم ليس واحدا، ولا وحيداً، كما صرت ادرك فيما بعد. وحتى «العالَم الواحد لا يبقى كذلك» كما كان «ابن الوراق» يردد باستمرار. يردد بغية إقناعي بما كنت مقتنعاً به عفواً! لكنني لم اكن اعرف ان «العفوية» ليست شيئاً آخر سوى البلاهة. بلاهة الكائن الذي سيمنح نفسه بغباء الى الشيطان.

كان يريدني ان اقتنع بما كان هو مقتنعاً به، ولم اكن مقتنعاً حتى بذاتي. كنت أتدحرج على رمل الحياة مثل افاعي «الجزيرة» المتبدلة الاحوال والانحاء. لكأنه لم يكن يريد ان يعترف بعجز الكائن (الذي هو انا) عن الثبات. كنت ما ان اقتنع بامر حتى تزول قناعتي به، احياناً، بلا سبب، واحيانا اخرى لمجرد الملل اواليأس من رسوخه ورسوخي. كنت كالماء الجاري لا املك ارضاً ولا تملكني سماء. ومع ذلك، كنت احب ان أمثِّل حالة الاستسلام المعرفي (أو الاقتناع الكاذب) الذي كنت احسبه سيحميني! ولَكَمْ كنتُ، في ذلك، على خطأ (مثل افعى

تلج غار غيرها). ولكن أنّى لي أن أُدرك ذلك، آنذاك. وَمـنْ، غيري، كان بامكانه ان يحميني من سوء يقيني؟

ذلك النهار، قَعَد بكر في الوسط. لكأنه يريد، بقعدته تلك، ألاّ يعرفه احد، وان يعرفه الجميع. وكنت افكر ان العالم، كله، سيتعرف عليه من مجرد النظر الى عينيه. ولكن،َ منْ يجرؤ على النظر اليه؟ َمنْ يجرؤ على ُمكابَسَة الشمس وهي في إشراقها الممتلىء بالنور؟

اما عمر فقد لبس ثيابا رَثّة بها ُرقَع وُقروح. ثياب توحي للناظر اليها بشتى الخدع والالعاب. كنت اريد ان اعرف المخطط الذي أُعدّ لنا ولكن دون جدوى؟ َمنْ يعطيني جُرْعَة العسل المعرفية؟ َمنْ بامكانه ان ينير طريق القلب المظلم إذا كانت بصيرة صاحبه عمياء؟

ولحماقتي، كنت احسب ان الجواب سيكون سهلاً على الآخرين، وبخاصة عليه؟ كان سيجيب بثقته المعهودة: الثورة؟ و سيضيف: فهي، وحدها، القادرة على إنارة القلوب والعقول. وسيعقّب شارحاً (ولا بد): اعني الثورة على الذات. فثورة الذات على نفسها هي أهمّ ثورة يمكن للكائن ان يعيشها (ولم يكن يحسب ان ذلك كله كان بالنسبة لي لَغْواً؟ لغو بلا ماهية استطيع ادراكها. فلم اكن بعد الا كائناً ثقيل الجوهر، محدود الأحاسيس، حتى الحجر إنْ لَمْ أمسه لا اعقله).

ذلك النهار، لبس عثمان (على عكس عمر) ألبسة زاهية، ذات الوان مشعّة وبليغة. الوان اختارها، عمداً، وكأنه يريد ان يقول للناس: انظروني؟ أولَمْ يقل لي علي، ذلك، وهو يلتصق بي هامساً؟

ظلّ عثمان ُيعَدِّل في جلسته، منذ ان جلس، حتى بدا وكأنه النابه الوحيد فيهم. ألذا كنتُ ألْمحُ ُموَيْجات الاستياء الخفيّة تعبر قسمات بكر وعمر، وهما يتناهبان وجوده الملَوَّن حولهما؟ ولأن علياً احسّ ببعض هذا مال عليّ (من جديد) وهو يتأفّف: لا يمكن له الا ان يبالغ؟

استدار عنه عمر، ومن ثمّ بكر، برهة. استدارا ريثما ينتهي من تحسين قعدته ويستتب. لكأنهما كانا يدركان انه منذ ان يستقرّ سيبدو كائناً بلا ابعاد. بلا ابعاد

تتناسب والزهو البادي في ملابسه.

اما علي فقد بدأ يتمتم ناظراً إليه: «حتى الألبسة تغدر لابِسَها»، قبل ان يضيف مشمئزّاً: «عندما لا يتمتّع بمزيّة اخرى تستر فراغه المرعب».

وكأنه لم يكن يهتمُّ بما كانوا يفكرون به (عنه)، صار عثمان يتشاَمخُ في جلسته، مع انه اقصر الجميع. ويتمضمض بحركات لينة مستساغة وكأنه تخلّف، للتوّ، عمّا لَذَّ، وطاب؟

وحدي، بقيتُ لابِداً وهَموداً. كنت افهم، وفي الوقت نفسه، لا افهم مما فهمتُ شيئاً؟ كانت ألْغاز الحياة تبدو لي مثل وظائف الجَبْر في سنوات الدراسة الصعبة: مستعصية على الحل، ومع ذلك، علَيَّ أن أحلّها حتى ولو خطأ. كان «الخلاص»، بالنسبة لي، هو المهم. الخلاص من تشتت الذهن الغارق في الخديعة. في خديعة النفس التي لا نهاية لها.

أيّ الشقّين من نفسي أُصدِّق: شقّ اللمسة، أم شق الهمسة؟ وكيف لي ان اغدو (ولو للحظات) كامل البنية والايقاع؟

ذلك اليوم، جلس علي في طرف الطاولة القصي، وكأنه ضيف سيتركنا بعد قليل، مع انه كان يبدو راسخا في مكانه الى الأبد؟

كان جسده الضخم يمنعه من الحركة (السهلة) ومن السكون (المريح) كبقية الناس، الا إنه كان يميّزه عنهم، ايضا. كان يحميه من «عدوانهم» المستمر عليه بالنظر وبالكلام (مع انه كان احد اسباب ذلك العدوان، كما لا حظ ابن الوراق، ذات يوم).

كان ذلك الجسد الكظيظ يسدُّ منافذ نفسه، الا اذا ركبه الغضب. وفي هذه الحال، يغدو مثل «الريشة» التي يحملها بأناقة هندي احمر قبل ان يقتله «الفاتحون».

وَلَكَمْ تساءلتُ، في سرّي، عن الكيفية التي يمكن له ان يدافع بها عن نفسه إذا ما هوجِم مع انني سمعت الكثير عن شجاعته وإقدامه (دون أن أتحقق مما سمعت).

كان يبدو راسخاً في مكانه، وكأنه لا يتحرك إلاّ بمعجزة. لكأن مفهوم «الحركة» الذي كان يعني عند «ابن الوراق» شيئاً أساسياً، لم يكن يعني عنده الا «نقْلَة الجسد» من هنا الى هناك. الى حيث تتخلَّص النفس من اهوائها، وتعلو على الموبقات. وإذا ما تعدّى الامر ذلك فان كا «تنقّل» (بالنسبة اليه) يعني اضطراباً في الروح يجب الاستغناء عنه، وعلى الفور.

حتى انني صرتُ أتساءل: إنْ لَمْ يكن، ذلك، كله، يوجِب إعادة النظر في «مخلَّفاتهما»؟ في مخلَّفات « ابن الوراق » التي لا يملّ من تكرارها، تلك المخلفات المبنية على التواتر والاسترسال والتي تشبه، من الزاوية، هذه، مخلفات علي، نفسه، الى حد النزاع؟

كنت افهم (اقبل) ذلك التوتّر العنيف الذي كان يسيطر علىَ علِيّ من آن لآخر (والذي كان ابن الوراق يفتقده بعمق). كنت أضعه «بمودة» في فضاء الحركة الضرورية للحياة. الا انني لم اكن افهم، ابدا، ذلك السكون الغامض الذي كان غالبا ما يعتريه؟ سكون يرضُّ النفس حتى ولو لَمْ يؤذِها ظاهريا.

وكنت افهم، ايضاً، اصرار «ابن الوراق» على ضرورة الحركة والاستيعاب (برغم سكونيته القاتلة)؟ «فمن لا يتحرك ميت بشكل من الاشكال» كما كان يردد على مسامعي الليلة بعد الليلة. لكأنه كان يريد ان يدفع بي الى المجهول. الى مجهول حركة لا يعرف، حتى هو، قدرتها على الايذاء، ولايقدِّر طاقتها على الهَدْم؟

لكن عدم التجانس، هذا، ليس سببا للتماثل بينهما، ولا للاختلاف، وإنما هو مشيئة. مشيئة الخلاص من تاريخ جماعي عند «ابن الوراق»، ومشيئة التمرد على تاريخ شخصي عند علي. أيهما أحقُّ وأعْدَل؟ وكيف لي ان التقي بهواي؟

[٢]

في ذلك الصيف الحارِق من ١٩٦٧، لم يكن علي بحاجة الى الترويح عن جسده الساخن، إذن، بقدر ما كان بحاجة الى الترويح عن نفسه. نفسه التي بدأت تلتهب قدّامي، حتي انني كدتُ أرى ألْسِنَة اللهب تخترق ثيابه اليابسة،

مثلما تخترق َقصَباً لمْ يبَلّلْه مطر منذ سنين؟

كنت اشعر وكأنّ حرباً خفيّة تدور رحاها في رأسه. في قلبه. وفي نفسه. ولكن، من اجل َمنْ كان علي ُيحارِب؟ وسرعان ما صحح «ابن الوراق» تساؤلي الذي اعتبره ساذجاً وسَطيحاً، عندما قال ُمتَلَمِّظاً: «يتحارب، بالاحرى»؟

ولا بد انه رآني في حال من الدهشة العجيبة بعد ان صحح تساؤلي دون ان يجيب عليه. دهشة الجاهل الذي يكتشف عمق جهله لأبسط الامور. وهو برغم ذلك يشعر بالسعادة لانه اكتشف شيئاً. كنتُ قد أُخذتُ بكلامه دون ان افهم مغزاه الحقيقي (وشر الكلام الذي يصدم دون ان يفهم) كما كان هو نفسه يقول. لذلك، ربما، اِلتفَتَ اليَّ، ناظراً في عينيَّ، وكأنه يريد ان يهيئني لقبول ما سيقوله، بعد قليل.

يُهيِّئني بنظرته الليّنة التي كان يعتقد انها ساحرة، مع انني صرت أتعوّذ منها كلما لاحت لي بوادرها في الافق. وفجأة قال: «علي في حالة حرب حقيقية. حرب تدور رحاها في اعماقه، لا في الواقع، كما تظن»؟

وبعد ان تطلّع، كعادته في مثل هذه الاحوال، الى الارض بين قدميه، اضاف: «واعداؤه الحقيقيون هم اصدقاؤه. اصدقاؤه الذين لم يستطع ان يحقق القطيعة التي يتمناها معهم. كما انه لم يتجنب الوقوع في محاذير عدم تحقيقها، ايضا».

ولانه رآني اغرق في بحر افكاري الذي بدأ يتلاطم بسبب ادعاءاته التي كانت تبدو لي مغرضة، إن لم أقل قليلة الرشد، حاول ان يوضّح ما غمض، قائلاً، بهدوء شديد: «والحرب حرب، حدثت في الخارج ام حدثت في الداخل».

وبعد ان شدّني من َنكْحَة أذني قال شبه غاضب: «ماذا تريدني ان اقول لك اكثر من هذا؟ وبأيّ لغة تريدني ان اشرح لك ما اعجزني شرحه المتكرر؟».

ودون ان يتوقف عن النظر إليّ، استضاف في الشرح، مركزا على كلماته التي نطقها، هذه المرة، بحرص شديد، وكأنه يخشى عليها من الفساد ان لامستها الريح: «انني مثل علي في المأزق، هذا: أؤمن بضرورة الدفاع عما نعتقد انه الحق، حتى ولو كان العالم، كله، ضدنا».

كان «ابن الوراق» يتكلم بهدوء، وكأنه يغرف من بحر افكاره السرّيّ؟ ولاكثر من مرة، وجدتني أتلَفَّتُ يمنة ويسرة بحثاً عن كائن اسمعه ولا أراه. كائن يسكن روحي الوالهة، وهو في الوقت نفسه، خارج كل شيء؟

ولمّا رآني أُقَلِّب النظر باحثاً في يدَيَّ العاريتين عمّا يمكن لي ان اقوله، مع انني لم اكن مضطرّا لأيّ قول، اضاف مُؤنِّباً (او هكذا بدا لي): «علي يشعر انه اخطأ حتى قبل ان يُخطيء. والآخرون يُخطِئون وهم يشعرون بأنهم على صواب؟ إنه، ببساطة، كائنٌ عصابي تُلَوِّع روحه عقدة ذنب لم يقترفه».

وبعد ان ملأ رئتيه البائستين من النسيم الدمشقي الطازج، عاد يتملاّني وكأنه يبحث عن عصَبي الضعيف، قبل ان يقول (مُتواطئاً هذه المرة): «لكن التاريخ الكبير لا يصنعه إلاّ عصابيون كبار»؟

ما معنى ذلك؟؟ صرت أُردد لنفسي صامتاً باستياء. باستياءنابع من حضيض الجهل الذي لم يكن يعرف الاحتجاج، بعد.

كنت قد بدأت احس لاول مرة في حضوره، وفي مواجهته، بُنذُر الشك التي اخذتْ تُلْهِبُ روحي بنارلم أكن أُدرك، آنذاك، مصدرها.

كانت تلك، هي اول مرة، أجرؤ فيها على وضع نقطة شَكّ على اقواله. أضعها بلا تهَيّب، وأكاد أقول، وبلا مبالاة. ولقد رأيته يهتَزُّ عميقاً وهو يُتابع حركة أصابعي التي غدتْ ليّنة مثل العجين.

كنت اعرف «حالة العجين»، هذه، في أصابعي (وكان، هو ايضاً، يعرفها، ولا بد). اعرف منها انني بدأت أتجاوز حالة الخوف الكاذب الى حالة الخوف الأكيد: الخوف من اكتشاف ما لا أريد اكتشافه.

وهممتُ ان اقول. .إلا إنه تابع بهدوء شديد (قبل ان أبادر بالقول)، وكأنه يُشفق عَلَيَّ من ضعفي وجهلي (ولم أكن انتظر منه إلاّ هذا الشعور المُخِلّ بكينونتي): «ذلك ليس تفسيراً، بل تبسيط لكي تفهم»!

افهم ماذا؟ قلت محتَجّاً (وكانت تلك اول مرة اعلن فيها احتجاجي بصوت يسمعه الآخرون، لا انا، فقط).

قلت ذلك دون أُغادر المكان الذي حَرَنْتُ فيه. لكأنه عندما سلبني متعة القول فتح مسام كياني، كلها، على الفضاء. على الفضاء الدمشقي الذي كان يحيط بنا بحنان. ولاول مرة احسستني أتنشق، بمتعة، عبير الياسمين الطائر في الريح. وأرى الازوال التي كانت تخبّ فوق قاسيون: أزوال النسوة المرميّة بين افخاذ الرجال.

ووجدتني اغمض عينيّ الغائرتين عن الامر، كله. الامر الذي كان، من قبل، يعميني. اغمضهما وانا اردد ببلاهة «مقصودة»، هذه المرة: افهم؟

وكأنه لم يكن ينتظر مني الا هذا الصوت المتفاني، هذا الصوت المتمادي في الحيطة والاستسلام، قال بتعال: «تفهم إننا اذا ما اردنا ان نبحث عن حليف لنا، الآن، فإننا لن نلقاه إلاّ في شخص كائن مثل عَلي»؟ اردت ان اقول له شيئاً، شيئاً ملأ لسانَي الا انني (قلته لنفسي). وسكتُّ.

[٣]

باستياء واضح، دوّى صوت بكر:

– ألا يأتي الرجل، ياعمر؟

تطلّع عمر الى عثمان الذي شغل نفسه بالنظر المريب الى جمْع صغير من الناس، دون ان يقول شيئاً. جَمْع وُجِدَ، صدفة، بالقرب منا؟

الآن، يحلو لي ان أضع «صدفة»، هذه، بين قوسين؟ لأن التاريخ من كثرة مُغالطاته وأكاذيبه علّمني الحذر الشديد، وبخاصة عندما تبدو الأمور طبيعية جدا.

جَمْع من الرجال الدمشقيين بدا لي (ولهم، ربما) بلا خصوصية. لكن عدم الردّ الذي كان ينتظره بكر من عمر، وتطلُّعات الأخير الى عثمان الذي شاغل نفسه قصداً، جعلاني أتريّث في الحكم عليه (على ذلك الجَمْع الذي احتقرته دون سبب) ريثما تتضح الأمور.

كان الرجل الذي ينتظره بكر على أحر من شمس الشام الحارِقة، ذلك

الصيف، مشغولاً بتهيئة أطباق «البوظا» الدمشقية الشهيرة، ذات الطعم الحليبي السائغ، واللون المخلوط بالعسل وبالرمان. يهيئها بحميّة وإتقان لزبائنه الذين جلسوا قبلنا.

ولكن، لِمَ بدا بكر وكأنه يُعاني من ظمأ سيقضي عليه، إنْ لمْ يسعفه الرجل في الحال؟ ولِمَ لمْ يجب عمر على سؤاله الملهوف، ولمْ يتوقف عثمان عن اختراق جمع الشباب الدمشقي بعيونه المستعرة كالنمس؟

كانوا يتكلمون بصوت نصف مسموع وهم يتحركون بسعادة تُقارب النشوة. سعادة أفرزها، في ذلك الفضاء الملتهب من الَحرّ: «مأكل َذيّب، ومَشْرَب َطيّب». كما قال علي، بمودّة، وكأنه أراد ان يفهم الجميع أن الحياة تحتمل الهرج والفرح، ايضا.

وجد عثمان الفرصة مناسبة ليقول ما لم يكن احد منهم يفكر فيه، عندما أضاف مُعقّباً على علي:

– ولربما كان الامر خلاف ذلك؟

وبعد ان تطلّع الى عيون عمر، لأول مرة، منذ ان جلسنا، اكمل بتواطؤ:

– أكاد اقرأ ذلك على شفاههم؟

ولمّا رآني أنظر اليه مدهوشاً، قبل ان انظر الى علي، وكنت قبل ذلك افعل العكس، تابع بنشوة لا تُخْفى:

– وأعظم سعادة هي سعادة الخديعة؟

وأضاف وهو يشير من طرف خفي الى رجل المرطبات الذي جاء يسير محمَّلاً باطباقه وصفاياه. رجل رِفْعة تحيط بمنكبيه واعضاده الالوان الرطبة المتسايلة بدلال:

– وقد لا يكون «بكداش للمرطبات» الا ذريعة للتخطيط. ذريعة بريئة من اجل فعل رديء.

كان يتكلّم وهو يتطلّع في عينيَّ (في عينيَّ انا؟) وكأنني صرت، فجأة، محاوِراً لا يمكن تجاهله. وأول ما خطر لي، آنذاك، هو أنه يريد أن يدفع بعلي الى

حافةالانهيار. فعلي يقبل كل شيء الا أن أتخلّى، انا الآخر، عنه (كما فكرتُ). ولصالح مَنْ (صرتُ أتساءل صامتاً، بحياد)؟؟ أتساءل دون اضطراب، أو احساس بالخديعة، أو الغدر! كما لوان تلك الفكرة المخيفة لم تُخِفْني. وكنت، من قبل، جديراً بأن أرتعد من مجرد بُروقها في ذهني.

كانت تلك اول مرة احسني فيها قويا وبلا ذنب يؤذيني. حتى احساس الغَدْر الذي سيمثّله ذلك الانحياز لوتَمَّ، لم يُخالِجْني، ولم يعكر صفاء ذهني، و«تمرّده» المفاجيء. اللعنة؟ بمن استغيث؟

صامتاً، صرتُ استعيد كلمات «ابن الوراق» التي طالما عذبتني: «العالَمُ فعل. وللفعل مقومات. مقومات نجاح ومقومات فشل. ولستَ تمتلك الا الأخيرة منها».

«انت لست الا ذهناً مشوشاً وبلا رؤية جذرية. ماذا تريدني ان افعل، وكيف أدلّك على الطريق الصحيح لتصل الى نفسك»؟ ولم يخلصْني منها إلاّ نظرات عثمان الصارمة التي صَبّها باصرار عَلَيَّ.

بتأثيرها خرجت من نفسي، وصرتُ أتطلّع، مثله، إليهم. وكأن ما قاله بذلك الوُثوق المفرط (المعروف عنه عندما يَتّهم احدا لا يعرفه احد منا غيره) اغراني، انا الآخر، «بالتجسس» عليهم. على هؤلاء الرجال الذين بدوا لي، منذ لحظات، اكثر الناس حرمة ووقاراً.

استدار عثمان نحوي، فجأة، وهو يَهُمُّ بالحديث. وبصوت عال، قال لي مُنبِّهاً (كما حسبتُ): «الحذر أبلغ، احيانا، من النظر»؟ لكأنه يريد ان يجعل مني ذريعة لتوصيل ما كان يريد توصيله اليهم؟ ولذا، ربما، ركبني الجُبْن القديم الذي أخَلّ، دفعة، بشروط التصنّت والحديث. فوجدتني انكمش، وانا اكاد ان اطير. اردت ان اقول لعلي بعض ما يملأنفسي من ألَم وكيد. ولم يكن لدي ما أقوله سوى الصمت. صمت البلادة الانسانية التي لم تُفَجِّر، بعد، قُشورها الخانقة: القشور الكاتمة للنَفْس.

ولا بد أن بكراً أدرك بعض ما كان عثمان يريده ان يدركه إذْ رأيته يَتَملْمل بنفاذ صبر، وكأنه قاعد على الشوك. يتململ وهو يلقي، من آن لآخر، نظرة مستورة الى

القوم.

اما عمر فقد استدار، بشكل علني، ليواجه أولئك الذين لم يتوقفوا عن الحركة والمزاح. ليواجه تلك الُرسامات الدمشقية الشابة التي بدت لي عابِثة اكثر منها خابِثَة؟

لكن لعثمان رأياً آخر. ويجب الحذر، كثيراً، من رأي عثمان عندما تستدق الأمور؟ كما كان «ابن الوراق» يردد.

كانت المسافة بيننا وبينهم كافية لكي تسمح بالحديث دون ان يصل الصوت من هنا الى هناك.

وإنْ وصل فسيصل مختلطاً بأنين مرواح السقف العملاقة التي كانت ُتطَوِّح الهواءالساكن لتبعثره في أنحاء الصالة المهيبة، بالتساوي.

كانت وجوه القاعدين تفرح بوصول الريح الاصطناعية إليها. وكانت القسمات التي لا تكفُّ عن الْتِهام اطباق «البوظة» الدمشقية المخلوطة بالفستق واللوز، على كثير من الوجْد والانشراح.

لكأن البُرودة الرطبة كانت رسول الدفق المنعش الى القلوب. الى القلوب التي كَوَتْها لَفْحَة الشمس.

دمشق، كلها، كانت تتجمّع في «الَحميديّة»، ذلك النهار؟ وكان عثمان يتمتم مستاء: «مدينة بأكملها تسكن في سوق»؟! وبقسوته المعهودة، عندما يحس بأنه قد يتجاوز الحد، رَدّ عليه عمر ُمؤنِّباً: «أمن اجل هذا جئنا اليوم الى هنا، ياعثمان»؟

كان لكل منهما منهجه ورؤياه. عتبات فهمه وتوقعاته. و(برغم ابن الوراق) خططه التاريخية، ايضا. لا، لا يمكن ان يكون الناس أنساخاً. وبالتالي، يحق لأيّ منهم ان يختلف مع الآخر، وعنه. «إن ما يُفَرِّق الناس هو الذي يجمعهم، في اكثر الاحيان» كما كان هو، نفسه، يقول. كدتُ اضحك من تلك الفكرة «العجيبة» او التي بدت لي هكذا، آنذاك، وانا احدّق في مراوح السقف العملاقة، ذات الأجنحة المتطاولة مثل زعانف الحيتان، وهي ُتدَوِّر الريح التي سَكَنَتْ منذ شروق الشمس.

ولم اضحك. إذْ كيف يمكن للبلادة أن تفتن نفسها؟ ومن بامكانه ان يضحك (من قلبه) في نوء من السعير؟

كانت الحركة التي تفعم السوق، ذلك اليوم، تتجاوز كل تنظير. حركة؟! حركات بالاحرى. حركات من العيون والألسن والاقدام والهيئات. كانت عمليات البيع والشراء المتزاحمة توحي بيوم ممتليء بالسعادة والتعب، كما كل يوم. كانت المدينة، كلها، تصبُّ فيها، وأول المَصْبوبات النسوة. كيف لا التهب، إذن، وأنا أكتم الاضطرابات؟

ووجدتني أتعجّبُ، في سري، وأنا أُلاحق البشر والجنازير. أتعَجَّبُ من ان «اصحابي» لم يكونوا ليعيروا اكثر الناس أي اهتمام؟ لكأن عيونهم مربوطة ببعض البشر، دون بعضهم الآخر. ولا بد ان عقولهم كانت، ايضا. ولكن لِمَ هم كذلك؟ ولِمَ لايكونون؟ أي معنى، إذن، «لمعقولية» الأمور سوى رغبتنا فيها؟ «لكن الرغبة ليست مجانية دوماً، ولا هي بلا غايات» كما يقول «ابن الوراق»، إن لم تكن هي وحدها المعيار الصحيح؟ كما ان العالم ليس منقسماً بمثل هذه الصرامة، بل مختلط، ومختلط جدا (كما يقول) وهو، في ذلك، مرة اخرى، على حق. فلأتريّث؟

كنت قد بدأت امتليء بشعور غامر من حب التواصل الذي لم كن اعرفه، أبداً، من قبل. كنت اريد ان امتزج، وبلا حدود، مع العالم الذي أحاط، فجأة، بنا. ولذا صرت أتلفّتُ حولي بحرقة (عن أي شيء كنت أبحث؟) وكان علي أول مَنْ رأيتُ؟ كان يتجسّد في قعدته الجليلة قربي ككيان انساني هائل. هاديء وحزين.

في وضعيته الساكنة، تلك، بدا لي نوعاً من اللغز. لغز غير مفهوم رغم مقاربتي الطويلة له. كائن انساني واحد ذو دلالات عديدة؟ صرت اردد في سري ببلاهة لا تغتفر.

صرتُ أتطلّع، بخبث، إليه، من اجل اكتشاف مخابيء «الدلالات» التي كنت أحسّها ولا ادرك مصادرها، بعد (هل سأدركها، ذات يوم؟).

كدتُ اسأله عن السرّ الذي يُلْهِم عيون الناظرين الى بعض البشر المُجِلّين

(الذين لستُ منهم)، ولكن ما جدوى السؤال عن «ميزة» يتمتّع بها الآخرون، ولا نملك نحن لها سبباً؟ فلاسكت، إذن؟ وفعلاً سكتُّ.

كنت أراني مثل خامة بيضاء يخترقها الضوء بلا أثر؟ عن أيّ معنى يمكن ان تسأل الضوء الخارق في مثل هذه الحال؟ وكيف تسمح لنفسك ان تلومه؟

كنت أحاول، بلا كلل، ان أُعَوِّض ذلك النقص القاتل الذي كان يعذبني بلا رحمة منذ إنْ وعيته، ولكن بلا جدوى.

الآن، صرتُ أعرف ان الحياة ليست مجموعة من الأزمنة المتراكمة، وإنما هي «الوعي المتراكم»، على حد قول «ابن الوراق» العتيد.

«ابن الوراق» الذي قال لي ذات يوم، وكأنه كان على علم بنُكْرَتي وعذابي: «إعلانك عن نفسك، او كلامك عنها، لا يزيد الآخرين إلاّ جهلاً بكَ. وحده، سلوكك الفعلي قد يلقي بعض الضوء عليك. تصرَّفْ، إذنْ، وكأن ليس َثمَّةَ مَنْ يجهلك؟ إنْ كنتَ انت، نفسكَ، تعرفَ مَنْ انت».

[٤]

كانت أجنحة المراوح الهائلة َتلوف سقف المحل الشاسع، ُمقَطِّعة (كلماتي السرية) وفضاءه المزخرف البديع قُطاعات أفقية مضيئة، تتلاحق مثل دوائر الماء الغائرة في الاجراف. اجراف تلال «الجزيرة» التاريخية الحُمْر، حيث القُرُنْفل والاقحوان يتهَفْهفان على جيلانها بدلال.

كانت الأذرع الحديدية المتينة َتلوج ساحبة بحميّة كل قطرة من الهواء في الاعلى، لتلقي بها الى الحضيض. الى حيث يجلس الوالجون بوقار وهم يتناولون مرطباتهم ذات الالوان الفاترة الجميلة. من اين كانت المراوح اللَوّاحة، تلك، تسرق الريح؟ وكيف لها بذلك المد الذي بلا جَزْر؟

كانت الريح في «الجزيرة» نفْحاً، وهنا، تتسلّط بقوة الحديد عَلَيَّ. ولكن، اي بأس في ذلك إن كان تغيير الحياة يقتضي تغيير الامكنة والانواء. ان كان لا بد من الناس «الآخرين» لنصير نحن غير ما كنا. فلاصمتْ، إذن، ولانظر.

فجأة، صرتُ أتأمل علياً. أتأمّله بشكل مختلف، وكأنني التقي به لاول مرة؟ أيكون ذلك بسبب مقولات «ابن الوراق» حول الحليف المحتمل الذي كان يتجسّد فيه؟ ام ان لذلك اسباباً اخرى؟

وكأن ناراً مسَّتْ اطرافي، وجدتني ارتعد، وانا اريد ان أقيء؟ أعدتُ النظر اليه (بعد ان اطمأنت نفسي اليَّ) وأنا أتساءل في سرّي: لِمَ يجلس في هذا المقام بمثل هذا الاحتشام؟

عادة كنت ارى اللهفة ترتسم على محيّاه، ترتسم بسهولة ووضوح، حتى كنت أخالني سأمسك بها لو مددت يدي اليه. كانت رغبته تخترق ثخانة جسده معلنة عن نفسها، دون ان تؤذي أحداً من الحضور. اما اليوم، فقد بدا وكأنه فُرِّغ من كل رغباته (وبخاصة السرية منها). عجباً؟

كنت (من قبل) اكاد ان اسمع ما سيقول، قبل ان يتكلم؟ كنت..! لا، لأنني عارف بأمور النفوس وزواياها، ولكن لأنه كان يبدو لي كائناً شفّافاً. «كائن مقروء» كما كان «ابن الوراق» يصفه احياناً. يصفه بذلك للتدليل على «بساطته غير الثورية» كما صرت اعرف الآن. وكان يضيف، وفي قوله ايحاءات شتّى: «البساطة الفطرية ميزة أساسية من ميزات الكائن المتفرّد»؟ ولكن، لِمَ تراه يبدو، الآن، كتيماً وكأنه الصقر الذي بلا عينين؟

كان «ابن الوراق» غالباً ما يتكلّم عنه وهو ينظر في عيني! لكأنه يريدني ان افهم من كلامه مقاصد أخرى (مقاصد تهمه ولا تهمني). وكنت افهم ما اريد (حتى ولو ضرّني الفهم، هذا). كنت لا أُدركُ، بعد، الفرق بين المستور من الكلام وبين المنثور منه. بين ما يُقال ليُفْهَم، وبين ما يجب أن يُفهَم دون أن يُقال.

كنت لا ازال في مرحلة «الكائن الارتكاسي» على حد قوله. الكائن الذي يسمع، فقط، ما يُخَرِّشُ أُذُنيه. ويرى، فقط، ما يفقأ عينيه. ويفهم، فقط، ما لا يثقل عليه. اما الآن فقد احسستُ بأن كل شيء في طريقه الى التبَدّل (وإنْ لمْ يكن قد تبدّل، بعد، أيّ شيء). شعور حاسم احسست به، وانا جالس في حضرة تلك المراوح العملاقة التي لا تني تُطارِدِ الريح؟ تُطاردها من اجل ان تُحَرِّكَ شُعَيْرات رأس

بكر الساكنة من شدّة الَحرّ.

وعندما خطر لي ن أسأله عن خصائص الكائن الذي يُجلّه (وقد سئمت من نقده المغرض، وبخاصة لعلي)، وكنت اسأله «بحسن النية البليد» الذي لا يهدف الا الى الفهم (إذْ كنتُ لا زلت اعتقد ان حسن النيّة امر ممكن مثله مثل الفهم نفسه) نظر إليّ بكثير من الدهشة وهو يكاد أن يصفعني (كما تهيّأ لي) لكنه، فجأة، قال: «انا لا أُجلُّ أحداً».

ولمّا رآني غارقاً في تفسيراتي السكونية التي لا تؤدي الى ادراك، اضاف موضحاً: «لكنني ابحث عنه، عن ذلك الكائن الذي يمكن لي ان أجلّه. وهو المتمرد المحتمل» اضاف.

وكأنه يقرأ اسئلتي التي كانت تعذبني في كتاب مفتوح امامه، أوضح حتى قبل ان يتبادر السؤال الى ذهني: «إنه الكائن الذي لمْ تستوعبه السلطة، بعد، مع انه لمْ يحقق قطيعته النهائية معها، ايضا».

وبلا اهتمام تابع الكلام، وكأنه ليس بحاجة الى مُحاورٍ: «منه يمكن ان نصنع مصلحاً كبيراً، كما يمكن ان نصنع طاغية»؟

لم يسألني، هذه المرة، إنْ كنت فهمت مما قال شيئا، لأنه كان واثقاً من عدم فهمي، كما خطر لي (ولست ادري لِمَ يظل يخطر لي ما لا يخطر لأحد غيري؟ أيكون الاحباط العميق الذي أعيشه مصدراً من مصادر هذه الخطرات). لقد بدا عليه (على عكس ما كنت أتوقع منه) ملمح من الندم. من الندم الذي يعقب الاحساس بالتسرع في الكلام. وهو ما جعلني أندم، انا الآخر، لأنني مارست الاستماع اليه (حتى ولو كان ذلك عاملاً اساسياً في حياتي العاطفية). كنت احسبه (معي) بلاوجوه (والآن يتبادرلي غير ذلك)! كنت احسب انه هو الذي أراه، تماماً، والذي اسمعه، والذي أحسّهُ، بلا إضافات اخرى تبرهن عليه؟ لكن ذلك العَرَق الدَسِم، ذا الُحبيبات الصغيرة الذي غَطّى أرنبة أنفه وجُفونه، وذلك التَزَمّت المفتعل الذي داهمه وهو يتكلّم بُوثوق كاذب، جعلني ادرك العكس، آنذاك. أُدرِكُ أن الناس، جميعاً، بلا يقين. بلا يقين غير يقين وَهْمِهم التعيس.

ولكن، لِمَ بدا لي علي «غريباً» هو الآخر! غريب عني، وكأنما تحركه مآرِب أُخرى. وهو ما لمّ أقلْه لأحد بعد. ولمن يمكن لي ان اقول ما لَمْ استَبِن؟ ولم أقل، ايضاً، إنني.. لا! لم أعد متأكداً من شيء: «فعندما تتبلبل العاطفة، يضطرب العقل» كما كان هو، نفسه، يقول. ماذا كان بامكاني ان افعل، إذن، غير ان أَلْتَمَّ على نفسي، وكلّي ريب؟ كنت كالطفل الذي يُلامِس النار لاول مرة: أول ما يفعله هو الابتعاد عنها، مع ان الرغبة في لَمْسها، من جديد، لا تُفارِقه؟

ذلك، كله، ضاع في جو المحل الذي امتلأ بزائرين جُدُد. كان جو دمشق اللاهب الذي تسلّطتْ عليه شمسها الساطعة يدفع بهم الى ولوجه بلا توقف. يدفع بهم ليدفعوا «لَبكْداش» ما يملكونه من قروش لقاء ظلّ زائل، ورطوبة عابرة. «بكداش» الفاغر فمه لابتلاع نقود العالم كلها، لو تمكن من ذلك؟ «وسيتمكّن، ذات يوم» على حد قوله؟

لكن شراء بعض الرطوبة بقليل من الفرنكات، لم يكن في متناول الجميع، ايضاً. ولذا، ربما، تجمهر بشر كثير في واجهة المحل العريق مكتفين «بالرطوبة على الريحة»؟

تَكَدَّر بكر كثيراً لتأخر الرجل عن المجيء الينا، وعن تلبية طلباتنا التي كانت «ملحّة»؟ وحسبتُ انه استاء اكثر عندما قدَّم الرجل طلبات الرجال الذي جلسوا قبلنا في المكان «ماشياً على الدَوْر»؟

لمْ يطق عثمان صبراً (وقد شجعه ولابد احساسه باستياء بكر)، فنادى الرجل بنوع من الإمْرَة:

- تعال، يا معلّم؟

وقف الرجل الذي كان يحمل اطباقا ستة من المرطبات الشهيرة. وقف في منتصف الطريق، وكأن احدا ضربه بعصا على قفاه. وقف وهو يهتَزُّ من رعشة جوّانية ملأت احشاءه سخطاً. واستدار. استدار، كله، حتى صار وجهه العَرِق المَكْروب في وجه عثمان اللَيِّن والمَشْحوم. وبعد ان تملاّه، جَهْراً، تابع خطواته اليهم، دون ان يقول شيئاً؟

وكأن بكراً أُصيب بضربة قاتلة، قال بصوت أكله البَحَحُ والحِقد، مع انه مشحون بإرادةُ عظمى تعلن عن نفسها بلا افتعال:

-مَنْ هو هذا الرجل، يا عمر؟

قال ذلك وهو يُلَمْلِم أنحاءه بعنف خفي، حتى انني احسستُ وكأنه يريد أن يقول شيئا آخر، أقصرَ عن قوله في آخر لحظة. فبكر لا يتمادى صراحة. وهو لا يفتعل القول افتعالاً، ايضا. إنه كالبَنّاء الماهر لا يضع الكلام الاّ حيث يأتي ليكمل المبنى؟ لكن نظرته الغائمة التي بدأت تَحْمَرُّ كانت تعني شيئا آخر. كانت تعني: مَنْ هو هذا الكائن الذي يجرؤ على النظر الينا بمثل هذه الوقاحة؟

اما علي فقد تَلَبَّسه فرح سرّي. فرح رأيته يمشي تحت جلده. ولاول مرة كنت اراه مهيباً في مكانه وكأنه القمر؟ لم يتكلّم. لم يتحرك. ولم يتناول، حتى، كأس الماء البارد الذي كان ينتظره بفارغ الصبر؟ كان يُتَمْتِم بصوته السرّي الذي اعرفه، جيدا: «حماك الله يارجل»!

أجاب عثمان متحمِّساً على سؤال بكر:

- هو «ابن نُوَيْرة» السَمْكري.

وقبل ان يضطر بكر الى السؤال من جديد (ولكي لا يضطر، ربما) أضاف بسرعة موجزة:

- وهو احد هُمّال دمشق وصعاليكها الممسوسين. وهو صديق حميم لـ«ابو النَسْناس الدمشقي».

- «ابو النَسْناس» مغنّي السقيفة؟؟ ماشأنه والمرطبات، إذن؟؟

قال عمر متعجِّلاً، وكأنهأراد أن يَرُدَّ السؤال عن بكر الذي تشاءم بما فيه الكفاية، ذلك النهار.

لكن عثمان استمر شارحاً حال الرجل الذي كاد أن يطعنه بنظرته، حتى قبل ان يسمع سؤال عمر:

- بعد ان تقلّب في مهن كثيرة لا يحسد عليها، صار يعمل هنا، الان. وأظنّ أنه لن يفلح، ايضاً.

- لماذا؟

سأله علي بتحدٍّ خفيّ، وكأنه يريد أن ينبّه بكرا وعمر الى الخطر المحدق بذلك الرجل بسبب نظرة كانت في محلّها.

- لأنه أعْسَر.

قال عثمان. وبعد ان تطلّع حوله بلؤم، أضاف:

- وهي عاهة لا تصلح لنادل يعمل في اكبر محل للمرطبات في دمشق؟

- «ابن نُوَيْرَة»، هذا، سمعنا عنه كثيراً.

قال عمر، وكأنه يتكلّم بلسان بكر الذي صار يهزُّ رأسه بُخفوت لا يراه الآ منْ كان على علم بحاله.

بدا التفكير العميق على عمر، وكأنه يريد تحميل عثمان، وحده، مسئولية كلامه المغرض عن ذلك الرجل. لكن عثمان قال مؤكّداً، وكأنه لم يسمع (أو لم يأبه بما قيل):

- بلى؟ سمعنا كثيراً عن هذا الفاسق الذي لا حرمة لأحد عنده، ولا لشيء؟

وبعد ان حاول تهدئة أعاصير نفسه التي لَـجَّـتْ بها لُغوده، اضاف، بازدراء:

- كان يَسوع في أزقة «الميدان» و«الشاغور» و«الشيخ محي الدين» وفي الاحياء الشعبية الأخرى، يحضُّ الناس على رفض الظلم، ويدعوهم الى المطالبة بالعدل والمساواة. وكأنما ليس ثَمّة ظلم في غير هذا المكان من العالم؟

- صعلوك صار نادلاً؟ لا بد ان الاوضاع ساءت كثيراً، ياعمر.

قال بكر بحرقة أذهلتني. لكأن كلام عثمان عن الرجل لم يزده الا احتراما له. وبتودد واضح، قال له بصوت ملؤه الرَأفة والكَيْد:

- ألا تجيئنا يا رجل؟

ولمّا رأي الدهشة تعلو وجهه، اضاف برقة كبيرة:

- حالما تنتهي من الاخوان.

ابتسم الرجل الهزيل المحمّل بالأطباق وهو يهزُّ رأسه بالإيجاب. وبكثير من الحشمة والتودد وضع حمله الثقيل على طاولة طالبيه. وبأدب نَفَض يديه من نُقط

الماء المُـحَبّب برداً، وكأنه يُقسِم بانه لم يخطيء في حق أحد، قط. ومشى متحمّساً.

مشى، حتى آخر المحل، ليختفي، بُـرَيْهَـة قبل ان يظهر، من جديد. يظهر حاملاً طلباتنا الكثيرة على منكبيه.

– تأخرنا. لنقم، الآن.

ووقفوا، دفعة واحدة: بكر وعمر وعثمان.

اما علي فقد تريَّثَ، قليلاً، وكأنه يعتذر من الرجل الذي جاء يسير باتجاهنا حاملاً ما طلبناه. ومن ثمَّ قام. وقمت انا.

الفصل الخامس

[١]

- أقول لكَ كل شيء. كل شيء أُريد أن أقوله. وبالشكل الذي أُريد. وعليكَ انت أن تفرز الخطأ من الصواب. لِمَ تريدني أن أقول لكَ الحقيقة، وحدها؟ وهل يمكن لكائن أن يقول الحقيقة، فقط؟

- لا ابحث عن الحقيقة. ابحث عن الوضوح.

- وأي فرق؟ لستُ ملزماً بالوضوح عندما لا تقتضيه الحال، وإلاّ لقدمتُ نفسي على طبق للاغبياء. الغموض، احيانا، هو الوضوح بعينه. و«الوضوح البليد» الذي تبحث عنه ليس إلاّ إبهاماً مغلّفاً بالزيف. ليس المهم ما يقوله الآخرون، إذن، المهم هو ان نعرف نحن ماذا نريد. ماذا نريد أن نفهم من كلامهم، من تصرفاتهم، او من أكاذيبهم، حتى.

- ما صرت اطمح اليه الآن هو ان ادرك ما ارى وما اسمع وما. .. بما يليق به من تمَثّل وإدراك. من قبل كنت احسب ان مجرد «المُلامسة» سمعاً أو شمّاً او رؤية او مذاقا أو... تكفي لادراك جوهر الاشياء والإحاطة بخصائصها. اليوم، تغيّر كل شيء. فانا لم أعد متأكداً مما كنت شديد الأكَد منه. إنني في حال من الاضطراب الكامل، وهو ما يدفع بي الى التكلّم معكَ بصراحة: بصراحة الغبي الشجاع، إذا احببت.

- خَلْط كبير؟

قال مُرخياً رأسه المَلْساء، وعيناه الصدئتان تُلوزان بحثاً عن شيء لم أكن أدركه.

تجاهلتُ إنشغاله المفاجيء وتابعتُ ما بدأته من احتجاج:

- الآن صرتُ احس انني كلما تقدمت خطوة نحو الإدراك أتراجع عنه خطوتين. حتى لَتُخامرني الرغبة بالتخلّي عن كل شيء. عن كل شيء عرفته من

قبل، بما في ذلك تاريخي الشخصي، نفسه.

– تاريخ الكائن هو تلك «الُحثالة الضئيلة» التي يحسها تقطر من قلبه. وهي كل ما يتبقّى له من احتراق حياته العبثي، وبخاصة عندما تضطرب الامور. ومع انه يمكن له ان يضمها، كقَبْضَة، بين اصبعين، الا انه قضى سنوات عمره المديدة، كلها، في جمعها؟ التَخَلّي عنها (رغم انها هي الاخرى زائلة) لا يعني شيئاً آخر سوى الضياع: الضياع في بحث غير مُجْدٍ عن تاريخ جديد.

وبعد ان تنفس قليلاً وكأنه لم يعد راغباً في الحديث، اضاف متمهِّلاً ولكن بتصميم:

– المهم، إذن، ليس التخلّي المفتعل عن تاريخنا، وإنما نقده. نقده بلا تواطؤ أو خوف؟

– نعم؟

قلتُ بلا تدبير. لكأنني لم اكن املك مشروعاً حقيقياً لمتابعة الحديث (وليس ذلك بغريب عني). وإلاّ لماذا انطلقت مني تلك «النعم» السخيفة، وكأنني اردت أن أُصـوِّتَ، فقط. وهأنذا فعلت!

ولكن، حتى ولو كان لذلك «الصوت» تتمة، فان «ابن الوراق» لم يكن مهتماً بها، ولا مُصِرّا على انتظارها لتكتمل، لانه قال بلا مبالاة:

– اصعب شيء على الكائن فَهْمُ ما هو مَفْهوم؟

– نعم

مرة اخرى، هذه «النعم» المنقذة؟ صرت ألْتَذُّ كلما لفظتها، وكأنني أزيح بها عن نفسي ثقلاً؟

ودون ان يهتم بمثابرتي، تابع قبل ان تصل «النعم» المسكينة الى أُذنيه (وهل كان بامكانها ان تصل؟)، لكأنني صرت بلا وجود فعلي لصقه:

– نحن لا نفهم ما هو قابل للفهم، وانما ما نعتقد ان فهمه قابل «للتسويق»؟

– نعم؟

– لأن أغلب الناس لا يتصرّف وفق ما يفهم، بل وفق ما يعتقد انه يقرِّبه من

النجاح، ويمهّد له الطريق ليصل الى حيث يريد.

– نعم؟

– تلك كانت إشكالية المُتَذلّلين منذ أول العصور.

ولم أدعه، هذه المرة، يتم الجملة التي بدأها ليكتمل المعنى على هواه (صرت متردداً حتى في قبولِ ذلك) إذْ لَقَفْتُ الكلمة من فمه ورددتها بلا اعتبار:

– إشكاليّة؟

وكأنه لم يسمع اعتراضي البليد، تابع بهدوء:

– إشكالية الاختيار الحاسم بين الفِهْمَة والنعمة؟

– هـا؟

كنت اريد أن أتنفس قليلا قبل أن يستمر في إلْحاحه اللفظي الذي جعلني أنشغل عن كل شيء، حتى عن الموعد الذي بدأ يقترب بسرعة لم أكن أتوقّعها.

كان ثمّة خلل في الحوار؟ (حوار؟ دمار بالاحرى)؟ لم أكن مُحاوِراً، ولا مُحاوَراً، ايضا. كنت أذناً بلا دماغ. أُذْنٌ لا تصلح إلاّ للصَبّ فيها. لِصَبِّ ما يُقال حتى ولو لمْ تدرك منه شيئا؟ وكأنه لم يكن معنياً بما كان يتفاعل في داخلي (ولم أكن أتوقّع العكس منه) استمر في حديثه المخيف بلا كَدَرأو إنفعال:

– لان الناس لو تصرّفوا وفق ما يفهمون وما لا يفهمون لما بقي على وجه البسيطة غبي واحد.

وبعد ان تطلّع أليَّ مستطلعاً بعض ارتكاساتي التي لم تعد تقبل الانحباس، اكمل:

– فالمعرفة الانسانية مثل الثروة، تماماً، لا تتراكم، فحسب، وإنما تتبدد، ايضا؟

لست ادري كيف انبثقت من فمي الجملة التي ادهشتني:

– اريد ان اشرب؟

لم يكن لديّ ما أقوله غير هذه الكلمات التي انبجستْ من قلبي كما ينبجس الماء المحصور من تحت الصخور.

وبتصميم اعدت ما قلته، وهو يتملاّني بصرامة. يتملاّني مضطرباً ومأخوذاً كما يتملّى الرجل امرأة «تخونه»، قصداً، لاول مرة.

لكأنني كنت اريد ان اخرّبَ بإرادتي ما بنيتُه معه دون إرادة مني.

ما بنيته خلال تلك السنوات الطوال. ولم اكن، في الحقيقة، إلاّ مُطَبِّقاً لمقولته الشهيرة: «أيّ خير يُرجى من أفكار مستورة ومقسورة»؟ الآن، صرت اريد ان اعثر على الطريق بقدميَّ. وكان ذلك من حقي. من حقي وقد تحمّلتُ ما تحمّلتُ كل تلك السنين.

لكنني كنت اعرف انني لن أصل، ابداً، الى بَرّ الأمان، حتى ولو تخلّصت من كل أثقالي. وإنْ وصلتُ فإنني لن أحطَّ على رصيف الإدراك فيه (ألم يقل هو ذلك)! كنت اريد، لذلك (ربما) ان أزرع أول بذرة للشقاق (والخلاف) معه، ومعهم، ايضا؟ ان ازرعها منذ الآن لتنضج عندما يستوي الزرع.

وكأنه لم يحتمل، ابداً، ذلك النفور المفاجيء، ولا ذلك الاستياء العميق، الذي أحسّ به، ولا بد، حقيقياً (وهو الحريّ بذلك)، استياء كان يملأ نفسي ويفيض، قال مستنكرا:

– غريب امركَ؟ لكأنك ترفض الافكار لتقولها. وتنفر من السلوك لتمارسه.

– اريد ان اشرب؟

قلت بلا مبالاة، من جديد. قلت رغم صرامة «ابن الوراق» الذي كان متحمِّساً ليشرح لي اشياء كثيرة، ذلك المساء.

ورأيته يقف في مكانه، وكأنه أُصيب بالصاعقة: لكأنني باصراري «البائس» هذا مسحْتُ كل شيء.

كل ما تعلمته. وما لم أتعلمه، بعد.

كل ما قاله لي منذ اول لقاء؟

منذ اول لقاء عاصف بالقلب.

وهممتُ أن اركض نحو الماء؟ ماء «الفيجة» البارد كالشعاع. كنت اريد ألاّ أقع، من جديد، ضحية لصواعق كلامه التي لا ترحم؟

وفجأة، صرتُ اركض نحو الرذاذ. رذاذ الماء المتناثر في الفضاء. اركض، ويركض الصوت خلفي يناديني. صوت الإلحاح «الثوري» الذي اعرفه جيدا. صوت مشتقّ من العدم واللوم، يعكّر ذلك الصفاء. صفاء الطبيعة الدمشقية البديعة. ولم أكن أُجيب.

ماذا كان يقول الصوت؟ وأيّ معنى لصوت بلا أذن تتودد لسماعه ولُـقْياه؟

ولكي اخلص (ولو مؤقتاً من طنينه في أُذني) صرت «اغسل رأسي بالماء البارد» مثل حصان نزل عن عاطفة للتوّ. وبالفعل احسست بالصوت يتبلل، ومن ثمّ يغرق غائصاً مع القطرات الهابطة في القاع. آه؟ اخيراً شهقت النَفَس وكأنني غريق لامس البر بعد جهد طويل.

كنت اكتشف، فجأة (أو أكاد)، ذلك الَخلل الذي أوهنني وأضاعني. أضاعني مثل يتيم بلا مأوى؟ ولَكَمْ ادركت، اخيراً، انه كان على حق، عندما يظلّ يرد د على مسامعي: «ليس اليتيم فاقد أبويه، وإنما هو فاقد عنصريه: بصره وبصيرته»؟

كنت اريد، برغم ذلك، ان احكي له بعض ما في نفسي. ان اشرح له ما يعذبني ويضنيني. ولكن كيف لي ان استبدل لسانه بأُذنين؟

وهل يقبل الصمت َمنْ تعوّد الكلام؟ وبخاصة عندما يكون الكلام «سلاحاً ثورياً» لا غنى عنه، كما كان، هو نفسه، يقول.

في تلك اللحظة، كنت أموج، في اعماقي، مثل بحر بلا ُجـُدر. ولم يكن ذلك إنشاء ُلغَويّاً لمشكلاتي التي لم تكن تعني احداً غيري، مع انها َخلَـطَتْني بهم جميعاً. كنت قد بدأت استاء، فعلاً، ممّا كنت اراه، وأحسّه، وأسجله في دفتر ذاتي.

ولكن لمَنْ احكي ما لا يُحكى؟

[٢]

كنت اعرف ان موعد اللقاء بهم قد حان: موعد بعد غياب الشمس بقليل؟ وان َعلَـيَّ أن ألْـحَـقَ بهم، وعلى الفور. من قبل كنت حرياً بأن أقول: «موعد لقائنا».

الآن، صرت احب ان أضع نفسي في الموضع الذي خُصِّص، بدقة، لها. خُصِّص بدافع عوامل كثيرة اعجز عن ادراكها، حتى وانا في أشدّ حالاتي توهّجاً. عوامل جعلتني امتثل راضيا، احيانا. واحيانا، أقْبل باستياء. ماذا عَلَيَّ ان افعل، إذن، غير ان اهيِّء النوء للخلاص منه؟ للحاق بهم وبلا توانٍ؟

وهل كان بامكاني ان اتأخر عن موعد «مقهى الاصدقاء»؟ موعد «اللقمة» التي دعانا اليها (لسبب لازلت اجهله) عثمان (مع ان بكرا هو الذي سيتحمّلها، اكيدا): «ستكون سهرة لا تُنسى»! كان عثما يكرر، وهو يبحث بعينيه الشيطانيتين عن شيء لا يعرف احد غيره كيف يلقاه؟

ولمّا رأى علياً يتطلّع اليه والخَرَس يعقد لسانه، أضاف موضحاً قبل أن يَتخَلَّق السؤال في عينيه: في «سقيفة ابو معروف» هذه المرة. وكأنه يرضيه قبل ان يسمم احشاءه.

لم يقل بكر شيئا، ولا عمر الذي ظلّ، يتأمّل المارةوالمعروضات الدمشقية الأنيقة، صامتاً.

لكأن الدعوةُ رتِّبَت على عِلْم منهما. اما انا فكنت خارج «حلبة الدعوة» إن صح التدبير. كنت «المدعو بالقّوة». وكانت «القوة»، تلك، تتحول، دائما، الى «فعل». الى فعل أكْلٍ نَهوم. لكأنني مرتبط بهم (ببطني لا بعقلي) بعقد سرّي لا انفكاك منه!

ما إنْ انتهى عثمان من تحديد المكان حتى توجه عَجِلاً الى «كلبه» الذي صار لا يتخلّف عن لقائه. وبمودّة (لم أرها عنده وهو يتعامل مع البشر) قال له هامساً (مع انني سمعته): انت لست مدعواً هذه الليلة. ولعجبي رأيت الكلب يهز رأسه بدلاً من ذيله؟ يهزّه وهو يتباعد ببطء؟

وكأن ذلك، كله، كان موجَّهاً ضد علي، رأيته يستدير عنهم، حتى صار ظهره الكبير في وجوههم. وبصوت يكاد ألاّ يُسمَع، قال متأففاً: متى سيتغيّر هذا الوضع؟ وأضاف بيأس بَيِّن: ومَنْ سيجرؤ على تغييره!

وقبل ان ينتهي من جملته التي أثارت عطفي اكثر مما أثارت دهشتي، رأيت «الكلب العثماني» يَنْدَحِسُ بين رجليه مستثاراً، وكأنه أُرْسِلَ ليعضه من مكان

محدد بالذات. لكن الصرخة التي اطلقها علي، وكأنه يصرخ في فارس مغوار، جعلت الكلب يبتعد مرتعداً من الخجل والرعب.

للحظات طويلة (وعلي مشغول بمحاولة العَضَّة الفاشلة) أخذتْني سيول من الافكار والتهيـُّؤات.

كنت كمن يقذفه الموج من شاطيء الى شاطيء. صرتُ استعيد، بالرغم مني، مقولات «ابن الوراق» عنهم (وعني) استعيدها، هذه المرة، بعين اخرى، بعد إنْ كنت سمعتها بأذن متواطئة، من قبل. ماذا كان يقول: «هم لا رجعيون، ولا تقدميون. وهم خطرون لأنهم كذلك»! أيكونون كذلك، حقاً؟ كيف لي ان اقف الآن على ارض الإدراك الصلبة وقلبي مرهق وحزين؟

وتبيَّن لي رغم إعادته الماكرة أن ماكان غامضاً من كلامه صارغامضاً اكثر، غامضاً بوضوح؟ إذا ما اردتُ ان أكون دقيقاً. لكأن احساس الكائن هو، وحده، الذي يتغيّر. وهوالذي يُغيِّر الكلمات. يُغيِّرها حتى ولو لَمْ تتغيَّر الحال؟

هربتُ منه، وهأنذا اقع بين فكّيْه؟ الى الماء لَحِق بي؟ صرتُ املأ كفّي من ماء الفيجة المتبارِق كالفضة، واشرب. وأتصنّع الشرب، من جديد. أتصنّعه صامتاً لئلاّاسمع. علَّه يسكت، هنيهة، ريثما يتسرّب الماءالى جوفي. الى جوفي الذي امتلأ بالنفايات.

صرتُ اطمح الى الخلاص منهم ومنه، ولكن دون جدوى! «طموح العاجز ورغبته الناجزة، ليس ثمة أبأس منهما في الحياة»! كان يقول. يقول وهو ينظر، بلؤم، في عينَيّ. لكأنه يحكي عن حالتي: «حالة الكائن الذي يتواطؤ مع الشر حتى لايواجهه، مدعياً، ببساطة، جهله التام بطبيعته،وهو يعرف ان ذلك ليس الا حجة مضحكة».

لم يسحرني قوله المتودد، برغم الرَجْفَة العميقة التي جعلها ترافق كلماته، وكأنها وصيته الأخيرة التي سترافقني الى أمد طويل.

كان يتكلّم، وكنت اشرب. كنتُ أُريد أن أُمَدِّد كلماته بماء الفيجة المنبثق من الاعماق: من اعماق الارض التيَ أسرَتْني؟

وكأنه شَمَّ رائحة كريهة صار يُعقِّف أنفه ويتشاءم. يتشاءم وهو يتهيّأ للكلام. لكلام فقَدَ متعته ونَجْواه. ولكن أنّى له أن يدرك ما ليس في الحسبان؟ في حسبان «ثوري» مثله لا يرى العالَم إلاّ من شقٍّ فيه؟

ومع ذلك جاءني صوته واجِفاً ونحيفاً مثل صوت الزواحف المتهالكة من الإهتراء. لكأنه اراد ان يحذرني من التمادي في التنكّر والجحود (وكانا بالنسبة اليه من خصائص الكائن الذي يريد ان يحقق قطيعته النقدية، من قبل) فقال: «العنيد ليس قوياً إنه احمق. القوة هي قوة العقل، عليك ان تتذكر ذلك، دائماً ».

وفجأة لمستَتْني الريح؟ ريح المساءات الدمشقية الآيبة الى الموت: مساءات ارتكاساتي العظمى، وتجليات نهوضي ونُكوسي؟ صار عَلَيَّ، منذ الآن، أن أُعاجِل الوقت، قبل أن يُعاجلني (كما كان يردد)! وللحظة، لم أعد أراه، ولا أرى مني رُكناً؟ كنت استجمع قواي كلها للنهوض من القبر. من قبر الحياة الذي دَمّوني به واولهم هو. هل اقول له ذلك؟ وما ينفع القول مع المبررات، وهن كُثُر؟ وبخاصة تلك المبررات التي بلا ثمن. فلاصمت، إذن. فلاصمت.

الآن، صرت ادرك معنى اقواله المتشددة حول «فنّ الإنتهاء» من علاقة لم تعد مجدية. فَلَكمْ ردد امامي: «علينا ان نتعلّم كيف نتخلص من وِطء علاقاتنا المَرَضيّة».

وكان يضيف بتصميم، وهو يتابع الوان الغروب الدمشقي الآسر، وهي تتكسّر فوق قمة «قاسيون». قمة الجبل المهيب الرابض كالأسد على الارض: «وكل علاقة غير خلاّقة هي بالضرورة علاقة مَرَضيّة».

واحيانا كان يتمادى في شُروحاته مؤكداً بيقينية لا تتزعزع: «أنْ تعرف كيف تخرج من علاقة، أو كيف تخرج عليها، قبل الدخول فيها، مبدأ أساسي من مبادىء الحياة».

وكان يؤكد وهو يتملّى وجهي الذي يَربَدُّ عند سماع مثل هذه الشروح مستَمْتِعاً، وكأن الاضطراب العنيف الذي يسيطر على نفسي عندما يتكلم دليل على الأثر العميق لكلماته عَلَيّ: «التَجرّؤ على إنهاء علاقة ما، او على خرقها، حتى

ولو كانت علاقة أساسية، دليل على نضج الكائن الأخلاقي والعاطفي. وليس مفهوم الوفاء البليد إلاّ قيداً إضافيّا من القُيود الاجتماعية التي تُكبِّل الفرد. وإلاّ كيف يمكن للكائن ان يكون وفيّا ضد نفسه»؟

[٣]

كان كل شيء يبدو غريباً في فضاء دمشق، ذلك اليوم؟ من إشراقة الشمس المحتشدة بالنور، الى اسراب العصافير الهائمة بجنون. عصافير تزقزق بقلق ويأس وكأن صَيْدَها آتٍ بلا ريب؟ وبين هذه وتلك، كانت امواج البشر تتحرك بلا مزية او كيف. اقدامها تتسابق في «مشي بلا عقل». مشي صامت وكئيب. وحركتها بلا صخب او نوء. لكأن ماهية الكائن تكمن في قدميه؟ لكأن قيودا لا مرئية تُقيد كل واحد منهم، وهم يحاولون، مع ذلك، ان يفكّوا العُقَد والخيوط. مَنْ يدري؟

كنت لا افهم، بعد، ذلك التناقض المثير بين الواقع والافكار. بين احساس الكائنات بالخيبة و الخوف، وبين توتراتها المليئة بالعنفوان. ماذا كان بامكاني ان افعل، إذن، غير ان امشي، انا الآخر، صامتاً حتى يحين موعد الكلام؟ الكلام الذي لا ينطلق مني، ولا إليَّ يعود؟ أوَليست اللغة، في هذه الحال، سِمَةَ من سِمات الفعل؟ الفعل الذي كنت محروماً منه؟

ولكن، لِـمَ كان علي يمشي بمثل هذه القوة، فارِجاً أفواج البشر والعصافير! ذلك البشر المتراكم كالرُقَع في الطرقات.

ولِمَ كان يُتَمْتِمُ وهو يدقّ الارض برؤوس اقدامه المنصلقة مثل اقدام الوعول؟ كان يتفرّس في الوجوه المحيطة بنا وكأنه يؤنبها على كسلها الاخلاقي، وعلى بلادتها العاطفية ونومها الفكري. كانت اسباب كثيرة تدعوه، كما حسبت، لكي يلوم تلك الكتل البشرية التي اسلمت زمامها للشيطان. لَوْم يصل الى حد الكره القاطع لهم. كان يلومهم على هذا وعلى كثير غيره، حتى انني كدت اسمعه يعدد مسوِّغاته بالترتيب، مع انني لم اسمع، في الحقيقة، شيئاً. ولكن ماذا يهمّ السمع

عندما يمتلىء القلب بالبرهان؟

ماذا خطر لي، آنذاك؟ كل ما خطر لي انه يخطط لأمر سيدفع بعثمان الى كارثة أكيدة. ولكن أيّة كارثة اعني؟ وكيف لي ان اكون على مثل هذه الثقة العمياء في احكامي التي هي «شِبْه احكام» بلا وُثوق؟ كنت كمن يتبع قطيعاً من الوعول البرية، كيف يمكن له ان يعرف أيها على خطأ، وأيها على صواب؟ لماذا لاأتريّث في وُقوعاتي، وتَنَحِّي، وانا لازلت غِرّاً أبكم؟ لماذا أتسرّع في تفسير العالم وانا لا أحيط، بعد، بنفاياتي؟عجباً لهذه الهَيْلَمة المتمكّنة من نفسي؟

كنت أتمنّى أن أرى علياً، ولو مرة واحدة، في حال الحاسِم المُفَنِّد، أو الرافِض المُعَنِّد. وكان ذلك، ربما، وراء تلك التفاسير والتصوّرات. و«لا يتصور المرء عبثاً ابداً. كما انه لا يخطيء بلا غاية»! كما كان لابن الوراق يقول.

لكأن علياً يتخَيَّر إنفعالاته، وسلوكه، وكأنما قوة عليا تراقبه دون انقطاع. «قوة» لا يريدها أن تسجّل مأخذاً عليه؟ وهو مادفع «ابن الوراق»، ولا بد، الى النيل من شأنه، بشكل معلن، حين كان يشرح لي حاله، ذات مساء، قائلاً: «َعليّ نموذج الكائن المتناقض. وتناقضه ينبع من اعتباره لنفسه ضحية، ورفضه، في الوقت نفسه، لهذا الاعتبار»؟

ذلك المساء، صار يحثني على السير قليلا، وهو يرى الدهشة تعتريني مثل كل مرة، يشرح لي فيها امراً جديدا. ودون ان يهتمّ بما كنت انوي فعله، تابع، وهو يعرف جيداً انني لن أقاوم إغراء الُشروحات حول علي، فاستفاض في القول عنه: «تُزعجه فيرضى، حتى لتحسب انه يستزيدكَ إزعاجاً. وتُرضيه فيغضب، حتى لكأنه يريدك ألاّ تفعل ذلك، ابداً»!

ووجدتني اسأله بدهشة حقيقية، وكأن ماقاله رزيّة كبرى: ولكن، لِمَ هو كذلك؟ وأجاب بهدوء وتجَرُّد، وكأن ما سيقوله غير قابل للنقض، او الشك: «تلك هي خصيصته»؟

هذا كل ما في الامر! فكرت في سري. وقبل ان اعلن عنه، اضاف، مُعَمِّماً: «تلك هي خصيصة الكائن الذي يشعر بالعجز المطلق حيال ما يستاء منه دون أن

يقوى على تبديله». وبصوت اقرب الى الثغاء، أوضح: «دون أن يحاول تبديله، بالأحرى»؟

أُخِذْتُ بتفسيره المغرض واللئيم. كنتُ احسب انني الضحية الوحيدة في هذا العالم: ضحية جهلي؟ كما كان يقول. ومنه تعلمتُ ان مأساة الكائن هي مأساة إدراك، قبل كل شيء. بِمَ يريد ان يورطني، الآن، إذن؟ لا، لمْ أعد افهم شيئاً، رغم وضوح الكلام.

وكأنه كان على علم باعتراضاتي السرية، َتملّى الارض بين قدميه الملْساوين، متظاهراً بالحكمة وسعة الصدر، قبل ان يقول بهدوء شديد: «وتلك ليست نقيصة، دوما، انها احيانا ميزة. فنحن لا يمكننا اليوم ان نلتقي بالكائن المتمرد، او بمن يمكن له ان يتمرد ذات يوم، إلاّ في جلد الانسان – الضحية، أو فيمن يعتبر نفسه كذلك؟ وإلاّ لِمَ سيثور الكائن؟ وعلى َمنْ؟ إنْ لَمْ يكن على مضطهديه. ومن اجل تغيير ظروف حياته التي لم تعد ترضيه».

ظمأ الصحراء القديم عاودني، من جديد! فجأة، صرتُ اشعر بالنَشَف واليَبسان. وهو ما أثار خشيتي ونُفوري.

كنت في كل مرة أحس فيها بذلك الظمأ ألجأ الى الابتعاد عن المكان الذي أكون فيه؟ كانت خشيتي من الموت ظمأً، هي الوحيدة التي ظلّتْ تُلازمني طيلة السنوات الدمشقية، مع ان ماء الفيجة مبذول في الطرقات بلا نظير. ولكن أنّى «لابن الوراق» ان يشعر بما كنت اشعر به؟ وكيف اجعل ظمأي يعبرني اليه؟ كتمت عطشي وانا اتابع السير لصقه، مع انني لم اعد اسمع مما يقول شيئاً.

كنت اعرف ان الشمس هي، وحدها، التي يمكن ان تخلصني من ذلك العبء الباهض الذي كنت أتحمّله بلا سبب أو نصيب. الشمس؟ صرتُ انظر اليها برجاء آسر، وكأنها ستحمل إليَّ مطر «الجزيرة» في الربيع. المطر المملوء بالمياه. المياه الُحمْر التي كانت تتدفق امام عينيَّ الصغيرتين لتصبَّ في الُنهَيْر اليابس مالئة جَواليه. كانت تهيّء ضفتيه لاعشاب الربيع الَفوّاحة، ذات الالوان المختلطة بالنور: ُقرنْفُل، واقحُوان، وبابونج، وزنبق، وزيزَفون. َمحْلَب، وخُبَّيْز،

وفطر من شتى الالوان والانواع. الشمس!

الشمس التي ما إنْ تغيب حتى انطلق الى «مقهى الاصدقاء» لألتقي بهم (من جديد)، وهو لن يتأخر في هذه الحال عن الذهاب الى حيث يختفي كل يوم.

ولكن متى تغيب هذه الشمس البطيئة كالسلحفاة؟

قررت في اعماقي ان أدعه (أجعله) يتكلّم أكثر ما يمكن قبل أن تغيب الشمس؟ لكأني كنت اريد ان انتقم منه بدفعه الى الكلام (وكأنه كان بحاجة الى أحد يدفعه ليستفيض ويفيض) ولكن ممن سأنتقم وانا مضطر الى الاستماع بلا انقطاع، إنّ لمْ يكن من نفسي التي أُتْخِمَتْ كلاماً.

من قبل كنت أحسني أتشرّب المعرفة عندما التقي به، (وبهم). وبإصغائي المُطيع اليه، واليهم، كنت أشعر إنني اقطف الادراك من عناقيدهم المحمّلة بالثمر الرشيد.

الآن، وقد بدأ التغيُّر الهائل يشقُّ طريقه الوعرة في نفسي، صرت اراني مُلَوَّعاً بين عواطفي ونزعاتي. ولكن كيف اشرح له الامر؟ وإنْ لَمْ أشرحه انا، مَنْ سيقوم بشرحه بدلاً مني؟

مَنْ؟؟ تساءلتُ، مستغرِباً سؤالي. ولم يكن الجواب (على الغبي) صعباً: «منْ، غير «طبيعة الشيء» التي لا تخجل من اعلان تغيّراتها واضطراباتها» كما كان هو نفسه يقول! ولكن أيّ طبيعة يعني، وطبيعة الشام مزرية، آنذاك؟

[٤]

اخيراً، بدأت الشمس الدمشقية إنحطاطها الذي لا مفر منه. وصارت الظلال العظمى تتأرجح في الفضاء مثل كائنات سحرية بلا أقانيم. وفوق «قاسيون» الجليل تجمّعت، فجأة، غيوم شفافة، قبل ان تسوقها رياح لا محسوسة الى الشمال. اما فتائل النور الغارب فقد وَلَّتْ تنتشر فوق هامات القمم الغربية المُلاصقة للشام. وأخذت الظلمة تلتهم قاسيون بالتدريج حتى اختفى نهائيا عندما سقطت الشمس في الأفق.

ماذا يهمني، الآن، وقد َغربُت الشمس؟ فليتكلّم كما يشاء، وسأفهم ما باستطاعتي أن افهم (صرت أُشجِّع نفسي). ومع ان تلك لم تكن اول مرة أقوم فيها بتشجيعها، إلا إنني، هذه المرة،احسست بالبعد العبثي َيسِم كل شيء. كل ما كان يشغلني. وما لم يكن، ايضاً.

من قبل، كنت احسب أن «عدم القدرة» على الفهم (وكأنها ذات وجود حقيقي، فعلاً) خطيئة لا تغتفر. وبالمقابل كنت ارى القدرة على الفهم (وكانت دوماً من حصة الآخرين) مزية كبري؟ وَلَمْ أكن أتساءل، ابداً: ولكن لِمَ انا في هذا المقام، وهم في المقام الآخر؟ لِمَ لا أدعه يتكلّم كما يشاء، طالما إنني َلمْ أعد أذناً صاغية بلا وجدان؟

ووجدتني اسأله بنوع من التحدّي الخفي: ولكن لِمَ لا تتكلم (وكان قد توقف للتوّ عن الحديث)؟ سألته بجرأة تصاحبت، كما احسست، بدفق من النشوة العفوية: نشوة الإنتقال من حال «الَمسْكَنَة» الى حال «الَهيْمَنَة». الهيمنة على عواطفي وإنفعالاتي.

ما ادهشني، آنذاك، ان ذلك الشعور المباغت بالتحدّي الموهوم، والذي لمْ يكن، بالنسبة لي، إلاّ احساساً عابراً وبلا تخطيط، جعله يتوقّف في مكانه، وكأنه أُصيب بالصاعقة؟ يتوقّفُ وهو يمسك بأنفه الَلَيِّن بين السبابة والإبهام وقد بدا عليه الحَوَل والاضطراب.

وكما هي عادته، في مثل هذه الاحوال، َحطَّ رأسه في الارض وهو يفكر بعمق؟ لكأنه صار يريد أن يتأكد مما سيقول قبل ان يلقي به، منذ الآن، امامي.

تعجبتُ من تردده غير المعهود في الكلام عندما نكون منفردين. وخطر لي انني أسأت السؤال. ولكن لِمَ لا يجيد هو الجواب؟ كان الكلام الذي انطلق مني بشكل شبه عفوي، يمكن ان يكون أي كلام آخر. و لكن من يدري؟ «َمنْ يدري لِمَ نخطيء عندما لا نريد ان نكون مخطئين»؟ على حد قوله، هو بالذات.

كدتُ اسأله عن «اسباب» تردده في الكلام (فليس ثمة سبب واحد لما نفعله، كما كان يقول) الا انه قال قبل ان اسأل: «احس انني لم أتقدم معك ولا خطوة

واحدة نحو إدراك خصائص الناس والأوضاع (وكان الاحرى به ان يقول: لم تتقدم معي، كما فكرت صامتاً) برغم السنين العديدة التي لازَمْتني فيها».

وبعد ان سار في مكانه خطوتين، استدار نحو الشرق ليضع ظلال الأفق في وجهي، ولترتسم غربة الشمس على سحنتي التي كانت بالاصل صفراء. وأضاف وهو يمسك، من جديد، بأرنبة أنفه العَرِق: «عجيب امرك (مرة اخرى)؟

فكرت مستمعاً اليه، قبل ان يتابع: كلما أوضحت لك الامور تبهَّمَتْ في رأسك»!

ووجدتني أحسُّ بنوع من الاحباط العاتي. إحباط كتَّفَني خلال سنوات وجودي البائس، ومنعني من العيش كما أهوى، ماحياً ملامح شخصيتي التي كانت بالأصل مدروسة الآثار؟ حتى انني صرتُ اجهل طاقتي الحقيقية: طاقة الوجود لديَّ. ولَكَمْ صرتُ أعجب، الآن، كيف يجهل نفسهَ مَنْ يعيش، مثلي، هذه المعاناة الأليمة؟ ماذا اقول له بعد ذلك؟ وكيف؟

وكأنني كنت أُخطط لكلامي الذي سأقوله لنفسي، بعد سنوات طويلة، وجدتني اسأله، ولكن دون تروٍّ، هذه المرة، وكأني كنت اريده ان يفهم، اخيراً ان «ذلك الهيكل الانساني البائس الذي يلتصق به ليس بائساً الى هذا الحد، او أنه لم يعد كذلك.. كان «تحدي الكينونة» هو الذي يملأ اعطافي بروح من الذبذبة العظمى التي تمنح السعادة للكائن وهو في أشد حالته انخفاضاً». ماذا قلت:

كل ما اريد ان ادركه هو «الذَبْذَبات» الانسانية التي تميِّزُ كل واحد منا؟ (وشعرت بالاحباط على الفور لانني احسست بسقطتي المريعة وانا اطرح السؤال على من هو ليس اهلاً له. أتراه كان خبيراً «بالذبذات» وهو المتكبِّر، المتجافي عن العالم، الا اذا ركع امام تبجحه على ركبتيه؟)

ومع ذلك قلت ما قلت بنوع من السعادة الناجمة من استعادة الاعتبار للذات (وكأن الكلام سلاح لا يغلب)؟ سألته؟ بلى؟ وانا اكاد انتزع الجواب. لكأنني بسؤْلتي، تلك، أردتُ أن أنتقم منه ومنهم. وبخاصة عندما رَكَّزتُ على «الذبذبات» التي اخرجتها مدعوكة من بين اسناني.

كنت اعرف انني تماديت كثيراً، هذه المرة، رغم براءة السؤال. ولكن، هل للتمادي من فضاء غير فضاء البراءة الانسانية الحقيقية؟ براءة الكائن الذي يدرك فجأة، ولكن بعمق، مكانه في الوجود الذي هو عنصر منه، وفيه. ليكن!

كان الكلام الذي اقحمته في سياق لقائنا، ذلك اليوم، غير مُجْدٍ، إنْ لمْ يكن بليداً حقاً. ومع ذلك، رأيته يمسك (من جديد) بأرنبة أنفه الذي غدا مزروعاً بُنقَط العَرَق الدَهين (التي تشبه كثيراً نُقَط البول المتناهي) قبل ان يقول بصوت هادئ: فهمتُ؟

وبعد ان هزَّ رأسه، اكثر من مرة، علامة الاستيعاب السَمِح لما كان يدور في خاطري (وكأنه بذلك يبرئني من تهمة التمادي السخيف) أضاف هامساً: «على هذه الذبذبات الانسانية المتميِّزة ترتكز امكانية الثورة القادمة، ولا امكانيتها، ايضا»!

شعرتُ بنوع من الرضى عن الذات وانا استمع اليه يتكلّم مستثاراً. يتكلّمُ، مُجيباً على ما اعتبرته،انا (وربما اعتبره هو كذلك) أول تساؤل حقيقي اطرحه عليه (وعلى نفسي).

من قبل، كانت اسئلتي تثير اليأس والكآبة في نفس السامع اكثر مما تحرِّضه على الإجابة. وكنت اعرف ان ذلك ناجم عن البؤس النفسي، والضحالة المنطقية التي كانت تعشش في ذاتي (او هذا ما كنت مقتنعاً به). كنت امتلئ «بخامات الافكار والمشاعر» في طورها الأوّلي، دون ان اكون قادراً على صياغتها في مقولات ناضجة، وقابلة للفهم (كما كان يؤطِّرني باستمرار)؟

ومن طول صمته الذي تلى تلك الكلمات حسبته انتهى من إجابته. وتهيّأْتُ لأطوي صفحة نفسي على كلماته القليلة، تلك، إلا إنه قال، فجأة، قال بهدوء يدعو للقلق: «تساؤلٌ مُرْبكٌ، كهذا (وانت تعرف ما اقصد بهذه الكلمة) لا تشفي الغليل إجابة متسرّعة عليه ومع ذلك، من الضروري ان نجيب». «لماذا»؟ تساءل، وأجاب بهدوء اكثر: «لأن الجواب الحقيقي عليه يتطلّب َقلْب الوضع باكمله»! قال ذلك، وصمتَ َصمَتَ، حتى إنني خِلْتُ انه لن يتكلّم، بعد اليوم، ابداً.

تناَهبَني، عندما سمعته، احساسان متناقضان: احساس بالراحة التي لم أكن متعوِّداً عليه حتى إنه بدا لي نوعاً من الالتفاف المتواطيء حول الذات؟

وإحساس بالخيبة التي تدَرَّبْتُ على تحمّله وإخفائه، منذ سنين، إلى ان صار تبنّيه، لا تحمّله فحسب، ضرباً من النشاط اليومي في حياتي (نشاط اكاد اقول: ادمنت عليه).

ووجدتني اضحك صا متاً، وانا أهُمُّ ان..! ومن جديد أخذتُ اردع نفسي متذكراً قوله الذي لم يبارحني، بعد: «لمَ يضحك الكائن، بمثل هذه الرَجَّة، إنْ لمْ يكن، بالفعل، يبكي»؟ ولِمَ يبكي الكائن إنْ لَمْ يكن من سطوة التخاذل المفروض عليه؟ التخاذل المتسارع نحو الانهيار.

اخترق تلك المشاعر الوَليدة صوتُهُ الذي َنَخزَني، من جديد، بلا رِفق وكأنه استعاره من الجحيم: «في الحياة ثمة ما يمكن التفكير فيه وما يجوز، وثمة ما لا نفكر فيه حتى ولو كان ذلك جائزاً، وهما وجهان لعملة واحدة: عملة زيَّفَتْها الحياة ومشتقاتها من دين واخلاق ودولة. وكلا الوجهين، لاسباب كثيرة، لا جدوى منه»؟

ومن جديد، سَكتَ. سكت وهو يتلَمَّظ بالكلام. كنت انتظر ان يتابع اقواله، بفارغ الصبر. ان يتابعها ليستقيم تفكيري الذي بدأ يضطرب بفعلها؟ كنت احبُّ كثيرا لحظات الاضطراب الفكري، هذه، التي تعقبها غالباً نشوة قصوى من الادراك. الا انه أطال الصمت، هذه المرة، وكأنه أسِف لتورّطه بالكلام؟

وكأنه لاعب سيرك ماهر ولا يريد «لنمرته» إلاّ ان تكتمل، وعلى احسن وجه، قال بعد فترة من الصمت المُمضّ: «وكلاهما لا يهمني، أو لا يهمنا إذا شئت»!

قال ذلك بتوجّس وحيطة، وكأنه يريد ان يضع ثقله التاريخي، كله، في كلماته، وان يلقي بها من اجل كسب معركة لا يتصور نفسه خاسراً فيها، ابداً (يا للكبرياء المضحكة؟) وكأنه لم ينقطع عن الكلام، قبل قليل، تابع باعتداد: «مايهمني هو ما لا يجوز التفكير فيه مع انه غالباً مايكون ضرورياً لكي تستقيم الحياة. وينحصر همي، كله، في دفع نفسي، ودفع الآخرين، لاختراق الحاجز الوهمي المانع من التفكير، وفي تحرير طاقة الكائن وتحريضه ليفكر بكل شيء وفي كل شيء»!

وفجأة توقّفَ في مكانه وكأنه ينتظر وصولي إليه، وكنت أتأخّر عنه بضع خطوات. وبمودة لم أعهدها منه، َمدّ يداً ليلمسَ بها كتفي التي صارت، الآن، تُحاذيه، وبالاخرى أمسك ُذبابة أنفه، وهو يقول: «في هذه المنطقة الحرام، نفسها، تكمن تلك الذبذبات الانسانية الواعدة، التي علينا ان نقوم بتحريرها، لتحررنا، هي، بدورها، من البلادة والخنوع»؟

ووجدتني أقع، من جديد، ضحية المشاعر المتناقضة التي ُتتْلِفُ اعماقي، حتى إنني لم اعد استطيع التمييز بين «الفعل التاريخي» وبين «رد الفعل الانساني العابر»!

ولكن، أوَليس كل فعل انساني هو فعل تاريخي يستحق الاعتبار؟ َمن يستطيع ان يبلغ درجة الكمال غير الخيال؟ غير الخيال القاصرِ؟ ماذا كان يريد ان يؤكد لي، إذن، في تلك اللحظة، غير البذاءة؟ غير بذاءة الكائن الذي بريد ان يستملك الحياة؟

القسم الثالث



الفصل الاول

[١]

الغروب، وحده، يمكن ان ينقل دمشق من حال الى حال. من حال السُكْنة والهُمود الى حال الترفُّع والاختيال. حتى أشجار الياسمين ذات الازهار الناصعة البياض، مثل قلب لم يمسه الحقد بعد، تبدأ الهَفْهفَة والدوران مساء. ُعطورها المتناثرة في تقاطعات الابنية والطرقات تشهد على ان المساء بلاُ عكور. مساءَ مَنْ، ذلك الذي كان عليَّ أن أجيئهم فيه، ايضاً؟ وَمنْ أنا (من كنتُ) في ذلك المساء الممتليء بالتوتر والوجد؟ كيف يعثر الكائن على ذاته في مدينة ضيَّعَتْ ذاتها؟ وأي معنى لسكون المرء في جو من التوتر والاضطراب؟ لِمَ لا امشي كما تمشي الريح مخترقاً توتراتي البليدة التي قيّدَتْني منذ سنين؟

أشجار الياسمين، قلت؟ هي الاخرى، احسُّها تمشي معي. تقطع الشوارع الضيقة والفسيحة، تماما، مثلما افعل انا. أينما مشيت ثمّة شيء ابيض فوّاح ُيلاصقني. الناس الذين اختفوا طيلة اليوم من قسوة الشمس، يبدأون، هم ايضا، مثل الياسمين، ظهورهم العارض مساء. ذلك الظهور الذي سرعان ما يزول مخلّفاً في الفضاء روائحهم التي لاُ تنسى؟

النسوة الممتلئات حيوية ونشاطا، هنَّ ايضا، ينشرن انفسهنَّ، على الشرفات، مساء. أرأيت؟ أين تختبيء نساء دمشق نهاراً؟ كنت أتساءل، دون ان ابحث عن جواب لتساؤلي؟ كان الاختلاط الروحي الذي يكاد أن يدَمّر العقل، هو الذي يقود الخُطى والحواس. اغمض عينيَّ وامشي. وايّ معنى لوجودي دون مشي؟ أنسيت ربيع «الجزيرة» الفوّاح حيث الركض خلف قطعان الأبل الهائجة يفعم النفس بالخوف والرعيش. كانت الحركة وحدها تعني الحياة. فالكائن فيها اما ساكن تحت التراب، أو راكض فوقه. امشِ؟

ذلك المساء، كنت أحثُّ الُخطى للّحاق بهم في «مقهى الاصدقاء» قبل ان

يغادروه الى مكان آخر. وكيف لي، في هذه الحال، العثورعليهم؟ العثور على موجة في بحر مليء بالامواج؟

من قبل، كنت احسب ان العثور على الآخرين سهل، مثل العثور على الذات؟ يكفي أن نبحث لنعثر على موضوع بحثنا. إلا انني ادركت، مع الزمن، ان ذلك لم يكن الا حلماً. حلم غرّ لمْ يجرِّب شيئاً. ولمْ يَرَ من الحياة الا أصابع يديه، إنْ كان جديراً برؤيتها، اصلاً.

منذ متى وانا اعود مستعجلا الى ذلك المقهى الصغير الملْقوح على ضفة بردى، مساء! كنت أتساءل بنزق وانا اتابع المسير. لا لمْ أكن أتساءل.كان ذلك نوعا من اللغط الانساني الذي لا يمكن التحكّم فيه: لغط الذات التي فقدتْ كل معاييرها، ولم تعد تملك أية هداية لتوجيه إنفعالاتها التي شبَّتْ عن الطوق؟

ولأنني لمْ أذق طعاماً منذ البارحة مساء، كنت «امشي» متهالكاً دون ان أتقدم خطوة على الطريق: على الطريق الموصل الى الإدراك؟ وأيّ شيء يمكن للكائنُ الجائع ان يدركه غير حثالات الأطعمة والافكار؟؟ الحثالات التي فاضت عن حاجة مَنْ يرمونها. ولذا وجدتني أتقدّم وأنا أُتمتِم بحقد واستياء: القِلَّة عِلَّة؟

كنت اتقدّم صاعداً شارع «بيروت» الطويل بأشجاره العالية المقاومة للريح. الريح التي كانت تجيء مع الغروب، سالكة وَطاءَة «الوادي الاخضر» وتشعباته المختفية بين الجبال. ريح تتسلل مثل الرماح الخرافية بين اشجار الحور العظيمة، ناثرة اوراقها الصُفْر العريضة على القاع. ريح تركبها ثلوج «جبل الشيخ» المحمولة في الغيم. بفعلها، صرتُ أحسُّ النعومة الرطبة تُلامس جلدي المكفهرّ مانعة «ظمأي» المخيف من البزوغ، رغم حرارة النوء التي لا تحتمل.

مَنْ غرس تلك الاشجار الهائلة، ومن اجل أيّ شيء فعل ذلك؟ من اجل أي شيء، إنْ لمْ يكن من اجل الحياة؟ كنت أتساءل، وأردُّ على نفسي، دون ان أتوقف عن المسير.كدت اضحك من «الخرافة» التي كانت تتنامى في ذاتي مثل ابتهالات سقيم لا أمل له في الشفاء. خرافة «الخبرة» التي لم اتعب في الحصول عليها.

كنت أحسني مصاباً بأعراض لا بِرْء منها: أعراض التضاؤل الآدميّ القاتل؟

ولكنَ منْ غرس في نفسي تلك الأحاسيس التي نمَتْ فيها مثل هذه الاشجار؟ مَـنْ؟ وكيف لي أن أتخلّص منها، دون ان أتخلّص من ذاتي التي انحشت، الى حد التخمة، بها؟؟

هذا ما كنت اقوله لنفسي، وانا امشي مقتربا منهم. ما كنت أقوله لها، وكنت اعرف انني سأقول لهم شيئا آخر؟ لم أكن قادراً، بعد، على اكتشاف الخلل الذي كان يدفع بي الى قول النقيض لما اعتقد؟ كان في قلبي كلامان: واحد لي، وواحد للآخرين.

وفجأة، توقفت عن المشي، وانا اردد: لِمَ تراني أروح كالمسحور للقائهم، إذن؟ كدت اعود، خاسئاً، على ادراجي في ذلك المساء الناشف من البرد. كدت اعود ببؤسي الى حيث كنت لو لَمْ استحضر بعض اقوال «ابن الوراق» حول هذه النقطة بالذات (نقطة الردّة والنكوص) عندما قال بحماس: «الكائن طبقات. طبقات لا تحصى من الرغبة والحب والكره والاستياء». وأضاف، بعد ان فكر قليلا: «ومن الادراك. وفي كل طبقة منه طاقة. طاقة خلاّقة إذا أحسن إستخدامها».

ولما رآني غارقا في تفكيري، برغم فيض كلماته، تابع بقوة: «والجاهل، وحده، هو الذي يتوقف في منتصف الطريق. اقصد في منتصف طاقته الهائلة. طاقته على العمل وعلى الادراك» «وهو بفعله ذلك، أوضح، سيخضع، شاء ام أبى، لمتطلبات السلطة اللئيمة التي لا تطمح الا الى خلق مواطنين خانعين»؟

ولا بد انه رأى الالتباس على سحنتي التي امتلأت بالانقباض، عندما أكَّدَ بكثير من الدلالة: «الجاهل ليس هو ما تظن، اذن، وإنما هو مَـنْ لا يُجهِد نفسه، ولا يدفع بطاقاته العديدة الى حدودها القصوى».

وبانشراح بَيِّن، أكمل، ذلك اليوم: «والجزء الذي لا يستخدمه الكائن من طاقاته الكثيرة يعتبر قوة مهدورة لا يخسرها هو، وحده، فحسب، بل الانسانية جَمْعاء»؟

«لا تنْسَ ذلك، ابداً»؟ أضاف، وهو يتفجَّر زهواً.

كيف أتوقف في منتصف الطريق، إذن؟؟

أتوقف؟ أيّ نكران للجميل سيكون في وقفة مثل هذه؟ ولكن، من اين ينبع هذا الانهاك الغامر الذي يطوّقني، وكيف لي بمقاومته؟ كدت اجلس في جذع الشجرة العالية التي تظلل الطريق، لكن النسمة الباردة التي لسعتني، وقد وصلتْ، تَوّاً، من أعالي الجبال، هي التي جعلتني أحثّ السير، برغم قدميَّ المنهكتين.

أتوقّف؟ وأنا سأشرب، بعد قليل، شاياً أحمر ثخين المذاق. واقعد في الكرسي المرمي على اطراف مقاعدهم. وأتشَوَّف الخلق وكأني على بصيرة منهم. لا؟ صرت احثُّ نفسي التي كانت، مثل حمار العَليق وقد حان أوان إطعامه، محثوثَة اصلاً!

آلمني كثيراً إنني كنتُ، مثل أي كائن بائس آخر لا يحسن استخدام طاقته، أُضيِّع جهدي في استعمال عبارات مستهلكة وشديدة الابتذال (مثل قبل فوات الاوان.. و..) لكن تلك العبارات لم تكن، دوماً، جهداً ضائعاً بالنسبة لي، وانا الذي ما عدتُ اعرف حتى ذكرياتي؟ وهي، في النهاية، كانت تعني لي الجلسة والشاي والاكل (حتى ولو كان من حثالاتهم) والاصغاء الى من نحب (او من نعتقد اننا نحبهم) وهو امر شديد الاهمية (عندي)؟ «فليس ثمة منطقة محايدة في النفس، كما قال ابن الوراق، ولا في الفكر اوالحياة. وهو ما يبرر تطرّف الكائن، و(حتى) عدائيته لكي يحافظ على من يحب».

وكأنما راقت له دهشتي المتزايدة لسماعه، ذلك اليوم، تابع بتبَهْور: «لكن الحماقة هي التي تقود خُطى الناس»! وقبل ان يتمادى في تحليلاته التي كنت اخشى ألاّ تنتهي تساءلت متهيِّباً: ولكن لِمَ هم كذلك؟ (وكنت اقصد رَبْعي). وكأنه كان يتتَبَّعُ اسئلتي وهي تتخلّق في افكاري، قال متدفّقاً بلا عناء: «هم كذلك لانهم يريدون مصادرة كل شيء؟ حتى التاريخ العام صاروا يريدون جعله تاريخاً خاصاً بهم»؟

وبعد ان أراح هامته الملساء الصغيرة على كفّه قليلاً، اكمل: «وتلك هي أولى خصائص الطغاة، أولئك، الذين يريدون التَحَكّم بالحياة؟ والذين يصرّون، اضاف، على توحيد، لا التاريخ فحسب، وإنما الحياة ايضاً، وهي قائمة على

التعدد والاختلاف». وبإلحاح سافر نظر في قلبي وهو يسألني مستريباً: فهمتَ؟

كدت اضحك لانني سمعت هذا عشرات المرات من قبل، ولانني توقعته ان يقول «الاختلاق» بدلا من الاختلاف. إلاّ انه، مرة اخرى، خيَّب ظنّي؟

وكأنني لم أكن ملتصقا بكلماته التي كانت تتساقط مثل التوت البري فوق رأسي، تابع بصوت قارع: «وما يؤكد حماقتهم العظمى هو انهم يريدون (ايضاً) تصفية الحياة من شوائبها؟ والحياة بحاجة الى الصالح والطالح، الى العدو والصديق (والعدو قبل الصديق اقول) الى الكاذب والصادق، فالحياة لا تستقيم دون متناقضاتها».

وفجأة، استدار ليقابلني وجها لوجه وكأنه يريد ان يتأكد من وجودي الفعلي (الذي صرت انا أشكُّ فيه) قبل ان يقول بيقين واصرار: «وكلما كانَ عكَر الحياة شديداً، كان صفاؤها محتَمَلاً اكثر». وبعد ان تنفس بهدوء وعمق وكأنه تخلّص، اخيرا، من ثقل افكاره الذي لا يحتمل، قال بيأس واضح: «لكن اكثر الناس لا يفقهون»؟

ودون ان يبتعد عن ساحةافكاره التي بدأتُ أنزلق فوقها، سمعته يتمتم، والشك يملؤه حول ما فهمت من كلامه وما لم افهم: «انت لم تقرأ ماركس، ولا المؤلفين النقديين العظام، رغم إلحاحي المزمن عليك. وأشك انك ادركت شيئا مما قلته لك. ومع ذلك، كان عَلَـيَّ أن أقوله. أن أقول لكَ كل شيء. كل شيءاعرفه. وإلاّ لما كان للعرف الثوري معنى».

[٢]

اضواء الشارع التي أُضيئت، فجأة، حقنتني ببطاقة جديدة على المشي وعلى الاستيعاب رغم تأنيبه اللعين. صرت اقطع المسافات بين الاشجار العظمى المنتشرة في شارع «بيروت» الطويل بتسارع متزايد. ولبرهة من الوقت، احسست انني نسيت جوعي، وصار فمي الناشف اكثر رَطَباً. لكأن نسيم الغروب الدمشقي قد وُجِد من اجل ترطيبي؟ نسيم المساءات الهادئة المليئة

بالبِشْـر والُغنوجَة. بفعل ذلك النسيم المنحدر من اعالي قمم السلسة الغربية بدأ جوفي المحروق يتنَشَّق الريح باحثاً فيها عن مزايا الرِفْقة والطُيوب؟ جوف الكائن الذي نسي انه جاء الى الدنيا ليكون سعيداً ايضاً، لا تعيساً فحسب!

كنت قد بدأت اسأم من عالم دمشق السكوني .عالم المدينة التي احببتها، حتى قبل ان اعرف عنها، ومنها، شيئاً؟ أولَيس هذا هو الحب المختلط باللوْثَة والانسحاق؟

كنت أتقاطع فيها، منذ سنين، مع أُناس اعرفهم، وآخرين لا اعرف عنهم شيئاً رغم عِشْرَتي الطويلة لهم؟ وكان ذلك يثير حيرتي، واضطرابي، انا الرجل القادم من «بادية الشام». ولكن اي جدوى من اضطراب يظل في مكانه، ولا ينقل الكائن من حال الى حال؟

لا، لم أكن أُدرِك، بعد، ان أهميّة الحياة لا تُقاس بحسن النيّة البليد، ولا بالصدق «الكاذب» الذي تحفل به، وإنما بالافعال «المثيرة» للذات: لذات الكائن الذي وَعى، وعياً حقيقياً، أهميّة وجوده، والغاية من هذا الوجود؟ «وليس الغاية من الوجود إرضاء بقية الناس» كما كان «ابن الوراق» يردد بحق.

كنت قد بدأت أحسُّ بصبري يهترىء (حتى لا اقول شيئا آخر) «ولكن ليس في اليد حيلة» كما كانَ علِيّ يهدّيء من روْعي، عندما يشعر بانني على حافة الانهيار. كان يبدو لي (وبيقين لا يدحض) انني سأترك دمشق صَدْمَة، كما أتيتها صدْفَة؟ «ولكن من يعرف كيف ستسير الأمور، والحياة جدل وغيور» على حد قوله!

كنت اقضي اكثر الايام ماشياً في الطرقات. عمّا كنت ابحث؟ وعمَّن؟ لا لم يكن يقع في العين سوى النساء؟ النساء اللواتي لا يبرزن الا نواحيهنَّ اللَّدِنَة؟ تلك النواحي المثيرة للخوف: لخوف الكائن من اشتعال أحاسيس جسده التائق اليهنَّ.

كانت دمشق بالنسبة لي: «مدينة النساء»؟ نساءجميلات، باجساد مليئة، وعيون أخّاذة، حيثما سرت. نساء يملأن الشرفات والطرقات ولا اعرف أيّا منهنّ؟ نساء لا يتورعن عن جرّي الى مخادعهنَّ، دون أن يبقى بين يديَّ منهنَّ شيئا سوى

الروْح.

ما كان بامكاني ان افعل، آنذاك، غير ان أتأمل الاشجار؟ (والتأمّل تَحَمُّل؟ كما كان يقول). أشجار المساء العالية وهي تعطي نفسها، متأوِّهَة، للريح. للريح المبلولة من الغيظ، حيث تختلط تأوهاتها بآهات الذات المنبثقة من الاعماق كالَحمْض المنبثق من عمل مُحرّم؟

دمشق، مثلي، َتلْبُدُ نهاراً، ومساء تحيا. أيّ شيء يجعل تلك المدينة الممتلئة بالبشر تَخْتُلُ مثل اللصوص قبل ان تغرب الشمس؟ كنت أتصوّران سبب ذلك هو النَهَم، وكنت اكتفي بتصوري البائس هذا دون ان اتحقق منه. وهل كان بامكاني ان اتحقق من شيء حتى ولو كان «مرمياً على قارعة الطريق»؟ بلى! فالدمشقيون يحبون الطعام. ويحبون اكثر ملء بطونهم به. وانا أيّ شيء أحب؟ كدت اضحك من حالي: كيف اسأل نفسي سؤالا بليداً كهذا وانا اتجه في حماس الى مقهاي المفضل؟

وفجأة، وجدتني اغمض عينَيّ وأسير. اغمضهما لئلا اسمع مما يحيط بي شيئاً. كنت اريد ان استريح. ان استريح من الضجيج. الضجيج الذي سيعود، دون إذن مني، إليّ، مالئاً رأسي الفارغة به؟ لكأنني كنت منذوراً لتلَقّي نصائح العالم، كلها، انا الرجل الذي لا حول لي؟ وأتعجّب: لِمَ «نذرتُ» نفسي لـ«سمْعاً وطاعة» وأنا لا امقت شيئاً اكثر منهما؟ وكيف لم يخطر لي انني لن أظل عاجزاً حتى ولو لم ادرك ما يريدونني ان ادركه (ولِمَ عَلَيّ ان ادركه اصلاً؟ أولَيس من اجل ان اكون عنصراً مستوعباً بامتياز)؟ ولِمَ كان يصر هو، هو بالخصوص، على تكرار المَقاوِل والأحاديث حتى بعد ان صار ذلك التكرار عبئاً على كلينا؟

كنت احسب أنه يرتاح إليّ. وكنت اعتقد ان سبب ذلك يعود الى انه يرى فيّ نوعامن الحليف.من الحليف «الأليف». ولم أكن، في الحقيقة، إلاّ حليفاً لنفسي. لنفسي فقط. لكن صمتي المتواطيء، و«حسن إصغائي» جعلاه ينخدع، إنْ كان ثمّة خدعة في الأمر.

كان احساسي الصاعق والعميق (مَنْ حَقَنني به؟) بتضاؤلي، وبمسئوليتي

الوهمية عن حماقات كثيرة لم ارتكبها، يجعل مني ضحية بائسة تستميل اليها الآخرين. تستميلهم بسهولة كبيرة. وكان ذلك السلوك المثير للشفقة، يقدِّم لي تبريراً ذاتيّاً (وإنْ كان مريراً) للانصياع، والقبول بكثير من الامور التي توجع نفسي.

كنت، ببساطة، كائناً مَقْلوباً؟ حتى الصمت القسري، الذي كنت احسبه عاملا من عوامل ضعفي، اكتشفت، اخيراً، انه كان القوة الوحيدة في تكويني. لا، لمْ أكن أُدرك، من قبل، أهميّة أن يلتقي الكائن بكائن آخر يستطيع أن يتحدّثَ بحرية أمامه؟ بحرية، حتى ولو لمْ يقل شيئا ذا أهمية.وبالخصوص عندما تكون تلك هي حاله.

كنت احسب ان كل ما يحيط بي يحطُّ من قَدْري. ولم اكن اعرف ان القَدْر ينبع من الذات، ولا يتَلَبّسها من خارج، كالثوب. أية حماقة كانت تركبني آنذاك؟ وفي أي إعتبار كانَ علَيَّ أن أضع كلماتَ علِي الرقيقة، عندما كان يقول لي: «انت رجل لا يقدر بثمن»! وكنت أراني خليقاً بأن أُرمى في الطريق كأيّ نافلة في الحياة؟ لا،لم يكن يخطر لي عندما كان يردد على مسامعي: انت رجل – نعمة، إلا إيحاؤه المستتر للنيل من عثمان، الذي كان يسميه: الرجل – النقمة.

كنت احسبه يهزأ مني، وكنت، بدوري، اهزأ من نفسي. وكان ذلك (كما كنت أحس) يساعدني على ان أُزيح عن ظهري حملاً ثقيلاً لا طاقة لي به! ولذا، ربما، قذفت بنفسي على اول مقعد صادفته في ساحة أُمَيّة الشاسعة، ذلك المساء، وجلست استريح (هممتُ ان اجلس بالاحرى).

وفجأة، َقوّمَني الصوت: ُقمْ؟ كان حارس «الاركان» قد توقف فوق رأسي شاهراً سلاحه، وهو يأمرني بإخلاء المكان الخالي على الفور. لكأني حشرة لَوَّثت المكان وأنحاءه؟

لا،لمْ يكن في عينيه موضع للحوار. ولا في قلبه نقطة من الفهم. رجل – كتلة؟ كتلة من سلاح أبلَه. رجل فظّ، غليظ القلب، كيف لا أنفضُّ من حوله؟ وبأسرع من البرق.

اردت ان اقول له انني سأمشي، حالاً. سأمشي حالما اقوى على السَيْـر. إلا إنه بدا وكأنه لا يفهم اللغة التي أكلمه بها. ماذا افعل غير ان اشرح له الامر بالإشارات؟ لكنه أعاد عليّ امره قبل أن أبدأ حركاتي العُصابية. أعاده بتهديد لم يدع لي مجالا للاسترسال في تهويمات فكري الذي أصابه العَطب؟

ووجدتني، ابتعد، برغم تخاذل جسدي الذي هدّه التعب والجوع. ابتعد فعلاً. ابتعد اكثر فاكثر وانا احمل في نفسي المكان الذي طُرِدتُ منه (وكأنني انطردتُ من القاع، كلها) «لكأن العنف هو المصدر الاول للعاطفة »؟ على حد قوله. ولم يكن في ذلك إلاّ على حق.

وسريعاً جاوزتها. ظلَّتْ هناك، وصرتُ أنا هنا. ظلَّتْ في الجهة الاخرى من ذلك الشارع المشجّر الجميل الذي يلج دمشق من الغرب. شارع الاركان صار اسمه. يتصدّرها تمثال «يوسف العَظْمَـة» الشهير، متفلّتاً، شاهراً سيفه يكاد ان يترك قاعدته لِلّحاق بفلول الفرنسيين الذين هزمهم في «ميْسَلون»، كما علمونا!

كان الفضاء المحيط بها، كله، ملغوماً. كان مسكوناً بعنف أحسه، وأراه، ولا اقوى على الانفلات منه؟ لكأنه مسدد إليّ. اليّ انا. انا الذي كنت جائعاً وأعزل؟ حتى الاشجار المحيطة بها كانت تستعدُّ للانقضاض عَلَيَّ، كما كان مكتوباً على الغيم المحلّق فوقها، باستمرار!

كنت ابتعد وانا أُكلِّم نفسي. أكلمها بصوت عال لأشجعها على متابعة السير حتى النهاية. كنت اخاف الردّة والسقوط! السقوط على قارعة الطريق. وما كان لدي من سلاح سوى الصوت. سوى الشطط والكلام. كلام لم يكن يصدر عني كما احسست، في تلك اللحظات المربكة، وإنما عن السَغَب الشاغل للذات؟ ماذا يمكن للكائن ان يقول عندما لا يتمتّع بطاقة عقله الكلية، عندما يتقاسمه الخوف والجوع، سوى الهراء؟

سائراً باعياء، كنتُ استحثُّ آخر القوِى الكامنة في اعماقي لمقاومة الموت؟ كنت احكي بصوت عال، في ذلك المساء الممتليء بالإصابات. ماذا كنت اقول: اريد ان أصير، منذ الآن، كائنا آخر؟ هذا ما كنت اقوله لنفسي التي اشتعلت

بشوق خفي، فجأة. وكنت أُؤكد: الكائن الذي احببت، دوماً، ان اكونه؟ وكنت اوضِّح، لحالي مشاغلي وابتهالاتي: وان اكونه جهراً،لا سرّاً، كما تعوّدْتُ أن أتعايش مع أوهامي، حتى الآن؟

كنت أحسنني مصراً على موقفي الجديد، هذا، في الحياة. في حياة لم اكن قمينا بتغييرها، بعد. ولكن من هو هذا الكائن الذي أردت أن أتقَمَّصه؟ وكيف لي ان اعثر عليه؟ صرتُ اتساءل، وكأنه صار في مرمى البصر والذات.

ذلك المساء، كدت ابكي من النشوة؟ من نشوة غامضة تلبَّستْني، فجأة، مثل كفن الميّت، قُبيل الدفن؟ كنت اعرف انني أخبِّيء في ذاتي الظاهرة ذاتاً أُخرى. لكن العثور على تلك الذات الخَبيئة، ليس في متناول المرء، دوماً. واكتشافها الذي لم أذق طعمه، بعد، يشبه الولادة من جديد؟ إنْ لمْ يكن هو الولادة الحقيقة للكائن، على حد قوله (ولكن أنّى لي ان أولد، وهأنذا اريد أن أموت)؟

بلى! ذلك المساء، كدت ابكي، وانا أتقاوم متهالكاً. سلاحه المسدد بهمجية نحوي، جعلني أتخلّى عن تلك المحاولة المميتة، فوراً: محاولة التشبّث بالمكان.

لقد أمدَّني بطاقة لم اكن أتوقع ان كياني الهالك مازال قادراًعلى التمتّع بها. «طاقة» أمدّتْني، بدورها،بقوة غريبة على الحركة وعلى الابتعاد. الابتعاد عنه، وعن المكان الذي يقف فيه.

ولَكَمْ أثارت تلك القوة المفاجئة عجبي الشديد، مع إنني لمْ أكن قد نسيت، بعد، شُروحات «ابن الوراق» حول هذه النقطة بالذات، وهو يقول متحمساً: «قوة الخوف العظيمة (كما كان يسميها) هي آخر قوة، أو هي القوة الأخيرة (أكّد) التي يمكن للكائن أن يعتمد عليها عندما يتردّى الى مرتبة الحيوان»! والذي أضاف، بعد ان تأمل وجهي الأسحم الصَفير: «وهي قوة أساسية من قوى الثورة المنتظرة عندما يصبح القمع معمماً، ويهدد الطغيان وجود الناس»؟

[٣]

كان بكر يسحبنا خلفه كالقاطرة، ذلك اليوم. لم يكن يعبأ بحرارة النهار التي بدأت تتجه نحو الحريق. كان الُضحى الدمشقي قد َولّى منذ قليل، ُضحى يومٍ محمّل بآلاف الأعباء والاحتمالات. كانت ُنقط العرق الأولى قد بدأت تغزو الجباه والابدان. وأخذت الألبسة تنعم برطوبة الاجساد الكَضّة. اجساد تَتَفَلَّتُ (كما كنت احسها) كالافراس المَعْنونة قبل الذهاب إلى الِطراد. وكان ذلك الاحساس، وحده، كافياً ليلهب مشاعري الملجومة منذ سنين.

كانت ارداف النسوة تتقلقل في الاسواق التي زرناها، ماشيةُ َغنْجاً، باعثة في نفوس الناظرين إليها اشواقاً عظمى. اشواق لا تطفئها إلاّ اللقاءات السرية المنذورة للريح. لقاءات تتم خلف الاعمدة والجدران، احياناً. وفي كنف الأتربة والمسامير، احياناً اخرى. لقاءات تتمّ بأُنْبَة وحذر، وإن كانت مملوءة بالرَعَش والشوق. في هُنَيْهاتها تلطأ النسوة، منذ ان تجد ملجأ، مثل أفراس «الجزيرة» الحانية في الربيع. وتنفرج الافخاذ السمينة،فيها، مثل ُحزوز الشوندر الحُمْصي: حمراء. ليّنة. وبها ُلهاث؟

تنفرج ليحوزها الثالوث بضفتيه. وتنتصب الاعمدة بين جنباتها بشغف لا تُخْمِده إلا سيولة القيظ.

كانت الاسواق هي الفضاء المناسب لإلتقاء الارواح والاجساد. فيها تتوالد السيولات والافكار. ومن ختلاتها تنبثق الرغائب والأغايير. بين أحابيلها تتلاقى العيون، وتتلامس الاعضاء. وفي فضائها يسيل الوقت كما الماء المنهمر من الغيم. لم أكن افهم، يومها، إصرار النسوة على الدوران في أنحائها، وزواياها. ولكن، َمنْ يمكنه ان يفهم غير َمنْ َفهِم الامر من قبل؟ وكيف يفهم َمنْ لمْ يمارس في حياته َقدّاً؟

ذلك اليوم، توقف بكر في مكانه، فجأة؟ توقف وهو ينظر حوله شزراً، قبل ان يقول باستنكار:

– مررنا باسواق دمشق، كلها، ولم نمر «بسوق العرب» عجباً يا عمر؟

قال ذلك متشاهلاً، ناظراً بتوجّس الى الناس المحيطين به، وهو يكاد ان يتفجّر من الكيد. ولأول مرة، بدا لي مشغول البال وهو يتطلّع حوله بحيطة وامتعاض. لكأن قبوله زيارة الاسواق َحمَّل عمر مِنَّة، ووضعه في وضع عليه ان يكون فيه بلا مثالب أو هنّات؟

لكن عمر، وقد كاد أن يُؤخَذ بالسؤال الذي لم يكن إلاّ يتوقعه (إذْ لا بد وان الفكرة قد راودتْه، من قبل) بدا عليه اضطراب خفي (وهو الذي لا يضطرب إلاّ نادرا)، دون ان يقول شيئاً، مع انه تهيّأ ليقوله. لكأنه كان يعرف ان بكرا يعرف الجواب الذي يبحث عنه، لكنه يريده ان يسيل من فمه، امام الملأ، وعلى الفور.

وبعد فترة من الانصات العميق الى الذات، وكأنه أعاد تركيبها بعد تفكيكها، بعد إن قام بنقد سريع لها، وهو "نقد غير ناجع، إنْ لم يكن فاجعاً"، على حد قول «ابن الوراق» اللئيم، قال عمر بهدوء شديد (وكأنه يخبر عن ميت دُفِن قبل سنوات):

– لا سوق لهم فيها، يا بكر.

– دمشق وليس للعرب فيها سوق، يا عمر؟

قال بكر بغيظ لا يخفى، هذه المرة. وكأنه بأعلان غيظه الأخلاقي، هذا، قد أزاح عن نفسه عبء هنّة تكاد ان تقارب الخطيئة التي لا تغتفر. وبعد ان تنفّس عميقاً، مستنجداً بالهواء اللابِد في رئتيه (لئلاّ يموت كمَداً) قال بحدة غير معهودة منه:

– فيها سوق البيض، وسوق التبن، وسوق البزر وسوق القمل، و سوق النعل، وسوق الخيط، وسوق الصَيْغ، وليس للعرب فيها سوق، ياعمر؟

كرر السؤال مرتين، وكأنه أراد أن يبرهن بذلك على نقائه حيال امر لم يكن إلاّ ضالعاً فيه (كما كان علي يردد، هامساً).

لم يجد عمر رداً مناسباً، كما بدا لي (وإن لمْ أكن حجة في التقدير) لأنه انشغل (شاغل نفسه بالاحرى) بالنظر الى لمعان الشمس الدمشقية التي أخذت تنصب فخاخها للعيان. كانت عيون الخلق المتزاحمين في الاسواق تنجذب، عفواً، نحو

نورها، يومذاك: نور اصفر، وَهّاب، يَسّاقط عليهم من عَلٍ كذراري الذهب المسفوحة في الريح؟ له ابتهج الناس، جميعاً، إلاّ بكر. إلاّ بكر الذي ظلّ كاظماً غيظه، كالحصان.

بدا بكر وكأنه اكتأب (بالفعل) كثيراً، لسؤاله الذي ظلَّ بلا جواب. بلا جواب حقيقي. «وكل مالا ينعش النفس يدميها»؟ كما كان «ابن الوراق» يقول. سؤاله الذي كان يعرف الجواب عليه سلفاً (ولا بد).جواب الآخرين، الذي لم يكن، في الحقيقة، إلاّ جوابه الأساسي الذي حقنهم به من قبل. ولذا، ربما، أصرَّ على طرح السؤال أكثر من مرة وكأنه بأعادة طرحه يتهرّب من سما ع الجواب عليه. الجواب الذي لم يعد يرغب فيه بعد ان قام بجهد كبير من اجل ترسيخه في العقول، على حد زعم ابن الوراق العليم بالخفايا؟

ولكن، لِمَ كان يَتَلاطَمُ مثل بحر فَقَدَ شطآنه، ذلك اليوم، بكر؟ ولِمَ كان يتلعثم في مشيه وكأنه يبحث عن شيء لم نكن نعرفه، او لا يريدنا ان نعرف عنه، ومنه، شيئاً. ووجدتني اريد أن انحني لأُلامس الارض التي كان يمشي فوقها علّها تنبئني عما يريد. لكن الارض الموطوءة كانت زائفة وصمّاء.

ارض طلاها الزفت الاسود، وعَلاها الصدأ، حتى امتلأت اعماقها كَمَداً. ارض تنكّرت لحالها، كيف لا تتنكّر لي؟ ومَنْ أنا لأستجوِب الارض التي انمنعت حتى من الارتكاء عليها؟

ماذا بقي لي، إذن، غير ان انقل ما أرى؟ «والرؤية محدودة، اما الاحساس فواسع» على حد قوله.

خفّف وهجَ الشمس الكاوية، ذلك اليوم، سُقوفُ اسواق دمشق العريقة، وزواياها. سقوف من الخشب والقنّب والتوتياء والرقع والقشور. ومع ذلك، كانت كافية لحماية الخلق من عنجهية الشمس، ومن غطرستها التي لا تحتمل. من نوافذ تلك السقوف البلاستيكية العليا، كان الضوء ينهمر مثل مطر بلا ماء. ينهمر، بلا اعتبار، على الوجوه التي لم تكن لتكف عن الكلام. ماذا كانت تقول تلك الوجوه المتطلعة بحذر الى المجهول؟ الى كوكبة من الرجال القادمين مع

الاحشاء؟

على تلك الوجوه، كنت أرى الامتعاضات السرية تتلاقح مع اليأس والاستياء، ولكن بصمت. بصمت عميق يكاد ان يقارب الانصياع. كانت البشاشة الدمشقية العريقة، هي الاخرى، مثل الكذب المصاحب لها، تملأ الفضاء. تملؤه وتغريه. بشاشة التاريخ الذي فقد مبررات وجوده التاريخية: تاريخ مغطّى بجبال من العلامات والابتهالات. تاريخ محشو بالتفاهة والابتذال، عماده الكذب والتزوير، واساسه التنازل والتبرير؟

وسط ضجيج دمشق الأصَمّ والعميق، ذاك، قَرَّب بكر وجهه، فجأة، من الماء. من الماء الساقط من صنبور اصفر عتيق. وبالماء المُذاب غسل جبهته وأنحاءه، وهو يتمتم بكلمات لم نسمع منها شيئاً. لكأنه اراد ان يتخلّص من هواجس الحر اللاهب بماء الفيجة الفضّية.

كان يتأمل الماء بنوع من الغبطة قبل ان يبددها فوق هامته مستمتعاً. ومثله، فعلنا صامتين، إلاّ عثمان الذي اسرف في استخدام الماء صائتاً. وهو ما حدا بالرجل الصغير الجاثم بالقرب من الصنبور لأن يقول له بتوبيخ ظاهر: «لا تسرف في تبذير الماء، يا أخي»! والذي اضاف دون اهتمام بمن يكلمه: «ومنْ يسرف في المَبْذول، يسرف في المأمول».

استوى عثمان جاحداً وهو يحدّق في وجه الرجل الضئيل الشاحب، وهَمَّ أن يرد بصلَف عليه. إلاّ ان عمر الذي التقط احساس عثمان العدائي الصارخ، أوقفه قبل ان يعبره الى الرجل المسكين، إذْ تدخل سائلاً بحسم:

– ألا نزور الاسواق الاخرى، يا بكر؟

وكأن سؤاله القاطع كان دعوة لعثمان ليسدّ فمه الذي انفتح على أشدّه، سرعان ما انغلق ذلك الفم على الصوت المندفن في الاعماق. انغلق وهو يتحيّن الفرص ليثأر، كما توقعت صامتاً في قلبي. وأكّد لي ما فكرت به صوت علي وهو يهمس في أذني، قائلاً: «لا يستقوي إلاّ على الضعيف»! وبعد ان اطمأن إلى انني استوعبت ماقال (ولم يكن ذلك صعباً) أضاف: «وتلك، هي، شيمة اللؤماء».

افتعلت حركة صغيرة شغلتني، كذباً، عما سمعت. افتعلتها لأن عثمان في اللحظة، نفسها ،كان يلتصق بأذني، وكأنه يريد ان يسلب منها ما سمعته. اما علي فقد كان يحاول المرور بصعوبة للحاق ببكر وعمر وقد ابتعدا.

كانت حشود الناس (وكأنهم علموا بزيارتنا المفاجئة) تسد الأزقة الضيقة، وتخنق الطرقات. ومما زاد في العَرْكَة حرارة ذلك النهار الحزيراني القاحل الذي امتلأ بشراً وضجيجاً. ولما رأى عثمان تماهل علي وخيبته الطُرُقية، صار يشقّ حشود البشر بهمة ووقاحة وهو يقودنا اليهما، بانفعال.

كانت العيون الملتهبة، عيون اهل الدكاكين وزبائنهم، وعيون المارة والسادرين، وعيون من جاؤوا من الاطراف والحواف، تحيط بنا من كل صوب. تحيط بنا، وتحطُّ، كالأبر الوَخّازة، علينا. لكأن العيون تفضح ما يعتمل في النفوس. ووجدتني اتعجب، وانا اتابع كَثْرَة الناس والاغراض. لم اكن احسب ان الشام يحوي هذا القدر الكبير من الحاجات والاشياء والبشر؟ هذا القدر الفائض عن الحاجة. «عن حاجة اهل الحاجة» كما يحضُّ «ابن الوراق» مستاء، بانتظار الثورة "الحقيقية" التي ستقوِّم كل اعوِجاج، كما كان يقول (وكأن الثورة اصبحت ديناً جديداً لا غني عنه)؟ ولكن اية ثورة يعني؟ صرت أتساءل في حر ذلك النهار الآيب الى الحريق.

عندما لحقنا بهم كان بكر يتكلم بهدوء، وكأنه يخاطب احداً في قَعْدَته، ولم يكن ثمة إلا عمر. كان يقول بمكر وتأنّ: «إذا احببتَ الناس أحبوك». وعندما صرنا في مجال السمع أعاد الجملة بتواطؤ ملحوظ، وهو يتطلّع الى عثمان من طرف خفي.

لكأنه كان يريد منه ان يتفهّم شئون الناس وضغونهم، وبخاصة أهل العَوْزَة والفقر منهم. ولا بد ان عثمان استشف مذاق الاستياء المطلي بالتودد في كلمات بكر، لانه قال، بشكل باغت الجميع، وكأنه لا يهدف من كلامه إلا إرضاء بكر:

– لم لا نسمي السوق الكبير «سوق العرب»؟

قال ذلك متوجهاً بالسؤال الى عمر حتى يترك الفرصة لبكر ليجيب إنْ رغب في ذلك (كما لاحظ من بعد علي).

– سوق الحميدية؟؟ ردَّ عمر مأخوذاً وبه فيض من الابتهال.

وقبل ان يضيف ما امتلأت به نفسه وعجز عنه لسانه، سابقه الى القول عثمان:

– إن إرتأى بكر ذلك؟

قال متعجِّلاً وكأنه اراد ان يقطع الطريق، نهائيا، امام ارتكاسات عمر، ويُبَذِّل انفعالات علي التي كانت على الابواب (وهو العليم بذلك).

بدا بكر وكأنه يقلِّب الامر على وجوهه العديدة. وجوه الخطأ ووجوه الصواب (فلكل صواب خطأ يصاحبه باستمرار، كما يقول ابن الوراق).

ومع ان تدخل عثمان وابتساره فضحا اهواءه ونواياه إلا ان ذلك لم يثر عجب احد غيري. وكان علي هو الذي تدخل، هذه المرة، وكأنه التقى، اخيراً، بدوره الصحيح في حركة التاريخ التي لا تكفُّ عن التبدل والاضطراب. فقال بترو وصدق:

– لهذه السوق مآثرها ومسائرها. وهي، كالكائن، لا تساوي شيئاً بدون تاريخها الشخصي الخاص بها. واسمها جزء من هذا التاريخ ومن مزاياه.

وبعد ان تنفس قليلا، اضاف:

– وتبديل اسمها، بغتة، وبشكل استفزازي، سيكون له من المساويء اكثر مما سيكون له من حسنات.

– وإذن؟

قال عثمان بنوع من التحدي الذي بدا لي مجانياً قبل ان يضيف، متسائلاً، بوقاحة:

– انت لاتريدنا ان نفعل ذلك رأفة بالعامة أم خشية منها؟

وبدون ان ينتظر الجواب تابع:

– وأيّاً كان الامر فانا لا ارى في ذلك إلاّ ضرباً من المداهنة التي لا تحتمل.

وبعد ان هدْهدَ نفسه التي بدأت تفيض بكلماته الملتهبة، اضاف:

– إنني لأخشى أن نكون مضطرين، ذات يوم، إذا ما تابعنا تنازلاتنا، هذه، أن

نكون مضطرين (أعاد الجملة، من جديد) إلى طلب السماح من الناس لكي نتنفس؟ قال ذلك وهو يهزُّ رأسه بيأس حانق يقارب الصهيل.

ورأيت علياً يَلُمُّ اطرافه إلى نفسه بانفعال عميق قبل ان يجيب. قبل ان يجيب، هذه المرة، بهدوء وكأنه أراد أن يرطِّب الجو وقد بدأ يشتعل ذُبالات. وهذه المرة، احسسته يفعل ذلك لغرض لم ادرك منه شيئاً.

أتراه اراد ان يتجنب الوقت المهدور في الثرثرة التي لا تنجب الا السوء؟ كما كان يؤكد من آن لآخر. ام تراه اراد ان يبتعد عن موقع قدميه وقد حسِبَ انهما ضلتا الطريق، أو كادتا؟ طريق الحكمة التي لا يمكن ان تؤسس على الحساسية الزائدة، ولا ان تنمو على العَدْوَة والبغضاء. لكأنه كان يجهل "ان الحياة لا تستوي، احيانا، بلا سوء. بلا سوء لا يمحى". كما كان «ابن الوراق» يقول. ماذا قال علي؟

– الاسواق كالناس (كرر المقولة ذاتها)، واضاف: تحيا وتموت. وقبل ان تموت تمر بمرحلة زهو وشباب، ومن بعد احتضار فاندثار.

وفكر قليلاً وكأنه تورط في مداخلة عقيمة وبلا جدوى، قبل ان يتابع:

– تغيير اسم المكان لا يغيّر من شروط الناس العاملين فيه شيئاً، مع انه قد يغيّر عواطفهم نحو ذلك المكان. وإضافة اسم جديد لا خير فيه إنْ لمْ تفرضه أوضاع جديدة.

ورأيت وجه بكر يتهلل، لكأنه يريد ان يضحك، وهو يبكي. كان سرور غامض يمتزج فوق قسماته باستياء لا يُخفى. استياء لا مجال لإزاحته عن تلك القسمات.

وكان عمر هو الذي قال، بتردد (وكأنه كان مرغماً على القول):

– صدقت يا علي؟

وفجأة، قام بكر ومشى. مشى بعد ان بدا وكأنه سيظل قاعداً الى الابد. مشى متجهِّماً وحبيساً. خلفه صرنانتدحرج مثل فُروخ القطا في الحماد. كان يمدُّ خطواته فوق ارض السوق، زائحاً افواج البشر المُلْتَمِّين حوله بضراعة، كما يزيح السيل أكوام القش عن مَسيله.

ووجدتني أتساءل، بغباء: من اين يستمد الحق في فعل ذلك؟ وإلى أي مدى يمكن له ان يتمادى في سلوكه ونواياه؟ وقبل ان استمر في بلاهاتي، رأيت عثمان يستدير نافراًوهو يَتَكَرْكَم: «يستنكرون اقوالي وانا لا زلتُ حيّاً بينهم»! ولست ادري اية اقوال يعني (وهل لي ان ادري شيئا، آنذاك)؟ كنت ارى أساور الغضب تحيط بمعاقل نفسه التي بدأت تتفالتُ في ذلك الضحى الرَعيب. وحاولت ان ألُمّ بشيء مما اسمع، ولكن دون جدوى. فلسانه الذي انفكّ عقاله، فجأة، لم يدع لي سانحة للفهم ولا للمثول. ولاول مرة احسسته يتطابق مع اهوائه ونزعاته العدوانية الحبيسة. يتوَحَّد، امام عيني، مع ذاته، وهو ما أرعبني كثيراً، ذلك اليوم.

كانت كلماته تتناثر حولي كما تتناثر حبوب الجزيرة في الحصاد. كلمات احسستها تتشاجر، هي الاخرى. وفجأة، اهتزّت الارض تحته وهو يخبطها بعنف قائلاً: «لئن استنكروا اقوالي فانهم لن ينكروا افعالي»؟ ولكن عن اية افعال كان يحكي؟ وكيف لي ان استدبر ما استقبلته من قبل؟

أيكون «تحقيق الذات» (ولا اقول شيئاً آخر) هو هذه «الفعلة البسيطة» فقط؟ فعلة ان نكون مخلصين لاهوائنا! وفي مثل هذه الحال، هل ستكون هي وسيلة خلاصنا الممكن مما اخلصنا له النفوس بغباء، واسلمنا له العقول ببلاهة؟ كما كان يقول. ام ان للامر أبعاداً أخرى؟

[٤]

بعد ان اجتزنا «سوق ساروجَةْ» توقف بكر في مكانه، وكأنه تلقّى امراً سرياً من علٍ. في تلك البقعة الصلدة بين السَرْو والتَرائب، حَرَنَ، فجأة، وهو يتناظر مع البشر والطرقات. كان ثمة امر يشغله (كما بدا لي) ولم يكن يريد ان يفصح عنه لأحد منا. لكأن الحياة التي اعطته كل شيء: الجاه، والسؤدد، والعقل الراجح، والمهابة، أخذت منه كل شيء، ايضاً: اخذت منه «حبة السعادة» التي بدونها تغدو الحياة كومة من قش! من قش يابس بلامُروج.

ولا بد ان عثمان وجد في تلك الوقفة فرصة للتملّق والاستذواق، إذ قال

متوجها بالخطاب الى عمر (قاصداً بكرا): «احسنت صنعاً، فالراحة ام السرور». قال ذلك وهو يتطلّع الى الناس الذين كانوا يتدفقون من حولنا كحصى القا ع. قا ع الحَماد السابح في الريح.

وفوراً، قدَّم لنا احد التجار موالح وشرابات. شرابات من ماء محلّى بالسكر والليمون. شكر بكر ذلك الرجل الأريب، دون ان يصيب مما قدم شيئاً. ومثله فعلنا «مستائين» إلا عثمان الذي تدَنّي ليمس الصحون البهية، لولا الشرر الذي انبثق من عينيهما، معاً.

وقبل ان نغادر واجهة ذلك المحل الذي اقمنا برهة في حماية ظله ونُكوفه، تجمَّع حولنا شَتَتٌ من الناس والسائرين. وشيئاً فشيئاً كَبُر الجَمْع وتعاظم حتى أخلّ بسكوننا وارتياحنا. ولاول مرة، رأيتُ بكراً يتلفَّتُ حوله وكأنه يتساءل عن سرّ ذلك الانهمار العفوي لدى الناس. ووجدتني اتمتم، مأخوذاً: أبكر يندهش، ايضاً، وهو المتهيِّء لكل شيء؟ لا بد ان في الامر مَحْذَرة ومَخافَة؟ وما أكد لي ذلك الشعور الممتليء ذُهولاً هو حوَصان عثمان المماليء، وغلوّه في النَبْهَة والاحتراز. عن اي شيء كان يبحث عثمان؟ والى ايّ حَيْثٍ يرمي بسهام لُؤْمَته وعينيه؟ ولِمَ صرتُ ارى في الحضور نوعاً من البَهْتَة والاكتئاب؟

صارت الاصوات، من حولنا، تتعالى. اصوات النقمة والمستائين. وصرنا نسمع، من بعيد ومن قريب، بعض الهتافات المناوئة لنا؟ هتافات «رديئة» على حد وصف عثمان المتشنّج لها. كانت جَمْهَرة من الناس ترفع الصوت عالياً ضدنا. وعلى الفور، حاولت ان ارى «نوع» تلك الكائنات التي اطلقت صوتها بلا رهبة. تلك الكائنات التي تجاوزت «سِنّ الخوف»؟ ولكن انّي لي ان ارى شيئاً وقد أخذت الدهشة بقلوب الحاضرين (وبقلبي اولاً). ووجدتني اضيع بين ارجل الشدّة والمتكاثرين بدلاً من ان احدد المصدر والضغون. كانت دمشق تغلي بهدوء، وكنت أشمّ أريج حريقها المنكتم في الاعماق. أشمّه عاجزاً وحَسيفاً.

كان رجل، بعينه، يستقطب تلك الجمهرة التي فاضت عن الضوء. يستقطبها صامتاً وحزيناً. ومع ذلك، كان الخلق من حوله يضجّون؟

لكأن صمته كان دعوة لهم لكي يصيحوا بأقوى ما يستطيعون. وعلى الفور، أحاط به سرب من الرجال الأشدّاء ليمنعوه من «فعل ذلك». وهو لم يفعل شيئاً سوى الصمت.

رجال عريضو المناكب، غلاظ القلوب، انشقّت الارض، فجأة، عنهم. رجال لم أرهم، ابداً، من قبل؟ اين كانت عيوني تتراءى، إذن؟ وكيف سَكَنَ قلبي الى تلك البؤرة الفاسدة من الأمان؟

بدا الرجل النحيل وكأنه سيذهب مزَقاً بين ايديهم. الرجل الصامت امتلأ نباحاً. صار زَلْعومه يصعد وينحدر في حلقه مثل زلعوم البعير المذبوح. لكأنه انطَعَنَ امام الخلق المتكاثرين حوله دون ان يصد الضربة أحد عنه. ولانه انكشف عورة على الملأ رأيت الحروق الفاحشة تنتشر على ضبابه وزواياه!

أخذت بكر حمية مباغتة وكأن الاعتداء الآثم وقع عليه، هو، لا، على الرجل الصريع، فقال بحدة وارتعاد:

– احجزوا الرجال قبل ان يقتلوا المسكين، يا عمر.

وما ان قال ذلك، حتى أشار عثمان من بعيد إشارة خاصة، كَفَّ بفعلها الرجال عن تهشيم الرجل وتَكْشيمه. كفّوا حالاً، وكأنهم لم يُدانوه. وعلى الفور، اختفوا كالعفاريت؟

باصرار تقدّم الناحل المحروق من بكر، وكأنه لم يتعرّض، قبل قليل، للإهانة والتمزيق. تقدّم وهو يمد اليه ورقة كان يمسكها بتبجيل بين يديه. كان يمشي، وهو لا يمشي. لكأنه يتيه في أصقاع قفر. متى يصل الرجل الينا؟ صرت أتساءل ملتاعاً، خشية ان يسقط انهاكاً، على القاع. لا؟ هاهوذا يصل اخيراً. يمد يده المملوءة بالحبر والجفاف. يْلقفها عمر، حاسماً، قبل ان يتناولها بكر. يتفحّصها بامعان، دون ان يفصح عما فيها. ولمّا ظل ساكتاً، قال بكر والعجب يستبدّ به:

– ألا تقرأ علينا مطالب الرجل، يا عمر؟

– ليس ثمة ما يقرأ، يا بكر؟

قال عمر متوجّساً وكأنه كان يرى الشر يحيط بمنكبيه. شرّ لم يعد يستطيع

ان يردّه عمّن سيلقاه.

– ليس؟

قال بكر. وقبل ان يتمّ الجملة التي كانت تملأ قلبه، قاطعه عمر (وكانت تلك اول مرة يفعل ذلك):

– الورقة بيضاء يابكر؟

– بيضاء وكادوا ان يقتلوه من اجلها، ياعمر؟

ولمّا لم يجد عمر ما يرد به على تساؤل بكر المخيف، هذا، ثَنّى بكر سؤاله الملح بحدة (وكأنه يتبرأ من قمع الرجل، ومن تَسْفيهه):

– بيضاء وكادوا ان يقتلوه من اجلها، ياعمر؟؟

وهَمَّ عمر ان يعيد عليه ما سمعه منه جيداً، إلاّ إنه امسك لسانه في الهَمْزَة الأخيرة قبل الكلام. امسكه بأسف ورعب.

كنت ارى التماسات الخوف العميق تمشي تحت جلده. لكنه احكَمَ لَجْم نفسه حتى لا تفيض هَذَراً على الناس.

اما بكر فقد بدا وكأنه أصرّ، هذه المرة، على معرفة مطالب ذلك الرجل الذي تهَشَّم امام عينيه. فقال بصرامة:

– نادوا الرجل ليحكي لنا عن مطالبه، إذن.

– الرجل أخرس؟

قال عثمان متسرِّعاً.

– اخرس؟؟

اعاد بكر الكلام دون ان يستوعبه على الفور. فأكد عثمان بصوت خافت لا يكاد أن يسمع:

– اخرس.

بدا بكر وكأنه أُصيب بالصاعقة، فلم يعد يعرف اين هو الآن، ولا من كان من قبل (ولكن أيكون ذلك ممكناً؟ وأي معنى لتخرّصات بلا شفيع؟ صرت اتساءل صامتاً في قلبي). وعندما استعاد شهقة النَفَس الذي ولّى، كرر معنِّفاً وكأنه يريد

ان يكذّب في قلبه ما حدث في الواقع وصار، كرر بكر «الكلمة الرهيبة» بعجب واصرار:

– اخرس؟

لكأنه بتكراره لها يريد ان يكذبها بالرغم من حقيقتها التي لا تحتمل التكذيب. لكأنه كان يريد ان يمحوها من الوجود. «من وجود غدا عبئاً بعد ان كان متعة»! كما كان «ابن الوراق» يقول شامتاً. ولكن، ممّن يشمت الكائن إنْ لَمْ يكن من «عقله» الذي بدأ انحيازه اللامعذور: انحياز الفكر القاصر الذي يريد ان يسخِّر الكون لنزواته.

لم يَبْدُ على عمر انه اندهش كثيراً لتأكيد عثمان المخيف. اما بكر فقد تقوس (بعد ان سمع ما سمع) وكأنه يعاني من ألَم لا يحتمل. وبانكسار عميق، أخذ الارض جاثياً على الرُكب. لكأنه أُصيب بجرح بليغ لا برْء منه.

جَثا، وجَثا الخلق من حوله اجمعين. واحد بعد آخر كانوا يجثون. يجثون بنظام جعلني ارتعد من الدهشة والانفعال. كانت حركات الجَثْوِ تتتالى من القريب الى البعيد، «من المركز الى الاطراف»، حتى عَمَّت السوق، كله، بلا استثناء؟

ولفترة طويلة، لم يكن وجه بكر يُفصِح إلا عن علامات الاستياءوالغضب. لكنه «استياء بلا جدوى، وغضب لم يعد ينفع احداً»؟ على حد قول «ابن الوراق» الذي كان يتمتم، متنَمِّراً في وجهي، ذلك النهار: «لايَغُرَّنكَ ذلك»؟ والذي تابع قبل ان يدور الكلام في قلبي: «الحياة لا تهمّها البراهين، وبخاصة، عندما تكون براهين براءة كاذبة؟ فالكائن مسئول عما تفعله الكائنات باسرها، وإلا فلامعنى لأي عقد اجتماعي مهما كان، وكانت مسوِّغاته»!

بعد ذلك، كله (وبالرغم منه)، اضاف (متطلِّعاً في عينيّ من جديد): «والحياة الحقيقية هي، نفسها، التي ستمحو تلك البراهين الزائفة، غير عابئة بحسن نيّات من ارادوا اللجوء اليها لتبرير صمتهم، او جهلهم بما يصير».

وبتصميم بَيِّن أكملَ، وهو يبحث عن انسلابي العميق بما سيقول، حتى قبل ان يقوله؟ لكأنه يعرف تماماً، لا، مَنْ انا ومن اين جئت، فحسب، وإنما حتى كيف

سأصير!ولكن اي جدوى من حياة لا تبدِّل مهاوي الكائن، ولا تغيّر اتجاهاته؟على حد قوله هو بالذات. (أيكون قد نسي ذلك)؟ بلى! لابد انه نسيَه، وإلاّ لما قال بوُثوق «الفعل الثوري» الذي كان لازال يعتقد بمسوِّغاته، مسوِّغات القرن المنصرم، (والقول فعل! كما يؤكد باستمرار) متابعاً شُروحاته، ومحرِّضاً: «لننفعل ما نؤمن به، إذن، وعلى الفور، او فلنكفّ عن التنصّل مما فعلناه، حتى ولو بأيدٍ غير ايدينا»! كان يتكلم وهو يتطلَّعَ في احداقي التي امتلأت بالدمع، مؤكِّداً: «وقوة الواقع اقوى من التفكّه والبرهان»!

وبعد ان حَطَّ نفسه في عينيّ زائحاً منهما صور بكر واقرانه (وكأنه يريد ان يحلّ محلّهم، وعلى الفور) بدأ يستقر فيهما. يستقر متمكِّناً مني. لكأن «احتلال الذات الاخرى» لا يقتضي اكثر من رغبة بليدة، كهذه. لكأنه «ليس سيرورة لايمكن التأكّد منها مسبقاً، ولا الاطمئنان اليها حتى عندما تتحقق»! كما يقول هو نفسه.وخطر لي ان الغباء ليس شيئاً آخر سوى «حذف» الاحتمالات الاخرى الكثيرة التي يتجاهلها الكائن (فليس ثمة جهل حقيقي في الحياة). وان اليقين ما هو إلاّ الشكل المطلق للغباء! عجباً للكائن كيف يخترع الصياغات اللفظية التي ترضيه حتى ولو لم تقتضها الحال؟ كنت اردد صامتاً، والدنيا تتفجر حولي من الغيظ.

[٥]

جاثياً علَى الرُكَب، عَلِيّ، هو الآخر، كان يتمتم، في ذلك الضَجّ الذي بلا قرار: «كيف سمحوا لأنفسهم بالإعتداء على الأميّ الذي لا يُفصِح»؟ كان يهتَزُّ مُتَلَوّيا وهو يتلو تعاويذه، وكأنه أُصيب بالنقطة القاتلة. وكان يتساءل مرعوباً وهو يؤكِّد بغيظ: «العرب لُقاح لا تُملَّكُ، ولا تُمَلِّك، مَنْ اين تراهم يستمدون حق المنع وحق القمع»؟

ولكن، مَنْ كان يسمع، آنذاك، مقاله غير ذاته، غير ذاته التي اختفت كالدودة البكماء في غارها؟

في خضمّ ذلك الانفعال الذي تسلّط على الناس، صرتُ احسني قِشَّة في الريح. قشة سيدوسها الآخرون باقدامهم الهمجية وهم يسيرون برعونة نحو مصائرهم العمياء؟ اكتفيت، إذن، بان غضضت الطرف عنه وعنهم مغمضاً عيني، وكأنني اريد ان انام. ان انام، قاعداً، على الحريق. كانت حركات الناس العُصابية المُرْجِفة قد حررتني من أوهامي: حركات الصمت المهدِّد بالعنف، والسكون المُعَبّإِ بالإنفجار.

للحظات طويلة، لم يجرؤ احد منهم على الاقتراب من بكر، إلاّ علي. إلاّ علي الذي اصطنع حركة سريعة لامس بها كتفه الايسر.

حركة جعلتْه يهتزّ مرتجفاً، وكأنه يصحو من نوم عميق. نوم قطعه قصف مدفعي مباغت.

استغل الفرصة عمر، فقال متحمّساً، وكأنه اراد ان يهدّيء من لواعج بكر:

– اعطينا الرجل الأمان، وطلبنا منه بأن يزورنا غداً، لنفهم منه كل شيء.

وكأنني سمعتُ علياً، يردد «إن بقي حيّاً»! كدت اسأله التوضيح، إلا ان عثمان اقترب مني، بغتة، وكأنه يريد ان يسرق سمعي. اكتفيتُ بان اعتبرت نفسي فهمت كل شيء (دون ان افهم شيئاً)؟ فهمت ما قيل، وما لم يقل، بعد.

صرت اعرف انه لانجاة من اطروحة «راقِبْ وعاقِبْ» التي يتقن عثمان استخدامها بشكل مذهل، ويطبقها بمنهجية صارمة، إلاّ «بفهم طائر»؟ وان «الاصغاء الحائر» الذي كنت اعتمد عليه من قبل، لم يعد يساوي، الآن، اكثر من تكشيرة بليدة في وجه الاحداث.الاحداث التي لا تكف عن الفَوَران والتمازج، قدّامي. وصار، اليوم، ماكنتُ اغتبط به من نباهة ونُفوج: «عقلاً قفراً»؟ عقل ضيق الأفق والتكوين، بلا مدلول وبلا مفعول، ايضاً. ماذاكان بامكاني ان افعل غير ان انكتم على سرّي، وكأن الامر كان مقضيّاً؟

ابتسم علي راضياً من تنَبُّهي، كما حسبت؟ فانا لا اكفُّ عن حسبان الامور التي تلتهمني، بلا رأفة.

لكأن حسباني لها وقاية لي منها. لكأنني كنت اعوِّض عن عجزي المسبق،

والنهائي، باللجوء إلى التخيّل المستمر. تخيّل الاحداث والحالات كما يحلو لي ان تكون، حتى ولو حدث العكس؟ (وما معنى العكس الذي لا يمكن حتى ان يصيبنا بشرٍّ لاننا لا نتمتّع بوجود حقيقي؟ على حد قوله. فهم الْتَهَمونا قبل ان نتحقق من كياننا ونتباهى بحياتنا). ووجدتني اقول له بعفوية ادهشتني انا، قبل ان تدهش احداً غيري: لِمَ لا نأخذه..؟

ولَمْ يدعني أتمّ الجملة، إذْ قال متابعاً ما بدأته: «معنا؟ لا »؟ وبسرعة اضاف، وكأنه كان يفكر، هو الآخر، في الامر، نفسه: «سنكلِّف بحمايته ابن ثَقَفَة الطَرّاش». الطَرّاش؟؟ تساءلت بدهشة وانا استعيد الحكايات الكثيرة التي كانت تتداول حول ذلك الرجل الغريب الذي: «لا يلبس القماش. ولا ينام في فراش. ولا يأكل إلاّ ما يُحاش»!

عليّ يعرفه، ايضاً؟ بدأ الخمج يصعد كالبخار الى نفسي. الى نفسي التي لم تعد تركن الى شيء. لكأن مقوماتها لم تكن الاّ مُهَدِّمات لها. مَنْ سيبنيها وقد تولّهتْ غفلة واحساساً؟

كنت احسب ان اخبار «ابن ثقفة» الشامي لم تصل الى اسماع احد منهم، بعد. ولكن اية اهمية لذلك، الآن، والناس في ارتباك؟ ولذا، ربما، لم استطع ان امنع حالي من الاهتزاز، وانا أُتمتِم متسائلاً، وبي تَخُوّف ونُباح: نسلمه لشيطان الحميدية (وكان هذا هو لقبه)؟

وبدون ان يتردد، قال علي مستعجلاً: «شيطانها، او رحمانها، أي فرق؟ المهم، اضاف متوتراً: ان يبقى على قيد الحياة إلى أن يجيء غداً».

كنت احسب (مرة اخرى؟) ان قلّة من الناس الذين اعرفهم، يعرفون ذلك الرجل المتعدد الالقاب والاوصاف. فهو المترهّب، والصوفي، والزاهد، والثوري، والحَقيق، حسب من يتكلّم عنه، ويعنيه. وكان «ابن الوراق» اول من حكى لي عنه، واصفاً اياه «بزَيّاف الحميدية»؟ ولما لَمْ أكن أدرك ابعاد «منظوره النقدي» آنذاك، سألته التوضيح (ولكن بغموض، كعادتي. وكأن السؤال مجزرة بحق الذات) وأجابني بغموض اكبر، كعادته (وكأن الجواب الواضح نقص في الهِمّة والعقل).

وأعدت السؤال اكثر من مرة، ولم يكن هدفي من الإعادة الإفادة، كما قد يخطر على البال، وإنما «التمييز».

كنت اريد تحديد موقعي بالنسبة اليه، وإليهم (وكأن ذلك كان مهمّاً) وكان الحري بي ان احدده بالنسبة الى المدينة والناس. لا، لم اكن اعرف ان حياتي ليست مجموعة من المقولات، ولا نسقاً من التعاليم، وإنما هي: انا. انا الآكل الماشي المتحرك السالك الهالك. هي ما تسوّل لي به نفسي. وما اقدم عليه من تصرفات ومن افعال.

لكن «ابن الوراق» الذي كان يحيا «بالإنابة التاريخية» هو الذي دفعني، كما ساعرف فيما بعد، الى تلك الهوّة التي لا قعر لها: هُوّة توكيل الآخر التفكير (والتخطيط حتى) لسلوكنا نحن؟ أية حياة اكثر رداءة من هذه.

ومساء، بعد مساء، في طرقات دمشق الملأى بالاغراض، والأُثث، والناس المتزاحمين، وبالأبخرة والرضوض، كان يشرح لي ظواهر كثيرة، ومنها «ظاهرة الازلاف» وعلى رأسها «ابن ثقفة الطراش»، هذا.

يشرحها متلَوِّياً، معانقاً افواه الصنابير، شارباً منها ماء ليرطّب به فمه الطيني، وهو يحتار في اختيار كلماته المناسبة للوضع: لوضع «هؤلاء الكَذَبَة» كما كان يسميهم. ومرة بعد اخرى، كان يردد، معنِّفاً: «يكذبون حتى على انفسهم، لا على الناس فحسب». وكان دليله على ذلك علاقتهم المتواطئة مع السلطة. وان كانوا يحمون انفسهم «من الإشاعة بالبداعة»! على حد قوله.

وكان كثيراً ما يبدأ شروحاته، حتى قبل ان اسأله شرحاً. وفيما يتعلق بهم، كان يحدد مواقعهم وزلاّتهم بنوع من السخط والنفور، قائلاً: «هؤلاء نفر من المُبَسِّطين الذين، عوضاً عن ان يتعمَّقوا في فهم ظروفهم، وفي نقد أوضاعهم، يلجأون الى تبذيلها، وتبريرها». وبعد ان يتبَرّأ من الوضع برمته، وكأنه يحيا فوق كوكب آخر، كان يضيف، بازدراء: «إنهم شخصيّات عاطفية (لكأن العاطفة زلّة لا تغتفر؟ وكان ذلك يجرحني بعمق لانني كنت اعتبر نفسي عاطفياً بامتياز) هَمُّهم الوحيد في الحياة تورية العيوب وتغطيتها، وبخاصة عيوب المتسلطين، وإن كانوا

يدّعون العكس. وهو سبب سوء التفاهم العميق بينهم وبين الخلق الذين. .».

ووجدتني أحوص. اريد ان اقفز في الفراغ. اريده ان يسكت. ان يسكت لحظة، حتى لا اموت انا صمتاً. وفعلا سكت وهو يتراءى لي مثل صورة في الخفاء. في خفاء تلك الحياة التي تنضح حماقة وغباء. وما ان اطمأن الى وجودي لصقه حتى تابع باصرار مثير للزِرْيَة والخوف: «وهم يُفَرِّغون الوضع من محتواه المرعب ليجعلوا منه وضعاً مبتذلاً وبلا كُنْه. وضع لا يستحق النقد ولاالتمرد عليه. أي فعلة اخطر من هذه»؟

وبعد ان تناظر بلؤم مع المارة والدائبين، اولئك الذين كانوا يخرّون في شوارع المدينة وكأنهم مطر الجزيرة في أوائل الربيع، تابع تسفيهه المعلن لهم: «ومطالبهم المتسمة، ظاهرياً، بالعدالة والمساواة والنزوع الى الحرية، وهي نفس المطالب التي تشغلنا منذ ان حلّ الوعي الثوري فينا، (اضاف بوقار وكأنه امام مجموعة من الحواريين الأغرار) ليست، في الحقيقة، إلاّ تضليلاً لمن تشغلهم الدعوة، هذه، بحق»؟ «فأية قيمة لدعوة بلا عمل يؤكدها، ولعمل بلا حقيقة تسنده»؟ تساءل متبجِّحاً، قبل ان يسكت في الضيم.

كنت اعرف انه، بهذه المقولة، يريدني ان اصل الى «نقطة الادراك الثوري» التي ينتقل فيها الكائن من «مرحلة النقل الساذج لما يراه الى طَوْر الاستيعاب النقدي لما يحسه»! كما كان يقول.

وكنت بذلك سأكون افضل رقيب له (ولنفسي) عليهم (كما خطر لي سرّاً). إلاّ إنني، دون ان يدري، تَحوّلْتُ، مع التجارب الكثيرة التي عشتها، الى كائن تشوّهت رؤيته، وغدا احساسه غير أكيد. ولكن أنّى له ان يدرك ذلك والحماس الثوري الذي يدّعيه يُعمي، لا بصره فحسب، وإنما بصيرته، ايضاً؟ ماذا علَيَّ أن افعل، إذن، لئلا أصل إلى حيث لا أُريد؟

مستمعاً بانبهار اليه، خاطرة مخيفة كانت تهزّ اعماقي. خاطرة كنت اكتشفها لاول مرة (واكتشاف المرة الاولى هو الاكتشاف العاطفي بامتياز. وهو، بهذا المعنى: اكتشاف الحقيقة التي لا تحتاج الى سفسطة الدليل)، كنت اكتشف ان

احتقاره لهم ليس مبنياً على أُسس فكرية متينة، وان هدفه من نقدهم ليس واضحاً، كما ان طريقته في الحياة ليست مغايرة لطرائقهم، كثيراً؟ اين يكمن الخلل، إذن؟ وكيف احتمي من السقوط فيه؟

وما يهمني السقوط بعد الآن (صرت أُؤنِّب نفسي)، وقد بد أت الاقنعة تتهاوى؟ فكرت في ذلك، ضاحكاً. ضاحكاً في قلبي دون ان اظهر على سحنتي علامة من علامات خوفي. ولاول مرة، ايضا، خطر لي: ان «الحياة» لا تنتظر من احد شيئاً، لانها بلا «كنه»؟ ولا يضيرها ان تُفهَم على «غير حقيقتها» لانها، في الواقع، بلا حقيقة خاصة بها. كما لا يهمها ان تُفهَم على وجه آخر طالما انها خالية من كل ما نتصوّره عنها. إنها حركة مستمرة مكتفية بذاتها. واننا نحن الذين نُجَلِّلُها بأجلِّتنا الذهنية البليدة والكاتمة للنفس! من قال ذلك؟

ووجدتني امتليء حبوراً في حضرته، وبالرغم منه. لكأنني باكتشافي لدواهي الألاعيب اللغوية التي لا تصدر إلاّ عن قصور العقل (كدت أقول القلب) كنت اكتشف العالم من جديد (اكتشفه على هواي، وحسب رؤيتي له) وكان ذلك يفعمني سعادة بلا حدود. وخطر لي ان مقولاته المتكررة حول بكر ورَبْعه، ومنها مقولته الأخيرة: «بكر يعتبر شئون الناس شأناً خاصاً به، وتلك اول صفة من صفاة الطُغاة»! تنطبق، اول ما تنطبق، عليه. عليه، هو، نفسه. ولكن أنّى لي، آنذاك، ان افرِّق بين العارف والهائف؟

ذلك اليوم، صرت أداري افكاري المتدفقة مثل ماء منهمر، حتى لا اغرق فيها (إن لم أكن قد غرقت كثيراً من قبل). صرت أُداريها وانا احاول ان انأى عن كل شيء.

صرت أُواري خوفي المريع في اعماق نفسي لئلا يفضحها علناً، لئلاّ يقذف باحشائي الغثيّة امامي. كنت أحسني مشتتاً وكأنني وَزّعتُ نفسي فيمن حولي من الكائنات، حتى خلْتَني لااری، ولا اسمع شيئاً.

وفجأة، صار علِي يهزّني، وكأنه انتبه، للتوّ، الى الغفلة التي غمرَتْني، وهو يقول: «من اين نبع اولئك العلوج، وكيف سيطروا على المكان ودنّسوه»؟! عمن

كان يحكي، وعَمّا؟ وهل الامكنة، هي الاخرى، قابلة للتدنيس؟ صرت اتساءل وانا اكاد ان اعلن على الملأ جهلي. ولكن، ماذا اقول له، وهو يرمقني بتحفُّز مثل مَنْ يرمق حَصْوَة بين يديه يعرف انه سيقذف بها، مهما ظلت، الى الحضيض. ولم أجد ما اقوله سوى: «إنني خائف»!

تَجَهّم وجه عليّ، بقسوة، وهو يحاول ان يدرك ما يدور في خلدي. وبصوت كاد ان يشقّ حلقه ليخرج على غيرعفويته، قال متعجِّباً: «خائف ممن، وعلى من»؟ وكأنه ادرك الفخ الذي نصبه للملأ (لا لنفسه فحسب)، ورأى عظم مسئوليته في ذلك، ولم يعد قادراًعلى التنصّل مما فعل، تابع بتصميم: «لا َتخَفْ..!»

ولكي أُهدّيء من ارتكاسه العنيف (وخوفي يرتسم بصفاقة على ملامحي التي غدت مثل قشور البصل اليابس) قلت له، بِحيرة: إنني خائف على الاخرس. واضفت سريعاً (ولست ادري لماذا فعلت ذلك): خائف على ما اراد ان يوصله لبكر (ولكن اي معنى لخوفٍ خائفٍ لا يخاف احد منه؟ كما كان يقول)!

هدأ عليّ قليلاً منذ ان سمع كلماتي، قبل ان يقول بثقة وتصميم وكأنه يريد ان يطمئنني: «سنعرف ذلك عما قريب»! ولما رآني اتعجّب من التبدّل الذي طرأ عليه (وربما علَيَّ ايضا)، أوضح: «أخذوا نصف الورقة المكتوب، وخلّوا له نصفها الآخر»؟ ووجدتني أتساءل ببلاهة (مرة اخرى؟): كانوا يعرفون كل شيء عنه، إذن؟ ورأيت علياً يبتسم صامتاً، وهو يُحوِّل بصره عني، ناظراً بتواطؤ الى جماعات السوق التي كانت تتشتّتُ، وتَتَلَمْلَمُ، حولنا، في البعيد.

[٦]

لم أكن افهم كيف يتجمّع الناس، ولا كيف يتفرّقون. لكأن ثمة علائق سرية تربط الخلق، وتحلّهم. قبل لحظات كان يتجمهرون حولنا وكأنهم جسد واحد. والان، صاروا يتبعثرون مثل حُبَيْبات الرمال التي تذروها الرياح. كنت احسبهم سيتشبثون بأمكنتهم الى ان يفهموا كل شيء. كل شيء في نفوسهم وفي حياتهم. لا، لم أكن أتوقّع أنهم سيدْشُرون في الأزقة، منذ الهمزة الأولى، تاركين الامر لمن

لا يستحقه؟ ولكن..

كان الوضع النفسي الذي حَطَّني فيه «رجل الورقة البيضاء» ينذر بانهياري القريب. وعَلَيَّ ان اعترف ان ذلك الانهيار العاثر سيتكرر اكثر من مرة (كما حدث لي من قبل)، وبخاصة، في الفترات التي سأخلو فيها الى "نفسي"! ولذا، ربما، صرت اخشى الوحدة كثيراً. لكأنني اصير فيها كائناً آخر. لكأنها غدت مرآة عيوبي وآفاتي. فيها يتجلّى لي الفشل القاتل الذي كنت اعيشه منذ سنين: فشل الجسد والفكر والروح الخالية من اليقين. ومع ذلك، كنت اريد ان اكون وحيداً ذلك اليوم. كنت اريد ذلك باحساس عميق. احساس الرعب من «فشل معمم»؟

ولكن كيف؟ كيف و«ابن الوراق » عاد يلتصق بي من جديد. يلتصق بي وهو يتمتم في اذني، بلا اعتبار لمشاعري ونُفوري. يتمتم، زاعِماً، أنه يريد انه يلفت انظاري الى «الشيء الاساسي»؟ وأي شيء يستحق الإلتفاتة القسرية سوى الموت؟ سوى موت احساس الكائن بالحياة التي انسلبَتْ منه؟ على حد زعمه.

ذلك اليوم، صار يهزُّني، قائلاً (وكأنه يخشى ألاّ اسمع في هدوئي): «أهمية الوضع من أهمية الناس الذين يعطونه معناه التاريخي»؟ ولما رآني غارقاً في اضطرابي العميق، وقد حسب (وكان في ذلك على حق) انني لم افهم مما قال شيئاً، اضاف بسرعة موضحاً: «وهؤلاء، أشار الى الناس المتفرقين حولنا في الانحاء، اما ان ينتصروا مجتمعين، او ان يُهْزَموا فُرادى»! ومع ذلك لم ادرك المعنى الحقيقي لكلامه الذي كان واضحاً بامتياز. لماذا؟ لانه، ببساطة، كان خالياً من العاطفة. كان كلاماً مُعَقْلَناً لا يمسُّ القلب ولا تهتزُّ لسماعه الروح.

ولا بد انه ادرك ما كان يعتمل في نفسي، لانه صار يصطنع الحركات لتهدئة اضطرابي الذي اعلن عن حاله بلا مواربة هذه المرة. فأخذ يمتدح الضوء احياناً. واحيانا يهلل لمرور النسوة اللواتي لم يحزن اهتمامه من قبل. أيكون قد أحس بما لم اكن قد احسست انا به، بعد؟ وإلاّ لما تراه بدأ يخاطب نفسه بلوعة في حضوري وكأنه اضاع قطعة منها؟ ومع ذلك، لم يَفُزْ بارتكاس عاطفي مني.

لكأنني صرت، فجأة، قطعة من صخر. من صخر مليء بالضجر والهفوات، لا

يريد ان يتخلّى عن عواطف الاضطراب العميقة التي تفعم ذراته.

وعلى غير توقع مني، صرت اشعر ان تمزيق «ورقة الاخرس» على مرأى ومسمع من الناس كلها، ملأني بفيض من النبض الصاخب والحياة. الحياة «الجديدة» التي لم اكن أتوقّع لها وجوداً في ذاتي. ولاول مرة، بدأت أتهرّب من الاصغاء اليه (وإليهم، فيما سيأتي من الوقت). ومع ان ذلك كان بالنسبة لي «امراً إدّاً» الا انني لم أُعاند نفسي فيه. صرت اريدها ان تتنفّس على هواها . ان تعيش لا رغباتها (فقد كانت محرومة من كل رغبة) وإنما رعبها المخيف؟ الرعب الذي انبجس، فجأة، منها، كما ينجس النبع المحصور من تحت الصخور.

لكأن التخلخل العميق الذي حقنني به ذلك التمزيق المتعمّد جعلني أتهيّأ لاحتمال اكبر المصائب، وأشدها هولاً. ولكن لمن كان بامكاني ان احكي، يومذاك، ما لا يُحكى؟

كان «ابن الوراق»، وظل، يتكلم لصقي بحياد اذهلني، اكثر ممار اذهلني حادث «الورقة» اللئيم. كدت ألومه على نباهته الفكرية الباردة، وعلى شماتته (اكاد اقول)، وبخاصة، لتشتت الجموع التي سرعان ما ولّت الادبار، وكأنهم حيوانات أليفة لجأت الى معالفها عند الغروب (على حد وصفه لكُتَل البشر التي تبددت بلا حذر)؟

كانت فكرة «التضحية» التي خِلْتُ ان «رجل الورقة البيضاء» قام بها، هي التي تسيطر على نفسي. تسيطر عليها لدرجة انني صرت اشعر، وعلى مرأى منه، باحتقار عميق لذاتي. لكن «ابن الوراق» الذي لا يأبه لمثل هذه الإنخطافات النفسية العابرة، أنّبني، مرة اخرى، على ذلك «الشعور التافه» كما كان يسميه: «شعور تأنيب الذات بسبب الآخر»؟

وليؤكّد لي (وربما لنفسه، ايضاً) مقولته التي صرت أتحسس من تكرارها، قال بتصميم وهو ينظر الى وجهي الذي غدا، ذلك اليوم، وجهاً بلامزية او ضرْع: «لا تغلطْ؟ لا أحد يُضحّي بنفسه من اجل احد آخر»! ولمّا لمْ أقل شيئاً، تابع بهدوء اكثر، وكأنه يريد ان يقنعني،نهائيا، بما لم أكن إلاّ مقتنعاً به: «كلنا ضحايا»؟

ووجدتني اقول (حتى قبل ان افكر بالصيغة التي سأقول بها فكرتي): ولكن ثمّة مَنْ يُضَحّى بهم أكثر من غيرهم. ورأيته يلقي بابتسامته الرطبة في وجهي، ابتسامته الشيطانية التي صرت اعرف معانيها جيداً، وهو يقول باحتقار: «تلك، تماماً، هي القاعدة التي تضبط احوال الضحايا»؟

تَلَبَّسَتْني حالة من الإبهام المطلق الذي يقارب العبث المخيف، وانا أتردد في متابعة السير لصقه. ماذا كان يريد ان يقول؟ كنت أتساءل صامتاً في قلبي. ومع ذلك، كنت موقناً بأن وراء ما قاله هدفاً واضحاً بالنسبة له، على الاقل.

ولكن ما شأني أنا بأهدافه ونفاياته؟ صرت أُبربر في رأسي الذي امتلأ صخباً وضجيجاً.

لوقال لي ذلك قبل ايام، لأقتنعت به، وعلى الفور. لأعتبرته مقولة جديدة تستحق التفكّر والاهتمام. لما أعدت النظر بشيء مما قال. إلاّ انني اليوم (شخص آخر) وفي وضع آخر. وهو ما دفعني، بالتأكيد، إلى تَلَمُّس ذاتي، محاولاً اكتشاف ابعادها الخفية. «واكتشاف الذات مرعب، دوماً» كما كان يقول. ولكن كيف اشرح له الامر؟ ومَنْ يوصل ما افكر فيه اليه، وهو «الثوري الأصم»؟

لبرهة شديدة الوَجْز اعتبرته عدُواً، عدُواً بالمعنى الذي طالما استعمله هو، نفسه، ضد الآخرين؟ لكأن احساسي «بخوا ئي الذاتي» الذي اقنعني به، هو الذي بدأ ينفخ في نفسي روح الهَجْمة والاستعداء. أوَليس بتأثيره المقيت كنت أحسني حاضراً، بلا معنى، ومستقبلاً، بلا مشروع؟ ماذا تعني الحياة، في مثل هذه الحال، سوى النقيصة؟ نقيصة الخضوع لمن يحتقروننا، والانصياع لمَنْ يجب علينا ان نتمرد، ولو لحظة، عليهم؟

ولكن، أي جدوى من الحياة إنْ لَمْ تُغْنِ مسيرتها وعي الكائن؟ «وعيه بنقائصه» الذي هو العامل الأساسي في دهشة الحياة وتجديدها. منْ قال هذا؟ وما يهمُّ القائل؟ المهم هو الفاعل؟ صرت أُردد مرتَجّاً وانا اقارب النُواح.

وكأنني اردت ان اعلن «استقلالي النفسي» عنه (وعنهم) (ولست ادري كيف خطرت لي تلك الخاطرة الشيطانية) قلت له، بدون تحضير مسبق لما

سأقول،وكأن الكلمات كانت تنبثق مني بتأثير عنف جواني هائل، وهي تعرف الى اين تتجه وماذا تريد: إذا كان قَلْب الوضع هو الهدف الأسمى لكل فعل انساني جذري، كما تقول، فمن يتكفّل «بقلب الاشخاص» قبل ان يتحكّموا بالوضع الجديد؟

وكأنني دغدغته، صار يضحك، عالياً، وهو يسدّ فمه الرطب بيد، وبالاخرى يمسك أرنبة أنفه اللين لئلاّ يسقط على القاع. يضحك وهو يتملّى، ذاهلاً، كائنات الفضاء الدمشقي الممتلىء بالرزايا والزُحوم.

ولاول مرة، رأيتُ وجهه الاملس يغدو مَعْبَراً لتشنّجات وتعابير شتّى. لكأنه استشَفَّ مما قلت ما لم يكن يخطر لي على بال؟ وفجأة التَفَتَ إليَّ وبدأ يحكي. واول ماسمعت كان قوله المغرض: «قطعتَ نصف الطريق وعليكَ، الآن، ان تقطع نصفها الآخر»؟ قال ذلك بتودد كاذب وكأنه يهنّئني على تَفَرُّدي مع انني احسست انه قَطَعَني نصفين. ماذا قال بعد ذلك؟ لم اعد اسمع شيئاً برغم انه لم يتوقف عن الحديث. كنت مشغولاً في اعماقي بلقائنا القريب. لقائي بهم بالاحرى. لا؟ كنت مشغولاً، في الحقيقة، بالدفاع عن نفسي ضد الانهيار الآسر الذي كنت اراه يتقدّم نحوي باصرار. ولكن كيف؟كيف يمكن اتِّقاء ما خططنا له طويلاً، وانتظرنا لقاءه منذ زمن بعيد؟ «فخضوع الكائن ليس صدفة، ولا تمرده» كما كان يقول.

الفصل الثاني

[١]

في السقيفة، حيث التأم شملنا، من جديد، كان بكر يؤنِّب أحداً لاأراه. لكأنه يريد ان ينتقم من نفسه لرجل الورقة البيضاء التي مُزِّقت، بعنف، امامه. كان يتمتم وهو يريد، في الحقيقة، ان يصرخ:

– تبددون الناس من حولكم، بدلاً من أن تُؤلِّفوا قلوبهم؟ كيف تفعلون ذلك، ياعمر؟

كان يدقّ الارض بقدمه الهائلة (أو التي احسستها هكذا). يدُقُّها ذاهباً آيباً في مكانه وكأنه الأسد الهصور. أكان يكتشف ذلك لاول مرة؟ وهل «يُقبل» اكتشاف متفاوتٍ مثل هذا من قِبَل «امريء يضمّ العالم بين جناحيه»؟ صرت افكر ساكتاً، وانا أُلاحق العلامات. وقبل ان يقول اي منهم شيئاً، كان صوته الأجشّ ينسكب في اصداغنا من جديد:

– نحن نريد ان نستعين على المشقّة بالعدل، وها انتم تفعلون العكس، ياعمر؟؟

كدت ابكي من الانفعال والمفاجأة. من الصمت الطَويّ الذي كان يملأنفسي بالقماءة والخوف. من اكتشاف جهل بكر: «الجهل الجليل» الذي حسبتُهُ يحمي صاحبه من الملامة والقصور (ولم يكن، في الحقيقة، إلاّ جهلاً مفتعلاً كما ساعرف من بعد).

الا انني في تلك اللحظة المتوهجة كنت مشغولاً بانزياحي العاطفي الذي جرّني بعيداً عني. جرّني الى حيث «الانفعال» ميزة من ميزات الكائن «المُتلاشي» الذي يلتَذُّ بذوَبانه في الآخرين. آنذاك، لم أكن أعي ان ذلك الذوبان البائس علامة من علامات الخضوع التي «سأناضل» كثيراً، فيما بعد، للخلاص من بعض هفواتها التي لا تمحى.

وكأن عليا كان داخل رأسي وقد عرف ما ملأه من حَمَق وغباء، قال لي بصوت ملؤه الحنق والتوكيد: «لا تتعجلْ؟ هو يعرف كل شيء، ويتجاهل كل ما يعرفه»؟ وقبل ان يقول عمر شيئاً، تابع بكر ملامه، وهو يتملّى الناس برقّة من حولنا. لكأنّه يريد أن يستشفّ من وجوههم اهواءهم ونواياهم:

– تفرّقون الخلق ونحن نعوّل على اجتماعهم؟

وقبل ان يقول علي شيئاً وقد رآه يتأهب لقوله، ولابد، اكمل بكر بكثير من التسامح والرحابة:

– وأنّى لهم ان يجتمعوا دون حرية وعدل، يا عمر!

قال ذلك بشحنة أقل غيظاً. لكأن الكلام الذي تناثر منه قبل قليل كان كافياً لإزالة السوء. لكأن الأمور العصيّة منذورة لحلول لغوية بسيطة. لكأن الحياة ليست إلاّ مجموعة من الكلمات، ويكفي لتقويمها ان نتكلم بكلمات اخرى؟ وكان علي هو الذي علّق، بصرامة (قبل ان تفوته الفرصة، هذه المرة) إذْ قال بلا مراعاة لشعور أيّ منهم:

– والعدل عدل مطلق، وإلاّ كان زائفاً ومريباً.

قال ذلك وهو يتوجه بالنظر الي. لكأن مفاتيح العدل بين يديّ. اولكأنه اراد ان يشهدني على انه قال، اخيراً، ما كان يجب عليه ان يقوله بالرغم من كل شيء. ولذا، ربما، خطر لي انه يؤمن، ولا بد، بذكائي السري الذي كنت اظنني أتمتّع به حتى ولو لم املك برهاناً على ذلك؟ ولكن ما جدوى البراهين التي ستؤكد لنا صفاتنا الحميمة، تلك الصفات الدفينة في اعماقنا، والتي لا ندرك اننا نتمّع بها إلاّ بعد فوات الأوان؟ كما كان يقول.

وفجأة، جاء صوت عمر مليئاً بالخَفْتَة والعذاب، وهو يقول بعد جهد كبير لمقاومة التوتر والانفعال:

– للرجل اعداء، ولنا اعداء، كيف تريدنا ان نتّقي شرّ هؤلاء واولئك، يابكر؟

قال ذلك، وهو يتناظر مع الفضاء. لا لم يكن يرى احداً بعينه. لكأنه كان يريد ان يقول، بصراحة: ان للأمورقواعد وقوانين، وسياقها لا يمكن الوقوف في

وجهه. وان للوضع مسيرته الخاصة به، ونظامه الذي لا يقهر؟ وإلاّ كيف اصطنع اللامبالاة عمر؟

وكأن علياً كان على علم بما يحدث ويصير،لا في الواقع فحسب، بل في نفوسهم ايضاً، قال بصوت متهدّج لوعة وعذاباً: «حتى انت ياعمر»؟ ولكن مَنْ سمع هَمْس علي غيري في تلك اللحظة الآيلة الى المجهول؟

لم اعجب، في الحقيقة، إلاّ للتغيّر الحامض الذي رأيته يحلُّ في قسمات بكر!

كنت، من قبل، اراه صامداً في هيكله لا يتبدّل، مثل اشجار الحور المروية على «الخابور». لا، لم أكن أتوقّع أن يحلّ في رحابه ذلك الارتياح المباغت، ولا بتلك السرعة التي ادهشتني. لكأن وقائع اليوم المشئوم لم تكن إلاّ حدثاً عابراً في حياته؟ فكرت بذلك وانا انظر مبتئساً وجوههم: وجوه مَنْ أُجالِس، ولا أُحاسِب؟ ولكن لمَ تراني أجالس اناساً لا استطيع ان احاسبهم على خطأ، ولا اقوى على ردعهم عن مسيئة؟ ومَنْ جاء بي من تلك الاصقاع الضائعة في الحَماد الى هذه الديار العصية على الادراك، والمليئة بالالتباس؟ اللعنة؟ لكأنني كبرت عشرات السنين منذ البارحة ليلاً.

تَمَلْمَلَ بكر وهو يتهيّأ للكلام. يتهيّأ له، ُمتفرّساً، مثل صقر هرم مَلَّ من التحليق. وفجأة، قال بتوتّر واقتضاب، وكأنه تذكر شيئاً مهمّاً كان قد نسيه بالأمس:

– نحن في مرحلة تاريخية حاسمة، وليس لدينا لمواجهتها الا الاعتماد على الناس. والاعتماد عليهم لا جدوى منه دون احترام لمشيئتهم. وبعد ان سكت، قليلاً، وكأنه يستطلع ردود افعالهم (تلك التي كان يعرفها جيداً، كما يزعم ابن الوراق)، و قد ران عليهم الصمت؟ صمت عميق يقارب الذهول المربك، تابع بهدوء:

– في مرحلة أساسية مثل هذه (وربما في كل مرحلة من مراحل التاريخي الانساني، اضاف بعد تفكير)، لا يمكن ان تُبْنى صداقة حقيقية على اسباب زائفة، ولا يمكن ان تقوم عداوة حقيقية على اسباب مثلها، ايضاً؟

ولمّا اطمأن الى الانصات المهيب الذي بدأ يتجلّي على قسماتهم، وقد تناهبتها التصوّرات والأخاييل، حرَّكَ أياديه، وكأنها أجْنُحُ نسر هابط من عَلٍ؟ حرَّكها في ذلك الغروب الدمشقي المحتقن بالتوقعات، وكأنه يطرد بها شَرّاً يترَبّص بهم، وبالخلق من حولهم. ولاول مرة، رأيته يتنفَّس بشهية وكأن الهواء ينبع من رئتيه، وهويقول بأسف وامتعاض:

– لايمكن ان تُقَوِّموا اضطراب الحال بالمَنْع والقمع، ولا بالاعتقالات والاغتيالات، ياعمر؟

ولا بد ان عليّاً رآني اخنق الشهقة التي ماتت على شفتي إذْ أدار رأسه الهائلة عني، بعيداً، وهو يَنود. في حين أضاف بكر، حانقاً، وكأنه يتبَرّأ من ذميمة ذلك العمل ومن فداحته:

– كيف تفرِّقون بين الناس وهم عُدول؟

قال ذلك حاسماً، متوجهاً بالكلام الى الريح الخفيفة التي مرت، في تلك اللحظة الآسرة، بنا. حتى انني احسست بكلماته تطير مع النسيم العليل، نسيم الغروب الدمشقي المليء بروائح النسوة وإفرازاتهن. تطير؟ لا! تحوم حولنا مثل ثعالب الجزيرة حول كوخ حددته منذ اول الليل.

ولكن لِمَ لَمْ يرد احد منهم عليه؟ صرت افكر متذمراً في قلبي الذي امتلأ بالقُروح. ألانهم كانوا يتوقعون ذلك منه؟ ام لأنهم لايتوقعون منه اكثر من ذلك؟ لكن «لابن الوراق» رأياً آخر، رأياً قاله بوثوق: «لا، لم يردوا عليه لأن تصوره عن العدل، كما هو عن الحرية، تصوّرسكوني، لا يحفل بجوهر الكائن ولا بطاقته»؟ تصوّر سكوني؟ رددت متعجباً بحماستي المعهودة، كدت اقول بحماقتي؟ وأكّد لي رأيه المدهش، وهويقول: «مفهومهم (ولم يقل مفهومه، هذه المرة) عن العدل مفهوم يوحي بأن الناس يتمتعون، بشكل عفوي، بمزايا الكائن الخانع. الكائن الذي يقبل ما تعطيه، ولا يعترض على ما لا يرضيه».

وبعد ان نظر الارض بين قدميه، تابع: «وهو (الكائن الذي يتصورونه) لا همّ له في الحياة إلاّ التَحمّل والطاعة من اجل الحصول على بعض مايريد، حتى ولو كان

في ذلك خسارته لجوهره الانساني العظيم»؟

ولمّا رآني أقارب الإرتجاف من شدة الجهل التي لا تحتمل، أضاف موضّحاً: «والعدل، مثله مثل الحرية، فعل مستمر، وسيرورة لا تتوقف عن التطوّر والاكتمال». وبعد ان نظر بامعان في وجهي، كما كان يفعل عادة، عندما تتعقّد الأمورعَلَيَّ، اكمل: «وهو، مثلها، ليس منحة إدارية، سياسياً، ولا فائض قيمة، اجتماعياً، وإنما هو إرادة حياة لا يقبل الكائن الواعي عنها بديلاً»؟ وكأنه، ذلك اليوم، كان يريد ان يقول ماوسعه القول، بعض آرائه التي أُتْخِمْتُ بها من قبل، ان يقولها على الملأ رغم وجهي الذي اصفرَّ من شدة المقت، من شدّةمقتي لنفسي، استمر في الكلام لصقي، وانا بعيد.

وبعد ان ملأ رئتيه هواء، ملأهما باصرار، وكأنه لن يتنفس من بعد، جَرّني من زيقي ليحييني، كما كان يقول، وهو يتابع حديثه بهدوء: «والانسان، مثله مثل اي كائن حي آخر، أو حتى مثل أية مدينة (!) يمكن ان يقع في العبودية في اية لحظة. في اية لحظة من لحظات الغفل التاريخية التي لا خلاص لنا منها الا باليقظة الثورية المستمرة»؟ كان يتكلّم وعيناه تَلوزان في الفضاء المحيط بنا بلا توقف؟ لكأنه كان يتوقّع هجوماً علينا. هجوم سيجعل منا على الفور عبيداً، وإلى الأبد. عبيد بلا أُفق من الحرية التي كان يريد ان يكون شهيدها. ولا يريد.

ذلك اليوم، احسست ان العالم، كله، تغيّر إلاّ هو. إلا هو منذ ان عرفته. ولأتأكّد من احساسي الطاغي، هذا، ارسلت نظرة سرية إليه وأنا أتصنّع النظر الى المجهول. كان يقف في سكون المساء الدمشقي بمعطفه الاصفر الباهت اللون، وبحذائه المطاطي القديم، وبحزمة الاوراق المجهولة المحتوى، والتي لا تفارقه، ابداً. كان يبدو غريب الهيئة والاطوار. يكاد يرتجف بالرغم من سكونه الخاشع فوق الارض. ظهره يرسم قوساً بلا قزح. لكأن هموم العالم، كلها، ركبت عليه؟

كنت احسه لا يتلذّذ بالدنيا بل يتحمّل عبئها، فحسب. يأكل ليبقى على قيد الحياة لا ليتمتّع بما يأكل. لا يعرف لذّة الجنس، ولاحرارة التفكير الذي يدّعيه؟ أي شقاء انساني اكبر من هذا؟

ووجدتني أتساءل بحرقة، وكأنني انا المعني بالامر: لكن لِمَ يصرُّ هذا الكائن البائس على التنظير لسعادة العالم، لسعادته المقبلة، ناسياً تعاسته الشخصية، الآن؟ ولِمَ يحمِّل نفسه (ويحمّلني) عناء مشقة بلا نُتوج؟ مشقة السعي الآسر من اجل «النضوج». «نُضوج جذري» قد يحصل، ذات يوم (كما يقول) مع انه، بالتأكيد، لن يتمّ، ابداً. كدت اسأله العَوْن، لكن الرعشة الدمشقية اللذيذة، رعشة المساءات الرطبة المعطرة بالياسمين، أبعدتْني عن كل سُؤْل.

[٢]

كان مساء دمشق بديعاً، ذلك اليوم. الجو لطيف، مشبع بروائح اللذة الخفية. متعة الكائن تبدأ منذ ان يجيل النظرحواليه. وكانت السقيفة (التي اجتبَيْناها) تغص بالقاعدين، وبالقائمين. بالذين ينوون وُلجوها، وبمن هم على أهبّة الخروج منها. لكأن دمشق، كلها، انحشرت فيها، في تلك السقيفة التي راودتنا عن اهوائنا ليلاً بعد ليل. فيها اكلنا، وشربنا، وتحايَلْنا، وكِدْنا، وكيد لنا، و...

كانت الناس تتسابق بمرح وسرور، ذلك المساء. وكانت تلك مزية دمشق الاولى. مَنْ ينكر ذلك إلاّه؟ وَمنْ غيره يستنكره، وكأن الناس ينهبون مرَحَهم من «حُبوره»؟

وإلاّ لِمَ كان يظل يتساءل، بامتعاض، في وجهي: من اجل اي شيء تتراكض هذه الكائنات في مساء المدينة الجميل؟يتساءل باصرار عن «المحرِّضات العميقة» لحركتها المستمرة، مع ان ذلك لم يكن عصيّاً على الفهم. وكيف لي ان اجيبه وانا لا ارى حتى اصابع قدمَيَّ؟ أكان عَلَيَّ أن أفرَّ لأصبح حرّاً؟ حرّ في الفهم وفي السلوك، وفي هذه النقطة بالذات يحيا الكائن او يموت؟ أن «اهرب»، إذن، لأحيط بذلك الفضاء الذي لم أُدركه وانا غارق فيه؟ اللعنة!

ذلك اليوم، تلقانا «ابو معروف» بشوشاً، كعادته. لكأنه كان ينتظر وصولنا "بفارغ الصبر"، كما يقولون؟

هدأت الضجة منذ ان أطلّ وجه بكر. وجهه الممتلئ بالتعابير. تكاد قسماته

ان تتكلم، مع انه لا يفعل ذلك الا نادراً. نادراً جداً.

كانت الطاولة المركزية معدة لاستقبالنا، كالعادة، ايضاً. غطاؤها الاخضر المشجّر بالبني والاصفر الذهبي يعطي للمكان بهجة أخّاذة. كان «الدامِسْكو» الجليل يعكس ضوء النهار الغارب ليضيف، الى العتمة البادئة، نوراً من الوَبَر والحرير. طاولة أُبَّهَة، بدت الطاولات الاخرى الموزعة حولها وفق نسق لا يعرف سره إلا «ابو معروف»، وحده، انعكاساً باهتاً لها.

ومع ذلك، كانت تغص بالجالسين؟ برجال بلا نساء. عيونهم ملأى بكرب خفي. لكأن تجاور الرجال «العُزّل من النساء»، وحده، يكفي ليبعث الكآبة في النفوس. كآبة الجسد الواحد: الجسد الذي فقد، بلا مبرر، بواعث الرغبة والتَّماس.

بعد قليل من وُلوجنا المكان عادت الضَجيجَة كما كانت؟ لكأن احداً لم يدخل، ولم يخرج احد، قط. وعلى الفور، رأيت عثمان يتجاوز بنظرته النارية وجوه القوم القريبين منا ليصبّ نظره الخَليس على الوجوه الأبعد عنا. وجوه الجُلَساء الاكثر عنتاً وشغباً، كما حسبت.

وعلى الفور، احسست أن عليا يلاحقه بنظراته التي لم تكن لتهدأ منذ ان ولجنا المكان.

كان يتململ في جلسته وكأنه يقعد على جمر.وبلاحيطة، أمال عثمان رأسه جهة عمر و همس في اذنه، بتواطؤ: «اولئك هم الذين حدثتكَ عنهم». ومنذ قال ذلك سكت. سكت وكله انتباه، منتظرا رد فعله. اما عمر فقد مضغ الكلام كما تمضغ الافعى، بلا غَصَصٍ، بيضة القطا. لكأنه لم يسمع شيئا مما سمعه جيداً، بالتأكيد.

صار علي يرتجف. يرتجف ارتجافته المعهودة عندما يسوؤه الامر. ولَكَمْ ساءه تسارر عثمان وعمر. ولا بد انه حسب الامر اكثر خطورة مما هو عليه، وإلاّ لمَ تراه صار يحكي لنفسه. يحكي لها دون ان يفقه احد مما يقول شيئاً. كان الضجيج الصادر عن «اهل الطاولة» الذين رمقهم عثمان بنظرته الخارقة، والذين بسببهم مالَ هامِساً الى عمر، هو الذي يمنع الفهم والقبول. ضجيج غريب

وصامت مع انه يلحُّ على الخلق بالاصغاء إليه. لكأنهم قد خططوا لذلك الضجيج وتبنّوه.

كنت اسمع، وأرى، ولا أفقه شيئاً؟ لكأنني استُنْبِتُّ في تربة غير تربتي، نامياً في مكان غير مكاني، ومتحمِّلاً سوء وضع ليس «وضعي»؟ كنتُ مثل عشبة بَرِّية زُجَّتْ بين اشجار هائلة لا تعرف عن عالمها شيئاً، وليس لها إلا الالتصاق بحماقة وحيوية بها، الالتصاق الذي يحميها من الموت؟

كنت احسُّ انني عشت هذا من قبل، ومع ذلك، لم ازدد معرفة به، ولم ادرك من خصائصه وضوحاً؟ وذلك هو، تماماً، معنى «الغباء التاريخي» الذي ظلّ يحذّرني «ابن الوراق» منه. غباء الارتكاس ذي البعد الواحد: بُعْد الرؤية البسيطة، والسمع البليد، إزاء وضع لا يكفُّ عن التبدّل والتغيّر حتى ولو بدا في غاية الوضاحة والنَيْل. على حد قوله.

كانت اصوات «اهل الطاولة» الندية تختلط في رأسي بأصوات اخرى. اصوات لم اكن اعرف لها سِرّاً ولا سبباً؟ اصوات مثل عيدان القطن المرمية في التراب؟ لمن كانت تلك الاصوات اليابسة إنْ لم تكن لاهلي؟اهلي الذين تركتهم مبعثرين في الحَماد. يلوكون اعشاب البَرّ ليوفروا بعض الماء. الماءالنادر مثل قُطَيْرات بول البعير الناحل. يأكلون الرُغْل والكُرُمّ والحَيْلَوان كالانعام. اهلي؟ ولكن من هم اهلي هؤلاء؟

كان «اهل الطاولة» المزدانة، تلك، يتضاحكون وكنت ابكي؟ ولكن، لِمَ كنت ابكي؟ «وما جدوى البكاء إن كنتَ تعرف سرِّه»؟ أوَلَمْ يقل هو ذلك. كانوا يتندّرون، علناً، على الملأ، وكنت اتحاشى النظر، هَيْبَةً، الى الكائنات. عجباً؟ أيّ سحْق كنتُ أُعانيه، ذلك المساء الرهيب؟ كنت استعيد، صمتاً، كلمات «ابن الوراق» التي حفظتها جيداً دون ان تستعيدني من الانهيار. من انهيارآسرٍ بلا جدوى. لكأن الحياة التي كنت اعانيها ليست اكثر من اضحوكة. من اضحوكة في فم القدر. القدر الذي لم يكن سوى افواههم الفاغرة امامي: قدر الرعية المهملة التي انا منها.

كنت اعرف انهم يغالون «في تندرهم المعلن»، ولن يصدمهم الا شعور الاحتقار لهم، كما كان يقول. ولكن أنّى لي ان اطبّق، آنذاك، مقولته التي لا تنسى: «الاحتقار اقوى من غطرسة السلطة»! تلك المقولة التي كنت انتظر ساعة تطبيقها، منذ زمن طويل. لَكَمْ رددها امامي مُرَكِّزاً على كل حرف فيها، مُؤَمِّلاً ان اتعلّمها (وان أتكلّمها) ذات يوم. ولكن، من اين لي، ذلك المساء، بمثل هذا الشعور؟

سريعاً، صارت تلك الاصوات العابثة تدقُّ نواقيس الهبال في رأسي. كنت اشعر ان النوبة لن تتأخر كثيراً، ذلك اليوم. كنت اخشى إنْ جاءت ان تدَمرني في حضورهم، ألاّ تمر بسلام، هذه المرة، مثل نَقيط البول الطافحِ من شدّة الحَصْر. ولكن لِمَ كانت تلك الاصوات تمعن في تعذيبي، وفي تأجيج نار كراهيتي لنفسي، لا لهم، فحسب؟

ماذا كانوا يقولون؟ كدت اسأل علياً. لكن اللحن الذي كانوا يتناوبون على ترديده لم يدع مجالاً لسائل. لَحْن لم يكن بحاجة الى شرح. كان يكفي ان أتذكَّر لكي افهم. لأفهم كل شيء؟ كل ما لم اكن قادراً على فهمه، من قبل.

كان علِي يصفرُّ ويَخْضَرُّ وهو يدُقّ الارض بقدميه. يدقُّها مستمعاً اليهم بقَرَف شديد. حتى انني صرت أتساءل في اعماقي: إنْ لمْ يكن ذلك، كله، قد رُتِّب من اجل إزعاجه، وتهديمه. كان يبدو كبنيان عتيق رُصِفَتْ مادته من طين. من طين ناشف بلا يقين. بلا يقين غير يقين قلبه المحشوّ بالضَّغين.

في ذلك الخليط المرتجف من البحح والصوت، من يدلُّني على الطريق: طريق النبْهَة والإدراك؟ وما جدوى ان يدلّني الدالول، وقد صرت اعرف، الآن، ان أوان ذلك قد فات؟ فمن لا يدرك الأمور في حينها لا جدوى من ادراكه المتأخر لها، حتى ولو كان صائباً؟ ولكن، من اين لي بهذا اليأس الطاريء و«ابن الوراق» يؤكد لي (ولنفسه) العكس، كل يوم؟

حتى عثمان الذي كنت احسبه مليئاً بالمكروالتخطيط، بدا وكأنه، هو الآخر، قد أُخذ على غفلة منه؟ لكأن «الوضع» كان محشواً لا بالريبة، فحسب، وإنما بالألاعيب، ايضاً. كان ينظر (مثلي مستاء) الى غطاء طاولتهم وقد تلَوّث بالشراب

وبنُثار الاطعمة والمصارين، دون ان افقه من نظرته الحائرة شيئاً؟ كان ذلك «الغمام» الذي يغلّف نظرته هو الذي يخيفني ويغريني.

كان يُباعِد بين رأسه وبينهم لئلاّ يرى منهم أثَراً، وهو الذي يريد ان يرى، عادة، كل شيء؟ اية ضغينة، كانت تملأ نفسه، آنذاك؟ وأية رغبة، غير رغبة التدمير الحاسمة (التي يعتقد بأنها الحل الوحيد الناجع عندما لا تعجبه الحال) كانت سترضيه؟

اما عمر فقد بدا شديد الاضطراب. كان يملأ شدقيه هواء وينفخه بحركات غير ودية، وكأنه يريد ان يمحوهم من الوجود، وعلى الفور. وهو ما أثار حفيظة بكر (كما خطر لي) وقد بدأ النوء يتغيّر في دواخله.

كنت ارى، اكاد ان ارى، هذا التبدّل المخيف في عينيه. عيناه اللتان لم أرَ، ابداً، لونهما، من قبل. أية حماقة أخذتْني، آنذاك، الى مقلتيه؟

وكأنه استحى من غضبه العنيف الجامح، خَلّى شبح ابتسامة تعاود الظهور تحت جفنيه، عندما قاربته لَمْحاً.

أيكون ابتسم رأفة بي، واشفاقاً؟ وعلى مَنْ سيشفق إنْ لَمْ يكن عَلَيَّ؟ على الرجل الذي بلا مكانة لانه بلا فكر. ولأنه بلا فكر فهو بلا موقف. بلا موقف يقتضي منه التمرد (ولا الانصياع، حتى). إنه سائبة بلا شائبة؟ ألا يستحق، ذلك، كله، بَسْمة الرحمة قبل الموت؟

وكأن ذلك، كله، لم يكن يعني «اهل الطاولة» المبللة بالضحك والعراقيل، ظلّوا يترنّمون بلحنهم المثير للمقت والنفور. لحن سيصحبني، معذِّباً، إلى أمد طويل.

كانوا يتهازون، وهم يترادون:

"نحن سحقنا ثائر السوق خُرَيْس بن عبادةْ"

"عندما حَضَّ على العدل وبالتغْيير نادى"؟

"نحن نحن... نحن نحن..."

كسر طَوْق تلك الحركات العصابية صوت بكر، وهو يسأل بإلحاح (وكأنه من كوكب آخر):

-مَنْ هم هؤلاء النَفَر، يا عمر؟

تمَهّل عمر كثيراً قبل ان يجيب. لم اكن ادرك الحكمة في تأخره عن الإجابة مع ان بكراً كان ينتظرها بنفاذ صبر.

أكان يطمع في جواب من عثمان الذي بدا وكأنه، هو الآخر، في حيرة من امره؟ وللحظات بدت الاشياء وكأنها تغيرت، وغيّرت ركائزها الأحداث؟ وقبل ان اتوصل الى ادراك ممكن، جاء صوت عمر ليّناً وخَذولاً:

- هم بعض طلائع دمشق، يا بكر؟

- طلائع دمشق، وهم بمثل هذه الخِسّة؟؟

ردّ بكر وقد ركبه الغضب، علَناً. ولانه لا يحب التسامح الكاذب، ولا الممالأة، أزاح رأسه عن الجهة التي هم فيها، حتى صاروا لايُرون منه (وكأنه بذلك سيتخلّص من عبء إدانتهم وعقابهم، على حد قول ابن الوراق اللئيم). ومثله، فعلنا صاغرين، واولنا كان عثمان (الذي محاهم، ربما، من الوجود قبل ان يمحوهم من ذاكرته الخبيئة). وبدلاً من ان يتمتّع بالريح التي اخذت تهبُّ من الغرب، ريح المساءات الدمشقية اللذيذة، صار بكر ينظر الارض بين قدميه. ينظرها بصمت، وقد تَلَبَّسه قلق مخيف؟

الفصل الثالث

[١]

- اين نحن، الآن، ياعمر؟

- نحن على مفترق الطرق، يا بكر.

كان بكر يَتَلَوّى، وكأن به مغصاً لا رَواح منه. كان يتطلّع الى الفضاء المحيط به بعدائية واضحة، وكأنه ملوّث بالدم.

ذلك اليوم، عندما ابدى رغبته الصارمة في زيارة الاسواق، من جديد، وكأنه بذلك سيرد الرد المناسب والحاسم على طلائع دمشق وعُلوجها، اولئك الذين تغنّوا في السقيفة بتمزيق ورقة الاخرس وبسحقه، لم يبد أيّ من «الرَبْع» تحمّساً لذلك، مع انهم لم يجرؤوا على الاعتراض عليه، ايضاً. وهو ما حدا «بابن الوراق» الى ان يعلّق بلئامته المعهودة: «كيف يسيِّر امور الناس منْ لا يمكن الاعتراض على رغباته واهوائه»؟

لا، لم يكن بكر في وضع يسمح لأحد بالاعتراض عليه؟ كان التجهّم البادي على قسماته لا يُنْبيء إلاّ بالاضطراب. باضطراب قاهر لا يحتمل. ولكن، أي اضطراب كان يتخلل احشاءه ليبدو، هكذا، للعيان؟

كنت أتمَلاّه، ذاهِلاً، وانا استعيد، بالرغم مني، كلمات «ابن الوراق» العتيدة: «الحاكم بحر، او هكذا يجب ان يكون. بحر لا تعكّره الريح العارضة، ولا تُلْهيه القُرْبى عن القصاص». والذي كان يضيف مُتَبَهْوِراً باستياء: «ولكن، أنّى لنا بمثل هذا» ذلك النهار، تَصَدَّر بكر أبّهة الضوء بتصميم، وقربه تحَلَّقْنا ممتثلين. كنا نتداور حوله مثل افراخ القطا في الحَماد، تلك التي كنت اصيدها بنعومة وعلى الجمْر اشويها. اشويها وانا أُثرثر معها بلا انقطاع، وكأنها بحاجة الى كلماتي. لكأنني اقدّم لها خدمةبذبحها والتهامها، وإلاّ فمن اي لَحْمٍ ساكل، ومن اي ُجْرن شأشرب، لولاها؟ كان وجودي مرتبطاً بوجودها، وحياتي بموتها، تبّاً لها من

حياة؟

ذلك اليوم، وقف بكر وقفته المشهودة بجلال. وقفها في قلب الفضاء الدمشقي وهو يتساءل بامتعاض (اين نحن الآن..) مع انه كان يعرف الجواب، سلفاً، (كما صرت اعرف). لكأنه بسؤاله المغرض، هذا، كان يريد ان يتخلّص من أذى حلّ، عنوة، عليه.

كان يتساءل، وهو يتملّى المكان حوله بحنين، وكأنه لن يراه الى الابد؟ مكان حَدَّد هو، نفسه، عتبات حريته ورُؤاها. حدّد موانعه ومَسامحه. وقَنّن اطروحات تجاوزها وحدود خَرْقها، ايضاً. لِمَ كان يتساءل، في وجه العالَم، بمثل ذلك الارتباك، إذن؟ أيكون الكذب على الذات امراً مغرياً حقا؟ أيكون الكائن، ايّاً كان، سَهْل الارتماء الى هذا الحد في احضان «التجاهل» عندما يناسبه الامر؟

كيف لي، بعد الآن، الركون الى ما ارى واسمع؟ الى ما احب واكره؟ الى ما أُناصر وما أُناحِر؟ كيف لي ان أثق بالضوء وبالصوت؟ اللعنة؟

في ذلك الجو من التوتّر والاضطراب، رَدَّ عمر بهدوء ولكن بتصميم: (نحن على..)؟ رَدَّ بتَهَيُّب وحذر وكأنه يزن كلماته لئلاّ تسقط منه على القاع. ومع ذلك، كان نوع من الرعب الخفي يملأ نفسه. نفسه التي بدت وكأنها تريد التخلي عنه، وهو يرغمها على الصمود. يرغمها، متمثّلاً قول "الخارجي" الحكيم: «اقول لها وقد طارتْ شعاعاً من الابطال وَيْحكِ لا تُراعي. فانكِ لو طلبتِ بقاء يومٍ عن الأجل المُسمّى لن تُطاعي. وما للحَيِّ خير في حياة اذا ما عُدَّ من سقط المتاع».

ووجدتني أتساءل مضطرباً، أنا الآخر، وكأنني أُصِبْتُ بالعَدْوى، بعدوى الرَعْبَة والخوف: أيّ القسمات في الكائن يكشف عن الكذب؟ وأيها يشفُّ عن الصدق؟ أتساءل صامتاً وحزيناً وانا أُلاحق الارتكاسات. ولكن ما جدوى تساؤلاتي، وانا طَيِّع وخَنيع؟

وفجأة، تدخّل عثمان. تدَخَّلَ شارحاً، بلطف كبير (دون ان يطلب منه أحد ذلك) قاطعاً تساؤلات مَنْ قد تُسوِّل له نفسه التساؤل:

– من هنا (وأشار الى يساره) اسواق الحرفيين: الحدادين، والحذّائين،

والخَشّابين، والنجّارين، والدبّاغين، وبائعي الخردوات، وذوي الاسمال، والقَمّامين، وغيرهم.

ومن هنا (واشار الى يمينه): اسواق الصيّاغين، والجوّاخين، والذهّابينَ، واهل النقد والورق، وخَزّاني الفول والحنطة والشعير، أهل العَلَف والسلَف. وبعد ان تنفس قليلاً تابع بنوع من الاجلال: وهم التجار على اختلاف مذاهب تجارتهم، تجار دمشق الذين هم عمادها وركنها الأساسي.

وبعد ان سكت قليلاً، أضاف، بنوع من التحدي المعلن: وإنْ رأى المغرضون الامر على خلاف ذلك.

صار علي يمد اطرافه بعيداً عنه، ويلمّها باستياء إليه. لكأنه يريد ان يلفت الانظار الى ما كان يملأ احشاءه من كلام. من كلام لم يعد قادراً على حَبْسه. لكأنه صار يريدهم ان يروا ما كان يراه هو، وحده، دون غيره من الناس. حتى انني سمعته يتمتم دون ان افهم مما كان يقول شيئاً؟

لم تكن تلك هي المرة الاولى التي يفوتني فيها تفسيره. إلا انها كانت «المرة الأساسية» كما احسست. ووجدتني ألوم نفسي حانقاً، مردداً قول «ابن الوراق» القديم: «كيف يمكن ان يكون المرء غبيا الى هذا الحد»؟

كنت اعرف انني لا زلت بعيداً، بعيداً جدا، عمّا كنت اطمح الى الوصول اليه، إلاّ ان ذلك لم يخفف من كربي شيئاً. ولاول مرة شعرت ان «نقطة الوصول» (إنْ كان ثمة وُصول ممكناً، اصلاً، كما يقول) لم تعد تهمّني بقدر ما صار يهمّني السبيل اليها، والسَيْر فيه.

وسط ذلك الحصار، احسستني وحيداً ومعزولاً؟ أتطلّع من وجه الى وجه دون ان التقي بتعبيريفرج الغم عن نفسي. لا، لم أكن مهيّئاً، بعد، لاستقبال المعارف والافكار التي كانت تتطاير حولي. تتطاير في الفضاء معلنة عن كل شيء: عن كل ما كنت احسبه خبيئاً وبلا قرار، وهو لم يكن سوى البداهة، نفسها؟ ولكن..

وكأن بكراً لم يسمع مما قيل شيئاً، سأل عمر من جديد، سأله بتَروّ كبير وكأنه في حيرة حقيقية من امره:

- ومن اين تريدنا ان نمشي، الآن، يا عمر؟
- الطريق التي تسلكها، هي طريقنا، يابكر.

قال عمر على الفور وكأنه قد حضّر الجواب من قبل، وإنْ ظلّ بكر واقفاً في مكانه بلا حُروك. ماذا حدث من بعد؟

احسست ان عثمان يريد ان يسحبنا، اولاً، الى سوق الصاغة والمرابين، اهل النقد والعقد، وجمّاعي المال والاهوال (على حد قوله) إذْ رأيته يقوم بحركات مدروسة لا تترك مجالاً للافلات منها. وقامَ علِي، على الفور، بغيرها؟

ملأتني افكار وتصورات. ملأتني أفاهيم شتّى حوله، وحولهم (وحولي). كنت اريد ان ألمَّ، خلال لحظات (هي من التسارع والفَوْت، بحيث لايمكن لأحد ان يلمّ، خلالها، بشيء) باشياء كثيرة. اشياء كانت قد فاتتني منذ امد طويل.

بمَ كنت اريد ان ألُمّ، إنْ لمْ يكن بأحداث حياتي البائسة التي لم يلتفت احد اليها، حتى ولا انا، نفسي؟ وهل كان بامكاني ان افعل ذلك،وانا لم اكن إلاّ منفعلاً ضئيل الشأن؟ ومع ذلك، كان علي ان احاول، كما احسست في تلك اللحظة الهادرة كالبركان.

وكأن علياً أحس بتشابكي مع الحالات والاحداث، التصق بي، فجأة، وهو يكرر: «لقد فَقَدَ كل عفوية انسانية، هذا العثمان»؟ ولما رأى علائم السرور ترتسم على وجهي الذي كان غائماً ورَبيطاً، أضاف بحرص على التساررِوالتوادد: «انه يخطط لكل شيء، لكل ما يفعله، ولما لا يفعله، ايضاً». وبعد ان تنفّس بسرعة، اكمل حانقاً: «إنه يخطط حتى لتغوطه»! ولا بد انه رأى علائم ابتسامة متواطئة ترتسم على شفتيّ اليابستين،إذْ تابع بجدية صارمة، هذه المرة: «بعفويتنا الانسانية، علينا ان نقاوم تخطيطاته اللعينة». آه! أخيراً، نَطَقَ؟ قلت في صمتي، وانا اكاد ان أنطّ، فرحاً، في الفضاء.

لست ادري أي شغف ملأني، آنذاك، إذْ وجدتني أناديه بصوت عَطوف (وكأننا رِبْعَة حقاً): علي؟ بلى؟ ناديته بصوت خَفيت متودداً، مقلداً صوت «ابن الوراق» عندما ينادي احداً يجلّه. وعلى الفور اِحْتَرفَ إليّ سعيداً، ومتعجّباً، وبنوع من

الفضول والتلذّذ، سألني: تناديني؟

بقيت صامتاً. لم يكن لدي ما أقوله؟ وبقي متأهباً لسماع ما كنت اريد ان اقول. لا، لم اكن بحاجة الى القول ليُدْرِكَ هو ما لا يُدرَك.

كان اصغاؤه، وحده، كافياً، كافياً لادراك كل شيء. لادراك كل ما كنت اريد ان اقوله دون تورّط بالشرح. ولقد احسستُ، فعلاً، احسست إنني قلت له، صَمْتاً، كل ما كنت اريد ان اقوله. كل ما خبّأْته منذ سنوات. منذ اول لقاء عاصف بالقلب.

[٢]

في تلك اللحظات المنفلتة من المعقول، كاد بكر (ومعه عمر، يسبقهما عثمان) ان يتوجّهوا الى اسواق الصاغة والجَوّاخين و.. (وقد توجّهوا فعلاً) رغم إلحاح علي، وتهيُّؤاته، لجرّهم الى اسواق الحرفيين واشباههم. لكن الضجة المباغتة التي غزت فضاءنا، على غير انتظار منا، هي التي عطَّلَتْ كل شيء.

وكأن بكراً توجّس خيفة (لم اعهدها فيه) توقف عن المسير، فوراً، وهو يسأل:

– مَنْ هم هؤلاء الخلق، يا عمر؟

– هم اهل الحرفة والفاقة، يا بكر.

قال عمر مُرادِداً، وكأنه في اللحظة الحرجة تلك، غدا شخصاً آخر. ولما رأى العجب يركب وجه بكر، وكأنه لم يفهم مما قال عمر شيئاً، اعاد عمر الكلام بتواطؤ شديد:

– جاؤوا اليك خشية ألاّ تجيء انت إليهم.

– وهل حدث ان خذلنا أحداً، يا عمر؟؟

قال بكر بلا تردد او مواربة. لكأنه الغيم وقد أثْقَله المطر. صمت عمر. وارغمه على الصمت تكاثر الخلق حولنا بسرعة ادهشتني. لكأنهم النمل وقد دعته حاجة قصوى الى الخروج من غيرانِه.

لكأنهم كانوا معنا على موعد مسبق وفي هذا المكان. في هذا المكان الضيّق. في قلب السوق القديم، حيث تبدأ الاسواق، كلها، من بعد.

في خضم تلك الجموع الغائرة علينا من كل نحو كيف لي ان اظل آمنا في مكاني؟ وأي وقاء يمكن ان يحميني من إغواء الحركة ومن اهوائها؟ من اين سينبثق العنف؟ وكيف سيكون لونه ومداه؟ كنت اتساءل عن ذلك في قلبي. في قلبي الذي امتلأ بالتوتّر والاضطراب.

ولاول مرة لم يكن توتر الخوف هو الذي سَدَّ عَلَيَّ منافذ روحي! كان توتّر غريب لم آلفه من قبل. أيكون الالتحام المفرط للعالم حولي هو الذي أرعبني وأدْماني؟ أيكون العنف المعلن في ذلك الفضاء الممتليء بالسكون وراء ذلك، كله؟ من يدري؟ ولِمَ يتوجب وجود احد يدري على الدوام؟ أحد ليس أنا؟؟ اي غباء يسكن نفس الكائن الذي هو انا، ويخويه؟ وأية بلادة انسانية تدفعني الى تكرار الاسئلة التي بلا اجوبة ولا نوع؟

لا؟ فلأنظُرْ حولي، ولاسكُتْ (صرت احض نفسي التي بدأت تلتهب). اسكت ريثما تأخذ الامور مسارها. ريثما تكتمل صَيْروراتها التي لا يمكن تلافيها. لعلّها تنحسم امامي، وعلى الفور. وبالفعل، وجدتني أتَحَرَّفُ حولي باحثاً عن الانفجار. عن الكائن الذي سيسوق الليل الى مهاويه. ولكن، أي حركات المرء يُنْبيء عن المخْبوء؟ وأي شغف يدفعه الى ارتكاب المحظور حتى ولو كان منظوراً؟

كنت اعبر من تساؤل الى آخر بلا توقّف، وانا ابحث في بحر البشر المتلاطم عن علي. اخيراً، رأيته وقد كان لصقي؟ كان يَعدُّ خطواته التي لم يُعدْ يخطوها (من كثرة الألسن والعيون). كان يتململ في مكانه مستريباً، شاهلاً رأسه وكأنه يتناوق نحو الغيم؟ كان وجهه مليئاً بالتمتمة والغضب؟ لكأنه أيقَنَ، هذه المرة، بان ما كان ينتظره قد حان؟ كما خطر لي، فجأة؟

كان الرعب الحشوي الجليل، رعب التحرر المفاجيء من البلادة والخوف (مثل من يرتكب غرقاً لا نجاة فيه) هوالذي فتح، في تلك الحظات المليئة بالحذر والاسرار، منافذ نفسي، وافواه قلبي الغافية، على العالَم. وهو الذي تكفّل، آنذاك، بشرح كل شيء لي: بشرح ما لا يمكن لأحد شرحه لآخر.

ذلك النهار، ضاق الأفق سريعاً، وامتلأت الدروب. وكبر الجَمْع. كَبُرَ وهو

يقترب منا، اكثر فاكثر، حتى كادت المنافذ ان تنسدّ في وجوهنا. كانت جموع الحرفيين، واشباههم، تنهمر انهماراً علينا. من اين كانت تنبع تلك الوجوه المُتّسعة بالضيق؟ ماذا كانوا يريدون؟ وأية غاية يتوخّون؟ كدت أتساءل بحماقة، من جديد، وكأنني لست من هذا العالَم؟ من هذا العالَم الضالِع في الكَيْد.

وكأن عَلياً كان داخل رأسي، قال برصانة: «اهدأْ؟ سنعرف الامر في الحال». وفعلاً، هدأْتُ. هدأت حتى عن التفكير. لكأنما كان بامكاني ان افعل شيئاً غير هذا!

ومع ذلك، كدت اسأله بفظاظة (بفظاظة لم اعهدها في نفسي): ولكن، لِمَ لا تقول شيئاً؟ وكأنني سمعته يردد في صمته الذي غدا كلاما: «الفتنة لا تحمد عقباها»؟

لم يدع «ابن الوراق» الفرصة تفوته، فعلّق بلئامة وخبث: «هو ذا، تماما، علي؟ لا يمكن له ان يتجاوز حاله القديمة، حتى في الوضع الجديد». وعندما رآني أتفَجّر تساؤلاً، اضاف: «والفتنة، احياناً، تُحْمَد عقباها»! وقبل ان يرتدّ إليّ طَرْفي، صار يَتَمَلّصُ مني (ليزيد في رغبتي الى استماعه). يتملّص وهو ينظر بحمأة الى الناس. ينظر إليهم بحنق وكأنه يريد ان يَخزِهم "ليثوروا"، مردداً في وجهي الذي امتلأ شُحوناً: «كيف يمكن إخراج الكائن من القمقم الذي انحبس فيه منذ دهور؟وإنْ خرج (وهذا مانتمنّاه ونتوقع حدوثه قريباً) فمن باستطاعته ان يعيده، من جديد، اليه»؟

صامتاً ورَتيباً، كنت استعيد كلماته التي جرحتني في خُنوعي. استعيدها وانا ارى الى الوجوه. وجوه الصافنين، ووجوه الواقفين حولنا بخشوع منتظرين اللفتة الاخيرة منا. آه؟ «لَكَمْ هو مضحك وجه الكائن الباحث عن الرأفة والعون»! قال وهو ينظر من طرف خفي إليَّ.

ولكن، لِمَ تراه قال ذلك؟ ولِمَ قاله الآن؟ أيكون قد قاله ليقنعني بأن انتظار العطف من الآخر لا يعني الا التسليم الكامل بهزيمتنا التي لا جدوى منها (وهو الذي يؤكد ان الهزائم الحقيقية اجدى من الانتصارات المزيفة)!

أم كان يورده حِجّة لا تدحض على ان الكائن لا بد ان يدرك، يوماً، ان التمرد

لا بد منه للخلاص من القمع الذي يرزح فيه؟ عجباً «لابن الوراق» هذا الذي يزعم ان البراهين لا تهمّه، كيف يصر، احياناً، على ضرورة «البرهان على ما لا يحتاج الى برهان»؟

وعندما سألته عن مبرر تلك الضرورة، أجاب: «لأن الناس غالباً ما تكتفي برؤية ماتراه، دون ان تسعى الى ادراكه»؟ وبعد ان آمن صمتي وإصغائي، تابع: «والمكشوف، احياناً، هو المخبوء، بعينه»!

ماذا كان يريدني ان افهم من ذلك؟ ومنْ هم الناس الذين عناهم، إنْ لَمْ يكونوا، أنا، نفسي؟

[٣]

من قَعْدته وقَفَ بكر. وقف سُلْطةً، ذلك اليوم. وَقَفَ بتأثير الجموع التي انهمرت علينا متدافعة كالسيل. لكأنه قامَ يحييها؟ حوله تجمّعْنا بسرعة، وكأننا نريد ان نحميه. ان نحميه من أذى قادم من بعيد مثل برق قصي لا تعيقه المسافة عن الوصول. برق لم نعد قادرين على تلافيه، على تلافي صَعْقته وقُروحه. قُروح الوجوه المستاءة المتربّصة بنا، هذه، مثل وجوه الذئاب الخاتِلَة على العَيْن.

لا، لم تكن تلك، هي، اول مرة، التقي فيها بجموع السوق الهائجة، هذه، إلاّ انها كانت الأكثر إرْعاباً لي، والأبعَد أثراً في نفسي. «يريدون خنقنا»! صرتُ أفكر وانا اشحذ النَفَس بصعوبة. وكان ذلك سبباً اضافيا لتمكين القلق مني. كنت اكتشف (لاول مرة؟) سَطْوَة الجُبن عَلَيَّ. وكنت احسبني شجاعاً (يا للخيبة)! أي سرّ يفتن الكائن عندما ينظر الى ذاته؟ ولِمَ تراه يُزَيِّف صفاته وهي واضحة للعيان؟ وفي النهاية، مَنْ أنا لأخاف من هؤلاء؟ أولَستُ، أنا نفسي، واحداً منهم؟ من أولئك البشر الواقفين كالبهائم الظامئة وقد حان أوان إسقائها وليس في الجُبّ ماء! لِمَ لا يكون لهم الحق في تغيير ظروف حياتهم؟

ولِمَ عليهم ان يتحمّلوا الظمأ والضباب؟ والى اي مصير سيُساقون إنْ لَمْ يَعْفُصوا الآن، وفي حضرة القائم بالاعمال (او القائم بالإهمال، على حد تعريفه)؟

ولكن، مَنْ يدرك أصراف الأمور وتطوراتها؟ منْ؟ غير من ادرك الامر من قبل؟ كما يقول.

ذلك النهار، كان عَلَيَّ ان اكتشف ان النظريات كلها مبنية على الخلل، بما فيها نظريتة البائسة هذه. وكان ذلك الاكتشاف المُبَعْثِر يملؤني بالسعادة. وكنت اكتشف ايضاً (او احس، لا فرق) ان السعادة لا ثمن لها. تكاد ان تكون مجانية ولا احد «يقتنيها»؟ أي بؤس كان يلفّ الفضاء الدمشقي آنذاك غير بؤس الرَكْدَة والسكون؟ ما هَمّني من ذلك اللَّغْو، كله، إذن؟ كان عَلَيَّ ان انظر، وان اسمع. ان انظر ما لا يُرى، وان اسمع ما لا يُقال (أوفلأُحاول، على الأقل)!

وسط ذلك الضجيج الحافل، كان بكر يتطلّع بهدوء الى الناس. يتطلّع بتواطؤ إليهم وكأنه لم يكن ينتظر إلا اجتماعهم الحاشد، هذا! لكأنهم جاؤوا لتحيته ورضاه، لا ليعبِّروا له عن استيائهم؟ كانت الرصانة تهيمن على قسماته، ولا تفارق الرزانة فضاءه المتّسم بالجلال. ولم اكن افهم، آنذاك، كيف ظل محتفظاً بهدوئه رغم ذاك الصخب الذي يهزّ الاركان. لا، لم أكن أعرف، بعد، ان تلك هي أولى خصائص المتسلِّطين؟

اما عمر فقد كان يتفَرّس في الوجوه، وكأنه يحذّرها من اللجوء الى «ما لا يجب إلاّ اللجوء إليه» كما صرت اعرف الآن؟ لكأنه ادرك، متأخراً، حُدوث ما كان حُدوثه مُقَرَّراً، من قبل؟ ولكن كيف يمكن تجنّب اخطار الحياة وهي لُحمتها وسداها؟كما يقول علي.

وحده، عثمان بدا وكأنه أُصيب بلَجّة من التحرّك والتَحاكُك. من التحرّك في ارضه، ومن التَحاكُكِ بالجموع! لكأن افواج الناس لم تزده إلاّ تبعثراً وانتشاراً. كان القلق الذي كسى سحنته يشي بانفعاله الهائل وبنفوره. لكأنما كان عليه ان يفعل شيئا (شيئاً أساسياً، لم يعد قادراً على فعله.يا للهول)! وأي شيء يمكن فعله في ذلك الجو المليء بالشحنة والاضطراب؟

كان يتكلم، وحده. يتكلم وكأنه في صحراء، والفضاءمن حوله ممتلىءبالناس. لا، لم يكن يرى في تلك الجموع أحداً. لكأنهم ذباب بلا خطورة ولا شأن؟ لم يكن

يهمّه من ذلك التجمّع العفوي الرائع الذي هزّ مشاعر علِي (ومشاعري) إلاّ العثور على مَنْ كان يُدَوِّر عليه (او عليهم). ولكن من بامكانه ان يكون متأكداً من شيء في ذلك النهار القائظ، وقد غطس الناس، كلهم، في المشقّة؟

ولاول مرة، احسستني مغموراً بسيل من البشر الذين كنت ابحث عنهم. لكنني كنت ابحث عنهم في المكان الذي لا يمكن لهم ان يكونوا فيه (كما ساعرف من بعد)؟

أأكون أضعتُ حياتي البائسة عبثاً، في رفقة هؤلاء، إذن؟ (صرت اعدهم واحدا واحدا من عمر الى عثمان، وبالعكس).

أي بؤس يدفع الكائن الى الهرب من ذاته، عندما يجب الوقوف في رحابها حتى ولو كانت شديدة الضيق؟ كنت افكر، وكانت الجموع تئزّ، حولنا، كالنحل المنطلق في أوائل الربيع. ماذا فهمت (ما ذا كان بامكاني ان افهم، بالاحرى) في تلك اللحظات التي ينعجن الكائن فيها بالآخرين مثل ذرات الطَحين المرتوي بالماء، غير انني واحد منهم، ومثلهم ملَوَّث بالفقر والخضوع؟

برغم ذلك، وجدتني أُتمتم والقلق السخيف يحاصرني: إنْ هجموا علينا ضعْنا؟ يومذاك، لم يكن في وسعي ان ارى الامر من زواياه الاخرى. ولا ان اقيس خطورته التاريخية وجدواه. كنت من شدة استلابي مثل الرقعة الجاهزة تسد اي ثقب، وبخاصة ثقب مَنْ يحميني.

وكأنه موكل بطمأنينتي، والرفق بي، لامس «ابن الوراق» اذني وهو يقول: «لن يهجموا»؟ لكأنه كان على علم بشئونهم ونواياهم. لكنني لم اصدق مما قال حرفاً! كدت ابدأ الشك فيه، ايضاً (إنْ لمْ أكن قد بدأته، فعلاً، وكأن الخوف هو المصدر الاساسي للشك)؟

ووجدتني اردّ عليه متسائلاً بحدة، وانا اكاد ان اكذِّب مقاله (وكانت تلك اول مرة يخامرني فيها شعور قاطع كهذا): ولِمَ لا يفعلون وانت تعرف عن الوضع ما تعرفه؟

وبهدوء، أجاب دون ان يحفل بما كان يفعم ذاتي من اضطراب: «لأنهم ليسوا

اعداء حقيقين لهم، ولا هم اصدقاء». وبعد ان رمى بنظره الحسير فيمن حوله، اكمل بنوع من اللامبالاة: «إنهم جَمْع من المستائين، لا غير»؟

جَمْع من المستائين؟ وأي ضَيْر في ذلك؟ صرت أدور حولي واستدير. استدير باحثاً عن فعل حاسم يكذِّب منهجه ورؤياه. يكذِّبه علناً، وعلى الفور.

صرت احلم بالاحداث التي تنقض الأحاديث وتسفِّهها. احلم بما لم يكن يخطر لي حتى في الحلم: حدوث ما لا أتوقع حدوثه حين أتوقعه؟ ووجدتني اتساءل صامتاً وانا أترَجْرَج كالمعتوه: أوَ ليس الاستياء هو اولى عتبات الوعي الثوري، كما كان يقول؟ لِمَ تراه بدّل شئونه الآن؟

وكأنه عرف ما كان يدور في ذهني، اقترب مني حتى لامس بعضي، وهو يقول متحمِّساً (وهل كانت ضجة الخلق الذين بدؤوا الفَوَران حولنا تسمح بغير ذلك): «لان الاستياء، مثله، مثل أي عاطفة قوية أُخرى، او شعور عفوي آخر، سلاح ذو حدين»!

ولأنني بقيت صامتاً، زائغ النظر، مضطرب الاحساس، تابع بالحماس، ذاته: «فهو إما أن يدفع الكائن الذي أدرك خصائص وضعه التاريخي الى التمرد عليه، اوان يدفعه (لاسباب اخرى كثيرة) الى إعلان تذمُّره منه. اعلانه، فقط، دون سَعْيٍ حاسم الى تغييره؟ وهذا هو حال جماعتنا، اليوم».

قال ذلك بلا اهتمام. قاله دون ان يقدّم أي سند لما قاله، سوى ابتسامته الرطبة التي صارت توحي بالملل لثباتها. الملل من اسستمرار وضع لم اعد ارغب (انا، نفسي) في استمراره. وضع، صرت أتعذّب فيه بشكل مَجّاني، يكاد ان يقارب العبث، دون ان اكون قادراً على تبديله او الخلاص منه. وضعي معه ومعهم، مثلاً! أى «كذب تاريخي» كان يملأ الفضاء الدمشقي، آنذاك؟ يملؤه نافثاً فيه سُمومه التي لا تُقاوَم.

[٤]

انسللتُ كالحَيّة التي داهمتها الماء، محاولاً الابتعاد عنه. كنت اعرف ان اكتفاءه بذاته المليئة «بنفايات التاريخ» لن يدفعه الى البحث عني على الفور، ولا الى التفكير في انني قادر على فعل مضاد لرغبته. كما ان اطمئنانه الطاغي الى نفسه، سيعيقه عن الالتفات الى حيث كنت اقف ليتأكد من انني لم اعد واقفا لصقه في المكان.

كان بعقيدته الثورية الراسخة، «يؤمن»، هو الآخر مثلهم، ان ما حاز عليه سيظل ملكاً له الى الابد؟ لا،لم يكن في وضع يسمح له بالاعتراف بقدرة كائن، مثلي، على ارتكاب «حماقة» كهذه؟ حماقة الابتعاد عن مصدر الاستعباد.

كنت افكر في هذا (مستمتِعماً بلؤم) وانا اغوص في الجموع نائياً عنه. كانت تلك اول مرة أتذوّق فيها «متعة التخلّي العظيم» كما كان يقول. فبدون ذلك (كان يضيف) «لا يمكن للكائن ان يتخلّص من أوساخ حياته التي ستبَلّد ذهنه، وتُصْدِيء مشاعره، بما فيها الاكثر نبلاً». ولَكَمْ، كان، في ذلك على حق؟

كانت الحركة العنيفة، حركةالكائنات التي احاطت بالسوق وأنحائه، هي التي تقود ايحاءاتي ومشاعري. ووجدتني اقول لي (وكأنني اقول له): هذه المرة، لن استسلم لأوهامي؟ اقول ذلك بصوت صاخب وانا أتناءى، مختلطاً بالناس. و... وفجأة، دَوّى صوت بكر المهيب حتى اضطر الخلق، كلهم، الى السكوت:

– ماذا تريد الناس، ياعمر؟

وقبل ان يرد عمر، بَرَزَ من الجَمْع رجل – دهشة. رجل يشبه «نَقّار الخشب» الى حد كبير. وجهه مشطور في اكثر من نحو. ثيابه ملوّثة بالزيت والسماد. على احدى عينيه حَطَّتْ غمامة. لكأن غيمة بيضاء سكنتْ بين جفنيه. كان يضلع، مجاهداً، وهو يحاول الاقتراب منا، دون جدوى؟ لا، لمْ يقترب فِتْراً؟ لكأن سدّاً منيعاً يحول بيننا وبينه؟

مَنْ يمنع الأعرج الضَلَيع من الوصول إلينا؟ كنت افكر في ذلك دون لُقوح. ولمّا عجز الرجل عن شقّ الكتلة الصمّاء التي بدت وكأنها صُمِّمت من اجل منعه من

الوصول، صاح صيحته الشهيرة، تلك. صاح من مَحْبَسه بصوت أجشّ، متعدد الطبقات والمعاني:

– ساندناكم آملين خيركم، ولم يصبنا غير شركم.

صاح، وهو يحاول الكشف عن بعض انحائه التي خبأتها الكتلة المحيطة به، على الفور. كان يبدو مثل عصفور بائس احاطت به هيئة من الزرازير.

ومن جديد، صاح:

– لولا الحياء لأمطنا اللثام عن مواجع اللئام.

صار بكر يهتزّ في مكانه، وهو يرتجف. صار يتحرك حركات غريبة لم اعهدها فيه (ولم اكن اتوقعها منه): حركات «العارف –المتجاهل» الذي يكشف له الآخرون، بالرغم منه، ما كان يعرفه من قبل.

وكأنني سمعت عليا يتمتم بخفوت لصقي، دون ان اعيره اهتماما (ماذا كان يقول؟)، صرتُ أُتمتِم، انا الآخر. كانت تلك اول مرة احسني فيها غير معني بتمتماته؟ كنت قد بدأت اضطرب، انا، ايضاً، وبلا سبب واضح، كما بدا لي. ولكن عن اي سبب يجب ان نبحث عندما تكون الاسباب، كلها، مرمية، قدامنا وبلا غطا(على حد قوله)؟ لكأن الاحداث الجليلة ليست بحاجة الى أحد بعينه لتصيبه. ليصيبه شرّها الكبير. ولكن، مَنْ أنا لأحزن، او لأفرح؟ أولَمْ يصادروا مني كل شيء بما في ذلك شعوري الحميم؟ أوَلمْ يُعلّموني «فضائلهم» الثلاث: الكبت والخجل والإنصات؟ (وهنّ ام الرذائل، كما كان يقول)؟ اين هو «ابن الوراق»، الآن، لأبصق عليه!

لم يعبأ الرجل – الدهشة بحركات بكر العُصابية، (ولا بتوتراتي المدفونة في اعماقي) بل أتبع اقواله وحركاته باقوال وحركات اخرى، وبشكل بدا لي استفزازيا، حتى؟ ولكن، أوَ ليس المستَفَزُّ ضحية لمن استفزّه من قبل؟ على حد قوله.

كان الرجل الاعرَج يمسك بطنه الضامرة بيد، وبالاخرى يفتّش عن شيء ما. عن نبض او حريق. عن اي شيء كان الاعرج الضليع يبحث في ثنايا جلده

المتراكب من النُحول؟ وأين تراه خبّأ اسراره ومراياه؟ ولِمَ تراه يتفرّس، هكذا، في الخلق، وكأنه يدعوهم إلى النزال؟ كانت عينه التي لم تحط الغيمة فوقها، بعد، هي التي تجره من وجه الى وجه. عن اي الوجوه كان يبحث؟ وكيف يلقاه؟ بلى! انه يبحث عن وجه محدد بالذات، وهو مصمم على العثور عليه (وهو ما ملأني استثارة وحُبوراً). لكأنني صرت ارى الحدث الجليل ماثلاً امام عيني، حتى انني كدت ألمسه بيدي؟ لِمَ لا أبحث، انا الآخر، معه عنه، عن الوجه الذي يريد؟

وفجأة، صارت عيون «الدهشة» تقترب مثل الرصاص من وجه بكر. لكأنه الوحش الجائع وقد عثر، اخيراً، على فريسته. وعلى الفور، تحرّك عثمان ليفرّق بين الوجه والعين. وساعدته في ذلك «كتلة العُلوج» الصماء التي لم تترك مجالاً للرجل الضليع ليتحرك، ولا، ليقول ما يريد. ودون ان يتنازل عن حقه في الكلام، ارسل الرجل الصوت من فوق قمة عثمان، و«كتلته». ارسله ليعبر الجموع، كلها، حتى يصل الى بكر. الى حيث يجب ان يصل. لئلاّ يبقى عذر لجاهل، او لمتجاهل. وهو ما دفعه، بالتأكيد، الى ان يقول بأعلى صوته، شاهراً سلاحه الوحيد: يده العارية من السلاح، مشيراً بها الى بكر واعوانه:

– اعتنيتم ببطونكم، واهملتم رؤسكم، وطغاة التاريخ، كلهم فعلوا ذلك؟

وزلزلت الارض زلزالها. واهتَزّ الخلق، كلهم. اهتَزّوا، وكأنهم أُصيبوا بالصاعقة. وبدأ الجَمْع الذي كان صلداً كالحجر الأصمّ، يتخلخل. واختفت الوجوه التي كانت تطل علينا من الفُوَيْهات الصغيرة والكبيرة. وتلاشتْ تلَمُّظات علي الصامتة. تلَمُّظاته التي كانت محمّلة، قبل قليل، بفرح مهيّء للانسكاب.

وحدها حركات عثمان، ظلّتْ منهجية وبلا ارتجال. لكأنه خطط حتى لما لايمكن التخطيط له (أوَلا يكمن سر السلطة التي لا تقهر في هذا)؟ كما كان يقول.

اما بكر فقد ظل صامداً. صامداً، لا يهتزّ، وكأنه صخرة مغروسة في قلب ذلك البشر الذي تفرّق شذراً وهُبابات. وبصوته الهائل نادى، من جديد (وكأنه لم يكن على علم بما كان يحدث ويصير):

– دعوا الرجل يكمل حديثه، ياعمر؟

لم يرد احد مَنهم عليه؟ حتى الرجل الضليع سكت. سكت وكأنه قال كل ما كان يريد ان يقوله. لكن ذلك السكوت الغريب لم يُطمْئِن بكر، ولم يسره، فنادى الرجل، متقصدِّاً، هذه المرة:

- يا ابن أخي...

لم يسمع الرجل نداءه. لم يسمعه لأنه كان قد سقط منهكاً على القاع. سقط، متخبّطاً، وكأنه أُصيب بطعنة لا برْءِ منها.

وكما تفَرَّق الناس في ثوان، تجَمّعوا، من جديد، ايضاً؟ تجَمّعوا حول الجسد الطَعين الذي ظلّ ثابتاً في الارض.

وحسبتني اسمع، برغم الضجيج السخيف، الذي كان يسدّ الأفق، آنذاك اسمع تلك الدَمْدَمَة التي اعرفها، جيداً، والتي طالما بعثت القشعريرة في نفسي:

« هيلا يا قامع... هيلا.. هيلا.. »

الفصل الرابع

[١]

عند صنبور الماء كان موعد لقائنا، من جديد. كنت اتقدّم متناقِضاً، اريد ان اجده، ولا اريد. صرت أتمنّى أن يتبَخّر من العالَم مثل ضباب «الجزيرة» عندما تشرق الشمس عليه.

لست ادري (بلى ادري؟) كيف تلَبَّسَتْني تلك الحالة الآسِرة من الاضطراب الذي لا يحتمل. ولا، لِمَ احسستني ممتلئاً بحنين غامض إلى «لا شيء»؟ الى شيء مبهم لم أكن أُميّزه، بعد.

حنين بمثل هذه القسوة، وانا لا زلت فوق الارض التي احببتها منذ ان داستْها قدماي؟ أتساءل، واقفاً، في العراء الدمشقي الذي لا يرحم.

كنت اراني مهملاً ومنبوذاً. الجُموع التي تملأ الشوارع، حولي، لم تكن تثير لدي إلاّ الإحساس بالتضاؤل. احساس ناجم، ولا بد، عن التخاذل الانساني الذي لا دواء له، عندي: تخاذل الكائن الاعزل (من البصيرة والعقل) في قلب تلك الحُشود التي بلا حدود. حشود لم اعد اعرف (لم اعد اثق بما كنت اعرف، بالاحرى) كيف تفكّر، ولا ما ستفعله من بعد.

ذلك المساء، جئت امشي متحمِّساً للقائه، وفجأة، وجدتني احرن كالحمار. كالحمار «الحكيم» الذي أحس، أخيراً، ان عليقه «الهزيل» لا يستحق العجالة ولا التعب. امشي؟ لا، أسْحَل رِجْلَيَّ! اسحلهما مثلما انْسَحَل الرجل الضَلَيع على القاع: قاع دمشق اللامبالية، الكثيرة الشجون.

كنت اعرف انه سيصل، كالعادة، قبلي. لكنني كنت اعرف، هذه المرة، انني لن القاه. لن ألقاه حتى ولو أمسكَ بعينيَّ وأدخلهما في عينيه؟ كنت اريد ان اكون وحيداً، وحيداً وبلا سند. كنت اريد هذا. وكانت تلك اول إرادة تتجلّى لديّ. إرادة احسستها تتجاوز حدود اللفظ المطلق لتغدو فعلاً قابلاً للتحقيق.

عند صنبور الماء العتيق كان ينتظرني، بالفعل. كان يغسل، كعادته، وجهه اللّيِّن ويديه. يغسلهما بماء الفيجَة البارد كالسُمّاق. كان يرشُّ الماء على نفسه وكأنه آحاد. يدير ظهره لي، ولم أُدرِ له ظهري. كنت انظر اليه. كنت قد بدأت أنظر إليه، بلا مبالاة. انظر اليه كما انظر الى رِجْمٍ من الحجر الاسود. رِجْم من الرُجوم الكثيرة المهملة في الحماد قبل ان يغمره سَراب الجزيرة الراكض في الفضاء.

للحظات طويلة،وقفت على بَيِّنَة منه. وقفت أتأمّله عمداً.

أتأمله «بحياد علمي» كما كان يقول: أقدام فُطْحٌ تلبس الارض بدلا من ان تقف عليها. ظهر يابس يكاد ان ينكسر من مجرد الإنحناء. رقبة قصيرة مَدْحوسَة في جسد مهمل لايُنْبيء إلاّ عن القلق والارتباك. ورأس صغيرة مثل رؤوس البصل البَرّي في فيافي الجزيرة المحرومة من الغيث. رأس هشّة، شديدة الإستدارة، بضع قطرات من الماء تكفي لإغراقها ،ومع ذلك، كان يحطّها تحت سيل من الماء! أيّ نور يمكن ان يشعّ من كائن مثل هذا؟ وأيّ تمرّد فعلي يمكن ان يحققه امريء لايعرف حتى كيف يمشي؟ كيف أُصبِْتُ بعمى البصر والبصيرة كل هذه السنين؟

ولكن، لِمَ لَمْ أرَه على هذه الصورة، من قبل؟! صرت أتساءل بحرقة وامتعاض. من قبل، كنت احسب أن بيتي من زجاج، وأن عليّ ألاّ أقذف الآخرين بأحجار «نقدي» لئلاّ يتهدّم البيت فوق رأسي. ولمْ أكن ادرك أنه من زجاج «مُحْكَم السَدّ»، وانني سأختنق بنفاياتي إنْ لمْ اقذفْهم ويقذفوني، علّني افتح ثغرة في كتامة الحياة. ثغرة أتنفّس منها حتى لا اموت خنقاً.

لا، لم أكن أُدرِك، بعد «ان الوهم لمن لا يميّزه حقيقة». وانه «يكفي ان نقهر الخوف مرة، حتى لا نخاف الى الأبد»! كما كان هو،نفسه، يقول. اية مسافة لا متناهية تفصل السمع عن الإدراك، إذن. اللعنة؟

في مواجهة صنبور الماء الذي كان يقف فوقه، وقفتُ زمنا طويلاً، بلا حراك. وقفتُ أتأمَّله صامتاً وحزيناً. لكأنني أودِّع أيام حياتي العزيزة عَلَيَّ، تلك التي احسستها راحت هباء.

كان مأُخوذاً بتدليك هيئته واركانه. يُبَلِّلُ نفسه بحماسة أذهلتني، مثل مسافر

في الحَماد عثَرَ على «النبع» بعد يأس طويل. لا، لم اكن افهم ذلك الشغف الذي يربطه بالماء وهو المتواني. كنت أتملاّه دون ان اقترب منه. لكأنه غدا كائناً مبتذلاً، بلاأهمية أو كيان؟ وفجأة، خطرتْ لي خاطرة اربكتْني: منذ عرفته وهو يلبس الثياب، نفسها؟ ووجدتني أتساءل بحماقة: كيف يُغيِّر المرء ما في نفسه، إنْ لمْ يجرؤ حتى على تغْيير لِبْسه؟

كنت لا زلت أتردد في الذهاب اليه او التراجع عنه، عندما بدأ الصداع (كما من قبل) يمشي الهُوَيْنى في رأسي. صداع عنيف ينطُّ في قحفي مثل أحصنة «الجزيرة» الشَموصَة عندما تداهمها الذئاب. صداع لم يدع لي ملجأ ألجأ إليه مع انني كنت اختُلُ، كالحَرامي، خلف عَمود التَيْل الاسود القديم. وهَممتُ ان اسرع الرحيل قبل ان يلتفت إليَّ. كنت لا زلت اخشى لَفْتَته المريبة نحوي، إذن؟ اخشى أن يراني اذا ما رفع رأسه، وكأنه سيجرِّدني، أمام الناس، من ثيابي؟ اخشى؟ لا لم أعد اخشى أحداً. قلتُ، مُتَبَهْوِراً، لنفسي؟ ولَكَمْ أسعَدَني ان اكذب عليها، صراحة، في ذلك المساء الممتلىء بالأراعيب.

وبغتة، وجدتني ابتعد عنه. ابتعد بتصميم وانا اتكلم بصوت عالٍ. صوت يسمعه الآخرون، لا انا، فحسب. كنت اريد، هذه المرة، ان أسير، وأن أتكلم، بدلاً من أن أقف صامتاً كالحمار. هكذا، أُدْرِك، ربما: انني لم اكن أُدرِك شيئاً.

كان عَلَيَّ (ذلك المساء، ايضاً؟) ان أعود، بعد ان التقي به، الى «مقهى الاصدقاء» لالتقي بهم، من جديد.

امام المقهى الصغير وقفتُ متردداً. كانوا يجلسون بأبّهَة على مقاعدهم العتيدة وكأننا في ليلة الامس مازلنا! كانت الأبخرة المحيطة بهم تملأ الفضاء بقوة جذب آسرة. تكاد ان تسحبني، بالرغم مني، إليهم. كان الكرسي الهزيل المخصص لي مرمياً في الهامش باهمال. كانوا، كعادتهم، يتنافرون ويتحاورون، مع انهم «ليسوا اعداء، ولا هم اصدقاء»! كما يقول.

في مواجهتهم، كنت ألْتَهِبُ وأتنامى. احاول ان استغيث، ولكن، بمن يمكن لي، بعد الآن، ان استغيث؟ كنت اكتشف (وكأن أحداً حقَنَني، فجأة، بالادراك!): ان

التحرر، وربما التطوّرايضاً، ليس في «اتخاذ مواقف نهائية»، بل في «عدم اتخاذها»؟ لأن المواقف، كلها، وأيّاً كانت: «لا تصلح إلاّ لكي تسد أفق العقل، وتدمر متعة الحياة»؟

امور كثيرة اخرى كانت قد بدأت تتفتّح في ذاتي (على غير انتظار مني)؟ اين كانت تختبيء تلك الأمور؟ مَنْ يدري؟ وكأنني ادركتُ في تلك اللحظات البديعة، ما لَمْ ادركه في حياتي البليدة، كلها، تبيّنَ لي، فجأة، مدى بؤسي، وقسوة توتري الذي كنت اعانيه منذ سنين: توتّر الموعد نفسه، بانتظار الناس انفسهم، وفي نفس المكان؟

كان يكفي ان اخلِّص نفسي من أسْرِها، ان أقتلعها من سكونها القديم، وان اسير مُطاوِلاً بردى، حتى يغيب كل شيء، ويختفي الصداع.

ذلك المساء، كنت اريد. كنت اريد ألاّ أعود الى حيث كنت. كنت اريد ان امشي (أنا) دمشق، كلها. ان اراها بقدميّ. ان أشمّها بعيوني. ان اتخلص من معرفتي القديمة ومن مصادرها، معرفة الآخر المغروسة فيَّ: المعرفة الزائفة تلك «التي لا هدف لها إلاّ تدجين حساسية الكائن، وتثبيط مخيلته. فالكائن لا يولد خانعاً وإنما يصيره»! كما كان يقول.

كنت.. كنت لا زلتُ اتردد بين الرجوع اليهم، وبين المسير، عندما مَرَّتْ: فتنة جسدها الشبق، وإغواء حركتها المتواطئة، جعلاني احسم الامر، فوراً؟ ووجدتني أحثّ نفسي بحميّة: عليكَ، الآن، بها، وسيكون لديكَ الوقت الكافي لتفكِّر. لتعيد النظر بكل شيء؟

- انتهت -

خليل النعيمي

دمشق ٦٧ رواية

هذا الكتاب

وبغتة، قال عمر:

- لِمَ يتكلم الكائن إنْ لمْ يكن لكلامه صدى؟

قال ذلك، وهو يلتَفُّ باثوابه الكثيرة التي لم تكن تستجيب لضخامة جسده الذي شَبَّ عن الذوق.

ظل بكر صامتاً وكأنه ليس من اهل الجلسة، ولا من عتّابها. كنت لصقه ولم أكن اسمع همساً. كان المساء الدمشقي قد بدأ يتحوّل الى ليل، «والليل لا يؤمَن شَرُّهُ» (كما كان ابن الوراق يقول)؟ ألذا صار بكر يتطلّع حوله، بريبة، كذئب يخشى على نفسه من هفوة لا بد منها؟

